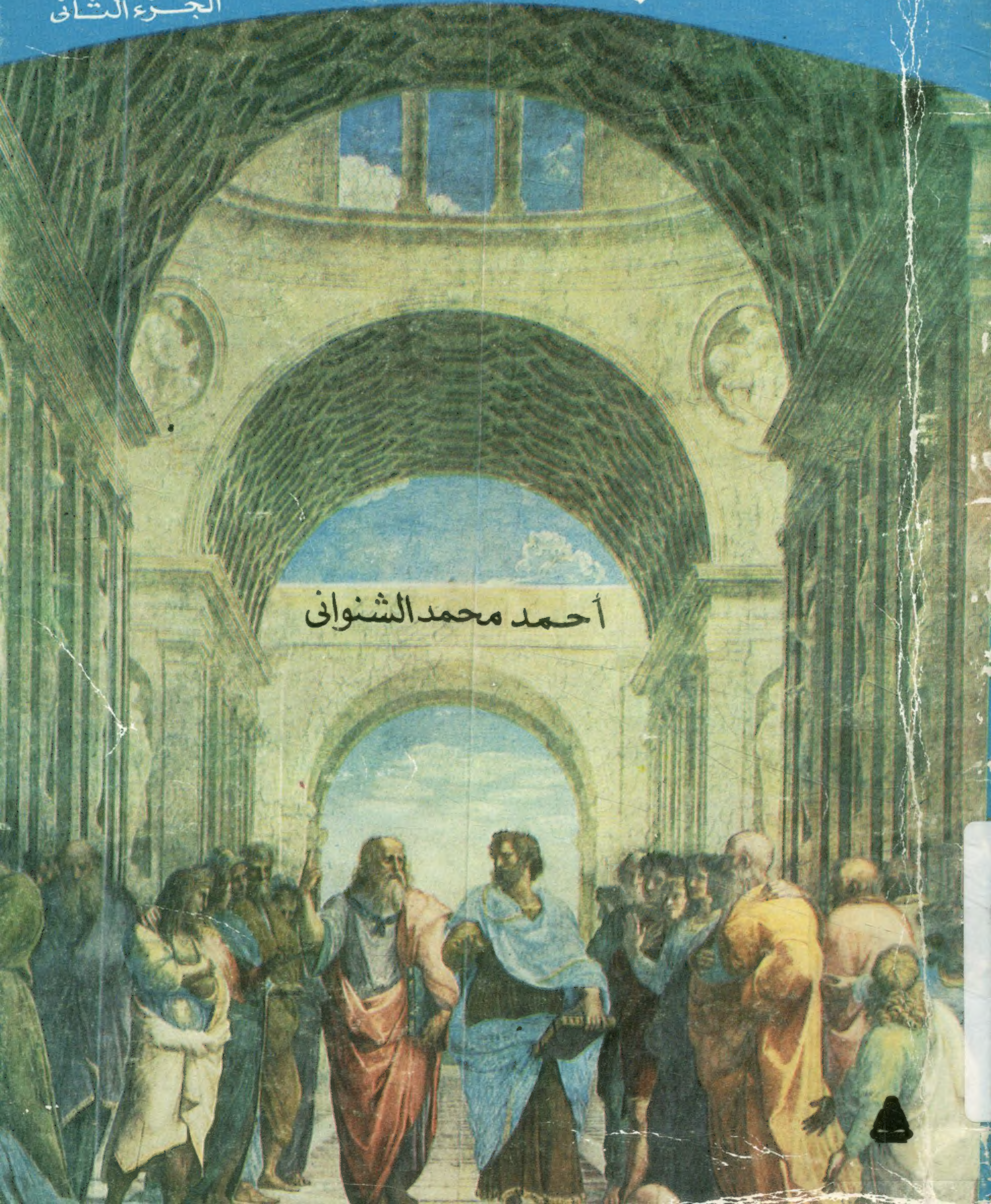


الالف
كتاب
الكتاب
١٢٤

كتب غيرة الفكر الانساني

الجزء الثاني

أحمد محمد الشنواني



كتب غيرت الفكر الإنساني

الألفا كتاب الثاني

الإشراف العام
و. سمير سرحان
رئيسة مجلس إدارة

رئيس التحرير
لمسعى المطيعي
مدير التحرير
أحمد صليحة

الإشراف الفني
محمد قطب

الإخراج الفني
محسنة عطية

كتب غيرت الفكر الإنساني

الجزء الثاني

أحمد محمد الشنواني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

المقدمة

لعل التاريخ ، ذلك البحر الهائل الزاخر بالأحداث والأبطال ، وبالحقائق ، وبكل أسرار قصة الحضارة الانسانية ، هو أكثر الموارد إثارة وجاذبية للقارىء العادى ، وللدارس المتخصص على السواء . فقراءة التاريخ متعة للعقل وللخيال معا . فهو خلاصة بحوث ودراسات ورؤى وافكار عكف عليها آلاف المؤرخين طوال التاريخ ليرووا لنا قصة الحياة : كيف كان وجود الانسان ، وكيف أصبح ، وكيف سار فى طريقه الطويل عبر آلاف السنين .

ويختلف أسلوب الباحثين فى تفسيرهم لمادة التاريخ . فمنهم من يقدّمونه من خلال الأحداث الهامة البارزة والمؤثرة فيه ، والتي تمثل علامات المرور التى تحدد للتاريخ مساره وطريقه . ومنهم من يقدّمونه من خلال أبطال التاريخ وأعلامه الذين كان لهم بما قدموا للانسانية من كشف أو علم أو فكر . وهل يصنع أحداث التاريخ الا الانسان نفسه ومن خلال فكره .

ومن حيث الفكر ، فهو الذى يقود العالم ، انه القوة الحقيقية التى تقرّر مصائر الشعوب والأمم وتحدّد لها أهدافها ، فليس من شئ أغلّ من الطاقة الفكرية فى الأمة ، ولا أعظم من نفحات العقل وهمسات القريحة ووثبات الرأى . وان أهم ما يصبو اليه الظالمون والطغاة وأعداء الانسانية هو إبادة أصحاب القرائح والعبقريات ، لأنها تزيل من طريقهم قوى الفكر التى تخيفهم .

ولأن الأفكار تتمتع بقوة ذاتية هائلة لا حدود لها فانها لا تخنقها المقاومة ولا تردّيها الخضوع . بل انها

لنستكين تحت الضغط زمنا ثم لا تلبث ان تنفجر • انها
تفعل فعلها ببطء دائما - صديقة كانت أم عدوة - ولتن
عارضها فريق وحمل عليها آخر ، فان هنا لا يحول دون
تأثيرها في اصدقائها وفي اعدائها ، بل وفي اشد الناس
هجوما عليها ، وهنا مصدر قوتها •

كما ان الأفكار - على مدى التاريخ - لا تعترف
بالحدود والسدود ، بل تتعداها لانها بطبيعتها عالية
جامعة • فهي لا تحبس داخل الحدود الجغرافية
والسياسية ، ولا تختص بها امة دون أخرى ، وانما هي
تنتشر وتستمر فتفرض سلطانها على بني الانسان بقدر
ما بها من طاقة وحيوية ، لا سيما في هذا العصر الذي
أصبحت حياة الانسان فيه عالية الى أبعد الحدود بفضل
العلم وتشابك المصالح بين جميع الأسر البشرية • فلقد
مضى عهد العزلة واشتدت الحاجة في كل امة الى أن تدبر
البصر حولها لتعلم من أين تبيئها التيارات التي تؤثر
فيها ، وكيف تغزو الأفكار والآراء والمعتقدات وكيف
تنتشر •

وما من اصلاح تم أو تقدم حصل ، وما من نهضة تحققت أو رسالة
انتشرت ، الا وبدأت خاطرة راودت الأذهان ، أو أملا جاش في الصدور ،
أو مثلا أعلى توجهت اليه الهمم وتعلقت به النفوس - أي بدأت فكرة
تغذى بها صاحبها أولا ، ثم أصبحت غذاء للآخرين ، ومركزا للاشعاع
منه ينطلق التاريخ ، وذلك ينطبق بالطبع على آثار صاحب الفكرة من
كتب ومؤلفات ، لأنها شعلة منه وجزء من كيانه ، فيها جوهر وجوده •
وأنت تحس حين تقرأها بنفحة من نفجاته • فليت شعري الام يصير
العالم لو أطاح الزمان بمكتباته ؟ يخيّل الى أن الانسانية لو حرمت من
مكتباتها لحرمت من وسائل حياتها ، ومبرر وجودها ، فكل مكتبة انما هي
مجموعة من وسائل ومناهج وأسباب للحياة •

أما دخلت الى عالم الكتب ففكرت في هذه العبارات من الحكمة
المعتقة استقطرها أصحابها من غير ما في قلوبهم وعقولهم ، ورصفوها
شرايا سائفا حسبها للقاصدين المرتوين ؟ وبماذا تكرم الحياة ان لم تكرم
بفكرة ، وبماذا تنتقل الفكرة من جيل الى جيل ان لم تنتقل بكتاب ؟

وبعد .. فهنا الجزء الثاني من كتابنا « كتب
غيرت الفكر الانساني » والذي جمعت فيه من الكتب
الهامة على مدى تاريخ الفكر البشرى والتي كان لها اكبر
الآثر فى تغيير فهم الانسان لنفسه وللمجتمع الانساني
من حوله .

ان الكتاب - بجزءيه - هو خلاصة قراءات قضيتها
بين الكتب .. وهى ليست كتباً عربية فحسب ، بل
وكتب غربية ايضا ، لفت نظرى اليها ، ما فيها من فكر
وعمق وتجربة وخبرة .

للك رايت ان اضعها بين يدى القارىء لعله يجد
فيها ما وجبت .

والله أسأل ان ينفع به ، ويجعله خالصا لوجهه
فانه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

التاريخ الجامع

هيروودوت

٤٢٧ ق . م

التاريخ فرع من فروع المعرفة التي كثر فيها اختلاف الآراء ، وتعارض
النظريات والأحكام ، ولا يزال موضوعه محفوقا بالغموض برغم تكاثر
الفلسفات التاريخية . والتفسيرات المتنوعة ، ولا تزال هناك صعاب قائمة
في تحديد مكانته ، واستقصاء معالمه ، والماضي ليس له وجود الا في
الصورة التي يصورها لنا خيالنا ، أي في الصورة التي يعيد العقل خلقها ،
ولعل هذا هو الذي حدا الفيلسوف الايطالي بنديتو كروتشه على أن يقول
كلمته المشهورة وهي « ان كل تاريخ تاريخ معاصر » .

وكانيت الأساطير والخرافات غالبة على التاريخ في أول أمره ، لأن
الأسطورة أو الخرافة تشغل بال الرجل البدائي أكثر مما تعنيه الحقيقة
الواقعية ، والخيال والتوهم أشد استيلاء على نفسه من الرؤية العقلية
والمشاهد الحسية ، وليس من الأمور السهلة رؤية الحقائق التاريخية
كما هي في الواقع ، والقدرة على ذلك ليست من الهبات التي تجود بها
علينا الطبيعة في يسر ، وإنما هي ثمرة من ثمرات الثقافة العالية ، ولم
يصل اليها شعب من الشعوب الا بعد أن وصل الى مستوى رفيع من
النضوج الفكري ، وقد لوحظ في حياة الأمم وتاريخ الأدب ان الشعر
كان على الدوام أسبق من النثر ، وليس ذلك بالمستغرب ، لأن الشعر
عماده الأخيلة والأحاسيس ، والنثر أكثر اعتماده على الفكر والمنطق ،
ولذلك كان الشعر القريب من الانشاء التاريخي رائجا وشائعا عند معظم
الأمم القديمة قبل أن يكون لها تاريخ ، فالهند تفخر بالرمايانا والمهابهاراتا
وظهرت عند اليونان البأذة هوميروس والأوديسا قبل أن تعرف الأدب
التاريخي ، وقد تكرر ذلك في تاريخ أوربا فظهر الشاعر دافني في مطالع
عصر الأحياء قبل ظهور المؤرخين جويكشياردينى وماكيافيلى ، وأظهر
شكسبير براءة فائقة في تصوير الشخصيات لم يستطع الاقتراب من
مباماتها المؤرخون الانجليز الا بعد مضي فترة من الزمن .

فن كتابة التاريخ

وقد بلغت بعض الأمم القديمة مستوى حضاريا عاليا، ولكنها مع ذلك لم توفق في اجادة فن كتابة التاريخ ، وقد كانت كتابة التاريخ عند قدماء المصريين والآشوريين مقصورة على سلاسل أنساب الملوك والأسر الحاكمة ، وملونات عن الغزوات الحربية والحملات الظافرة ، والمعاهدات والأحداث الهامة والمغامرات ، وحوليات البلاط ومناجح الملوك ، والواقع ان ملابسات الظروف والأحوال التي ساعدت على توجيه العناية في كتابة التاريخ على هذا النمط كانت هي نفسها التي تحول دون تقدم الكتابة التاريخية ، وارتفاع مستواها ، وذلك لأن ازدهار الكتابة التاريخية يستلزم وجود قومية قائمة في ظلال الحرية والمساواة ، ولم يكن هذا متوفرا في كثير من الأمم القديمة ، ولذلك جاء التاريخ الذي دون في أكثر تلك الأمم الخالية سطوحيا ضيق المجال ، لانه كان يكتفى بسرد أخبار أفراد الطبقة الحاكمة والأحداث العامة ، منفصلة عن بيان أسبابها وعللها .

ولم يصبح التاريخ فنا مستقلا قائما بذاته لاشباع غريزة حب الاستطلاع عند الانسان وحرصه على معرفة ما صنعه اخوانه البشر الا عند اليونانيين ، فقد سعوا الى تمجيد أبطال لم يكونوا آلهة ولا ملوكا بل ممثلين للشعب بمعنى أوسع وأعم . وهكذا انصرفت الالبادة الى رواية الأعمال الجليلة التي قام بها أخيل وأجاكس وهكتور أكثر من انصرافها الى رواية أعمال الملكين الغريمين مينيلائوس وبريام . وقد كانت أعمال كل هؤلاء الأبطال تنسب قديما الى الملك . على أن الحال تغيرت عندئذ فأصبح من حق الفرد الذي يقل عن الملوك مرتبة أن تروى أنباؤه . . . زد على ذلك أن الدولة نفسها قد غدا تاريخها يروى مستقلا عن تاريخ حاكم معين من حكامها . والحق أن تواريخ هيرودوت واكسينوفون وتوسيديدس وبوليبيوس تسعى في الواقع الى تمجيد الشعوب لا الى تمجيد الأشخاص .

وهذا التحول من النظرة الانانية الصرف الى النظرة التي تؤثر الغير يعد خطوة كبيرة في هذا السبيل . فقد أصبح الكاتب وقتذاك يعنى عناية واضحة بتسليية القارئ دون أن يلقي الرهبة في قلبه ، ويفكر في تثقيف الجماهير في الأمور الخاصة بالمواطن الصالح والسلوك الحميد في المجتمع أكثر من تفكيره في احترام الملوك والآلهة ، والمؤرخ اذ يفعل هذا يبين تقدم الحضارة في العهد اليوناني والعهد الروماني الأول .

وكان أول تاريخ حقيقي يكتب باليونانية هو ما كتبه « هيكاثيوس »

الميليتى ، (١) الذى نبه شأنه حوالى سنة ٥٠٠ ق.م ، وقد صرح فى كتابه قائلا : « ان ما اكتبه هنا هو البيان الذى اعده حقا ، لان الروايات اليونانية متعددة وفى رأى انها تدعو الى السخرية » ويبدو أن كتابه كانت تغلب عليه صفة الجغرافيا ، ولكنه احتوى مع ذلك على الكثير مما يدخل فى التاريخ ، وقد تناول موضوعه من جهة نظر انتقادية عقلانية ولم يحجم عن تجريح الأساطير الشائعة وحاول أن يذكر عن عصره ما يراه حقا . وأثر أن يجعل هدف التاريخ ذكر الحقائق لا التسلية والترفيه .

ولم يمض ربع قرن على ازدهار هيكاتيوس حتى ظهر هيروdot الملقب « بابى التاريخ » .

هيروdot ابو التاريخ

ويعد هيروdot أول مفكر كرس خبرته وتجاربه للمعرفة الانسانية . وأول مؤرخ علمى حاول أن يخلق من القصص والأقاويل المتناقلة سلسلة متصلة من الأحداث تربط أسبابها بنتائجها . وهيروdot يونانى جنسا ولغة ، فقد ولد عام ٤٨٤ ق . م ببلدة هاليكارناسوس احدى مدن كاريا (التى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى) ، احدى مستعمرات الدورين (٢) ، لكنها كانت أكثر تأثرا بالثقافة التى ازدهرت فى المدن الأيونية المجاورة . وفى القرن الخامس ، كان سكان كاريا الذين يتكلمون اليونانية ، ينطقون باللهجة الأيونية . وفى طفوله هيروdot كانت كاريا اقطاعية للامبراطورية الفارسية . وقد اضطر هيروdot ، وهو ما يزال حدثا ، الى مغادرة وطنه ، بسبب الاضطرابات السياسية . وقضى فترة من الزمن فى ساموس ، ثم أمعن فى الترحال ، وزار أثينا ، حيث تعرف الى بركليس وسوفوكليس ، وقضى باقى حياته فى تورى (أسست سنة ٤٤٣ ق.م) ، حيث توفى فى بداية الحرب البيلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤ ق . م) أى حول سنة ٤٢٦ ق . م . وقد كان يسعى فى الزمن القديم (حتى القرن الثالث من هذا العصر) . بهيروdot التورى .

وقد قام برحلات واسعة ، فزار مصر ، وأبحر فى النيل حتى بلغ أسوان ولعله ذهب الى برقة أيضا . ومر بغزة وصور ، وأبحر فى الفرات حتى بلغ بابل ، وتعرف الى المنطقة الشمالية من بحر ايجة ، حتى مدينة طاسوس . وأهم ما فى رحلته ، انه زار سكيتيا التى تقع على شمال البحر الأسود ، ولا بد من أن يكون قضى بعض الوقت فى أولبيا قرب مصب الهيبانوس وفى مكان يبعد عن المصب قليلا فى مجرى النهر .

وقد أطلق عليه شيشرون (٣) لقب « أبو التاريخ » . . . وعلق به هذا اللقب المشرف منذ ذلك الحين ، وهو فى الحقيقة أهل له . واذ صرفنا النظر عن المؤرخين العبرانيين ، كمؤلف كتب صموئيل (فى القرن السابع قبل الميلاد) فلا بد لنا من أن نذكر أنه كان فى بلاد اليونان عدد من مدونى الحوليات التاريخية . أمثال هيكاثيوس . كما أنه كان هناك غيره من مدونى الحوليات ولكن هيروdot كان أول من وضع كتابا محكم الأسلوب ، سهل القراءة ، والحقيقة أنه ألف أول قطعة رائعة فى النشر اليونانى .

★★★

ولنبحث الآن فى هذا الأثر العظيم .

انه وصف لبلاد اليونان ومصر وآسيا الصغرى ، فى ماضيها وحاضرها ، والغاية التى رعى إليها هى وصف ذلك الصراع العظيم الذى احتدم بين آسيا واليونان ، منذ زمن كروسوس (ملك ليديا من سنة ٥٦٠ - ٥٤٦ ق م) حتى زمن كسركسيس ونهاية الحروب الفارسية ، أو بعبارة أدق ، حتى الاستيلاء على سستون (٤٧٩ - ٤٧٨) . وكان هيروdot عندما يشير الى مصنفه هذا لا يذكر أى كتاب ، بل يدعو بالتاريخ . ويظهر لنا غرضه بوضوح فيما قاله فى الفقرة الأولى منه :

« الذى تعلمه هيروdot الهاليكارناسى عن طريق البحث ، تجده هنا ماثلا بين يديك ، وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضى فى أذهان الرجال على مر الأيام . وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التى اضطلع بها اليونانيون والأجانب - وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم - الى من يظهرها للملا » .

وهذه الفذلكة البسيطة ، لها تأثيرها ودلالاتها فى آن واحد . فقد كانت غايته أن يسجل للأجيال التالية تلك الأعمال العظيمة التى قام بها اليونانيون والبرابرة (الأجانب) أيضا .

وهذا أمر يسترعى الانتباه ، لأن بعض هؤلاء الأجانب ، الذين يشير اليهم كانوا الى مدة قريبة ، أعداء لليونانيين فى حرب ضروس أوشكت على نهايتها فى ذلك الوقت ، الذى كان فيه هيروdot عاكفا على كتابة تاريخه . فما الذى حدث له ؟ هل كان يفتقر الى الشعور الوطنى ؟ لقد كان رجلا متمدنا ، حاول أن يفهم بأمانة ولطف أنباء الأمم الأخرى ، ويجب أن نضيف الى ذلك ان تلك النظرة العالمية كانت أكثر ملاءمة له ، منها لرجل ينتمى الى طيبة أو أثينا . لانه كان ينتسب الى كاريا التى مصرها الدوريون ولكنها كانت خاضعة لمؤثرات أيونية وقارسية ، وهكذا كانت شبه شرقية .

وقد كتب بلوتارك (النصف الثاني من القرن الأول ، كتابا دعاه
(De malignitate Herodotis) « تحيز هيرودوت ، اتهم فيه
أبا التاريخ بأنه ميال الى البرابرة « الأجانب » ، واتهمه بأنه مجحف .
وذلك لانه لم يكن متحاملا . وهو بهذا يذكرنا ببعض المتعصبين في أيامنا
هذه ، الذين يرتابون في كل انسان لا يكون متبجحا في شعوره الوطني
مثلهم . ولنلحق هذه المعجزة أيضا ، بسلسلة المعجزات اليونانية ، وهي
أن أول مصنف يوناني في التاريخ كتبه رجل شهد بأم عينه كثيرا من
وقائع تلك الحرب الرهيبة التي دارت رحاها بين فارس واليونان ، ومع
ذلك كله استطاع أن يتحدث عنها بسماحة وانصاف دون أن يطوى نفسه
على ضغينة عنصرية . وبعد أن نوهنا بهذه الفضيلة الأساسية التي تكشف
عنها عقل هيرودوت . ننتقل الى تأمل غايته ومنهجه بعناية أكبر .

وسنتحدث أولا حديثا موجزا عن مصادره . والمصدر الأول دون ريب
هو تلك المعلومات التي جمعها من رحلاته في القارات الثلاث . وقد كان
ناقدا محصا الى الغاية التي يتيحها عصر كعصره . فلم تكن نتوقع مثلا أن
ينكر الكهانة وأن يبين ان اعتقادا كهذا لا يمكن أن يتم الا بشروط خاصة .
ولم تكن النبوءات في نظره مقبولة بقيمتها الظاهرة ، فالانسان يستطيع
ان يتعرف الى عدد منها وان يختار من بينها ما شاء له الاختيار . والتكهن
اذن ، كما هو الآن ، ليس الا نوعا من التفكير بصوت عال أو من تبادل
الآراء . وكان هيرودوت في أغلب الأحيان يعبر عن شكه ، أو يحتاط لنفسه
ببعض الملاحظات كقوله : « أنا أقص القصة كما رويت لي » وكان في
بعض الأحيان يورد عدة روايات ويتركها للقارئ ليميز خبيثها من طيبها ،
وكان بارعا في رواية القصص ، وقد قيل انه كان يرتزق بذه الوسيلة ،
وان كنا لا نجد ما يثبت ذلك ، ولكننا بعد لا نعرف المورد الذي كان يأتيه
منه الرزق ، ولعله كان تاجرا ، ولا شك ان التجارة كانت تلذ له ، كما
كانت تلذ لأكثر اليونانيين . وكتابه يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة
التي يمكن أن تنحى منه جانبا ، كما انه يغص بالاستطرادات الممتعة التي
كان يحب ايرادها على طريقة المحدثين البارعين . ولا يستبعد أن يكون قد
قلب بعض الوثائق ورأى بعض النقوش ولكنه اعتمد على السماع في المقام
الأول ، وكان بارعا في المقارنة بين الشهود وتمحيص أخبارهم . وهو
يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود ، وسماع أقوالهم بعينها ، الا أنه بعد ذلك
كله يدلي بخواطره وآرائه التي غالبا ما تكون رقيقة دمثة تنبع من عقل
ذكي وتفيض من فكر صائب .

ومصنفه يعتبر ذخيرة من الأساطير اليونانية والشرقية ، وهو يقارن
في هذا الشأن بكتب الرحالة العظام أمثال ماركو بولو (النصف الثاني

من القرن الثالث عشر) وابن بطوطة (النصف الثاني من القرن الرابع عشر) .

وقد كان هيرودوت من أعلام النثر اليوناني المرسل وكان أول مؤلف حمل اليونانيين على أن يعتقدوا أن النثر قد يحوى من الجمال والاثارة ما يحويه الشعر . وقد لاحظ ذلك أيضا ، رجل آخر من هاليكارناس هو ديونيسيوس (النصف الثاني من القرن الأول) .

تلخيص موجز للكتاب

يتألف تاريخ هيرودوت الجامع من تسعة كتب يحمل كل منها اسما من أسماء ربّات الشعر والموسيقى وينقسم الى عدة فقرات مرقمة ، ويمكننا أن نقسمه الى جزئين : الجزء الأول من الكتاب الأول حتى الكتاب الخامس وفيه يتتبع هيرودوت خطى توسع امبراطورية الفرس وسيطرتها على بلدان الشرق القديم مما يدفعه الى التحدث عن تاريخ تلك البلدان . والجزء الثانى من الكتاب الخامس عندما بدأت ثورة ايونيا عام ٥٠٠ ق . م حتى آخر الكتاب التاسع والآخر ، وفيه يسرد علينا هيرودوت الأحداث التى سادت دويلات اليونان والمعارك والمباحثات والتوتر الذى أصاب كل من الفرس واليونان . وبهذا فالجزء الأول يسمى « تاريخ فارس » والجزء الثانى « تاريخ الحروب الفارسية » .

الكتاب الأول

وعنوانه « كليو »

ويسرد فيه هيرودوت الفقرات الست الأولى الأساطير التى تفسر سبب التصادم بين الفرس واليونان ثم يرفضها كلها بوصفها غير تاريخية ، ويسترسل ليضع يده على السبب التاريخى الفعلى ألا وهو « كريوسوس » اليونانى ملك « ليديا » بساحل آسيا الصغرى . فقد كان هذا الرجل أول من زج باليونان فى هذا الصراع . ولكى يوضح الموقف للقارىء يسرد هيرودوت تاريخ مملكة « ليديا » هذه اذ يرجع بنا الى أقدم ما أمكنه الحصول عليه من حقائق عن أجداد « كريوسوس » ملوك « ليديا » . فقد أخذ هؤلاء الملوك يوسعون من رقعة نفوذهم حتى أصبح كل يونان آسيا الصغرى خاضعين لنفوذ ليديا . ولما تربح كريوسوس على العرش كان أغنى رجل فى العالم لوفرة موارده وكثرة ممتلكاته . غير انه يتمادى فى افترائه حتى وصله أنباء الفرس . فقد أطاح « قورش » الفارسى بملك

الميديين وتربع على العرش لتزداد قوته يوما بعد يوم . فخشي « كريوس » أن تمتد أطماع قورش الى أملاكه وقرر القضاء عليه فذهب يسعى للتحالف مع الدويلات اليونانية القوية ، وهي أثينا واسبرطة الدورية . وهنا يمسك هيروودوت بطرف الخيط لينقلنا الى حقل التاريخ اليوناني فهو يظهر لنا الفارق ما بين الايوني والدوري ، ثم يشرح الأوضاع التي كانت عليها كل من أثينا واسبرطة في ذلك الوقت اذ كانت أثينا في قبضة حاكمها الطاغية بيستراتوس بينما كانت اسبرطة قد خرجت لتوها ظافرة من حرب مع جارتها « تيجيا » . وقد نجح « كريوسوس » في التحالف مع اسبرطة ، ثم نعود الى « ليديا » لنرى ما فعله ، فقد جمع جيشه وشن حملة عنيفة على منطقة « كبادوكيا » الخاضعة للفرس آملا أن يلتقي بقورش ويسحقه هناك . ويحدد لنا هيروودوت الأسباب الحقيقية التي دفعت كريوسوس الى شن هجومه على « كبادوكيا » فقد أراد أن يوسع من رقعة نفوذه . كما ابتغى القضاء على قورش لأن الملك الميدي الذي خلعه كان زوج أخت كريوسوس ، وما أن دخل كريوسوس أرض كبادوكيا حتى استعبد أهلها الأبرياء وحطم منازلهم وخرب حقولهم . وسرعان ما علم قورش بالأمر ، فأسرع يقود جيشه الى « كبادوكيا » حيث التحم الجيشان بلا جدوى . فعاد كريوسوس الى عاصمته « أردريس » ليدعم قواته . غير أن قورش باغته وهاجمه في « سارديس » مما أربك كريوسوس واحل ليديا ، وسقطت « سارديس » وخضعت ليديا للفرس . ولم يتمكن الاسبرطيون من ارسال العون لكريوسوس لضيق الوقت ، بينما سقط هو أسيرا في قبضة قورش . ولكن أبقى قورش على حياته بعد أن حاول حرقه فأمطرت السماء وانطفأت النيران . وهكذا أحل الفرس بساحل آسيا الصغرى اليوناني . وفي ذيل هذا السرد يذكر هيروودوت عادات أهل ليديا وطباعهم . ولكن من هو قورش ومن هم الفرس ؟ .

يسأل هيروودوت هذا السؤال لينقلنا ببراعة فائقة الى ميدان التاريخ الفارسي ، فقد أقام الأشوريون امبراطورية واسعة دامت طوال خمسمائة عام الى أن ثار الميديون على سيطرة آشور وحصلوا على حريتهم ، فثارت الشعوب الأخرى الخاضعة لآشور ، وما أن حصلت على حريتها حتى سقطت تحت نفوذ الميديين فآلت امبراطورية آشور الى الميديين الذين أوسعوا منها وفرضوا سلطاتهم على الفرس . وتزوجت ابنة ملك الميديين من أحد نبلاء الفرس ، ولكن يرى أبوها الملك حلما يحذره من الطفل الذي ستلده ابنته ، ولما ولد قورش حاول جده الملك التخلص منه ، غير انه أفلت من المكائد وشب عوده وأصبح مرموقا بين الفرس بنى جنسه الذي علقوا عليه آمالهم . وبالفعل قاد قورش ثورة الفرس ضد جده ملك الميديين وخلعه ليتربع على العرش . وآلت امبراطورية الميديين الى الفرس .

الكتاب الثانى

وعنوانه « ايوتربى »

يعد هذا الكتاب أقدم مؤلف تنفرد به مصر . فقد كانت حضارتها حتى فى زمن هيروودوت حضارة عريقة ضاربة فى القلم . وقد كتبه هيروودوت بعد أن قام بزيارة مصر مرتين (عام ٤٦٠ ، ٤٤٧ ق . م) لذا جاءنا كتابه هذا خلاصة صادقة لمشاهدات مفكر يتمتع بعين ثاقبة .

ولما كان هيروودوت بصدد توسع امبراطورية الفرس ، فقد ارتبطت مصر بهذه الامبراطورية . اذ يبدأ كتابه بموت قورش وتولى قمبيز ابنه عرش فارس ، ثم اعداده العدة لينفذ خطة أبيه ويغزو مصر . وهنا يترك هيروودوت قمبيز وفارس ليتوغل فى مصر وتاريخها فهو يقص علينا تجربة اجراها الفرعون بسماتيك ليعرف من هم أقدم الاجناس على الأرض . وكان المصريون يعتقدون انهم أقدم الاجناس ، ولكن بهذه التجربة ثبت أن الفريجيين (٤) أقدم الاجناس ، يليهم المصريون . ثم يحدثنا هيروودوت عن اختراع المصريين للتقويم الشمسى وقد أعجب بتقسيمهم للسنة :

$(٣٠ \times ١٢) + ٥ = ٣٦٥$ يوما ، ينقسم كل منها الى ٢٤ ساعة فى حين ان أحد تقسيماته الخاصة للسنة ، كان يجعلها تقع فى ما يقرب من ٣٧٥ يوما . ويعترف بأن تقويمهم أروع وأدق من التقويم اليونانى . وينتقل هيروودوت الى جغرافية مصر فنراه يعنى بملاحظة النيل . وأرض مصر ، وخرج من هذه الملاحظة بقولته المشهورة : مصر هبة النيل واستطاع أن يبرهن على هذا رأى . ولم يستطع أن يعلل أسباب الفيضان السنوى تعليلا دقيقا . ولكنه لاحظ رواسب الطمي السنوية . وشاهد الأصداف البحرية والمتحجرة على التلال ، واستنتج منها ومن طبقة الأملاح التى كانت تغطى وجه الأرض ، أن هذه الأجزاء كانت فيما مضى مغمورة بماء البحر ، وقد كانت مصر السفلى فى يوم من الأيام تحت الماء ولكن النهر أخذ يجرف معه بعض الرواسب ، هكذا نتأت الدلتا نحو البحر . ولاحظ تغير مواقع الماء واليابسة فى تساليا (٥) أيضا ، وعزا نشوء مضيق تحب (شمالى تساليا) الى إحدى الهزات الأرضية .

وعرف هيروودوت عن مصر كذلك ان طول شاطئها على البحر المتوسط يبلغ ٤٢٠ ميلا ، والطريق من البحر حتى هليوبوليس (٦) طريق منبسط خال من الينابيع وتكثر به المستنقعات (الدلتا) ، ويبلغ طول هذا الطريق ١٧٠ ميلا ، ويضيق وادى النيل تدريجيا من هليوبوليس نحو أعلى النيل ، ويحد أرض مصر من جانب التلال العربية (المرتفعات الشرقية) ومن الجانب الآخر التلال الليبية (الصحراء الغربية) أما التلال الأولى فهي

تمتد حتى الخليج العربى (البحر الأحمر) أما التلال الأخرى فهي تلال صخرية مغطاة بالرمال . ثم يقدر هيرودوت المسافة من هليوبوليس الى طيبة (٧) ، من البحر الأبيض الى طيبة ، ثم من طيبة الى الفنتين (أسوان) . ويعرب عن اعتقاده بأن المنطقة الشمالية لمصر كانت فى وقت ما خليجا للبحر . ثم يحاول هيرودوت معرفة سبب ارتفاع النيل صيفا وانخفاضه شتاء ، على عكس معظم الأنهار الأخرى التى ترتفع فى الشتاء بفعل الأمطار .

ثم ينتقل هيرودوت الى طباع المصريين وعاداتهم . فالمصريون غير ملزمين برعاية أولادهم الذكور واعالتهم ، أما الإناث فيلقين منهم رعاية ورقابة صارمة . والكهنة المصريون يقصون شعورهم بصفة مستمرة ولا يطلقونها الا وقت الحداد ، على خلاف الكهنة فى كل بقاع العالم . ويعتبر المصريون أكثر الشعوب تقوى وورعا ، كما انهم أنظفهم ، فهم دائما يغسلون أنفسهم وملابسهم ، ويخلق الكهنة شعر اجسادهم يوميا حتى لا تتسرب القذارة اليهم ، ثم يسرد هيرودوت طريقة التضحية للآلهة والحيوانات المحللة والمحركة ، ويعتبر الخنزير أكثر الحيوانات تحريما لقذارته ، بل وعلى من يلمسه أن يلقي بنفسه وملبسه فى النيل ليتطهر . ثم يقارن بين الآلهة المصرية واليونانية . ويعتبر الآلهة المصرية هي الأصل الذى نبتت منه آلهة اليونان ، فالهة مصر عريقة وضاربة فى القدم .

أما عن عادات المصريين فيقول عنهم هيرودوت أنهم يتمسكون بتقاليدهم وعاداتهم المتوارثة ، ولا يتبعون تقاليد أو عادات دخيلة عليهم . وتنتشر بينهم الأغاني الشعبية التى تعتبر من أبرز تقاليدهم . وأخلاق المصريين تتصف بالدماثة ، فعندما يلتقى صغارهم بكبارهم فى الطريق ، ينتحون جانبا اجلالا واحتراما ، بل وينهضون من أماكنهم ان كانوا جلوسا . وعندما يلتقى المصريون يحيون بعضهم بالانحناء كل أمام الآخر . ويتمتع المصريون بقدرة خارقة على التنبؤ مستغلين معرفتهم للفلك وحركات النجوم . أما الطب فكل طبيب يتخصص فى مرض من الأمراض ، لذا ينتشر الأطباء المتخصصون بمصر انتشارا واسعا . ويعتبر التحنيط معجزة الطب المصرى . ثم ينتقل هيرودوت الى تاريخ مصر القديم والمصادر التى يستقى منها معنوماته هي كهنة المعابد ، وقد علم هيرودوت أن أول ملك على مصر كان « مينا » الذى بنى الجسور ليخفى منف من الفيضان ، كما شق قناة ليغير مجرى النيل . ثم قرأ اله الكهنة قائمة بأسماء ٣٣٠ ملكا خلفوا مينا وكلهم غير ذى بال الا آخرهم وهو الملك مويريس (أمنمحات) الذى خلف وراءه آثارا عديدة وحفر بحيرة قارون . وأبرز ملك خلفه كان « سيزوستريس » الذى كان أول من قاد أسطولا مصرية من الخليج العربى (البحر الأحمر) الى البحر الأحمر (المحيط الهندى والخليج العربى) وقد أخضع هذا الملك شعوبا وقبائل عديدة ، ووصلت فتوحاته الى البحر الأسود حيث

استقر بعض جنوده وانحدر من سلالتهم أهل « كولخيس » ولما عاد « سيزوستريس » الى مصر ، استغل الأسرى فى العمل الالزامى ، كما قام بتقسيم أرض مصر الى اجزاء متساوية ووزعها على الفلاحين ليدفع كل منهم أجرا سنويا نظير استغلالها ، ومن هنا عرف المصريون علم المساحة ونقله عنهم اليونان . كما كان « سيزوستريس » أول وآخر ملك مصرى يفرض سلطاته على أثيوبيا وقد خلفه عدة ملوك لا أهمية لهم حتى تولى رامبسينتوس (رمسيس الثانى) العرش ثم خلفه « خوفو » الذى انتهج سياسة العنف وأغلق المعابد والأسواق حتى يجبر المصريين على العمل فى بناء هرم له . ويصف لنا هيرودوت طريقة بناء الهرم ومساحته وأبعاده . وقد خلفه أخوه خفرع الذى كان على شاكلته ، وبنى هرما أصغر حجما من الأول ، وبعده جاء منقرع بن خوفو وكان ملكا خيرا ، ترك الناس تزاول أعمالها وفتح المعابد وبنى أصغر الأهرامات الثلاثة . وخلفه ملك يدعى « أسيخيس » عالج الكساد فى مصر بإصدار عدة قوانين تنظم التجارة والمال . وبعده جاء ملك أسمى يدعى « أنسيس » من مدينة تحمل نفس اسمه . وقد غزا الأثيوبيون مصر فى عهده ، وفر هو الى المستنقعات حيث أصبح ملكا على سكانها . وكان هذا الملك أول من طبق قانون العقوبات ، فقد كان يحكم على المجرم بالأشغال الشاقة ليردم المستنقعات بدلا من قتله ، كل حسب جريمته . ولكن طرد المصريون الأثيوبيين بعد خمسين عاما ، واستدعوه من المستنقعات ليتربع على العرش مرة أخرى . وبعده استولى كاهن يدعى « سيثوس » على الحكم . ويقول هيرودوت ان الكهنة المصريين أخبروه أنه قد مر ٣٤١ جيلا منذ حكم مينا حتى هذا الكاهن أى حوالى ١١٣٤٠ عاما (وذلك حتى عام ٧٠١ ق . م) ولما مات هذا الكاهن لم يجد المصريون من يولونه ملكا . فقسموا مصر الى اثنتى عشرة منطقة يحكم كل منها ملك . وتبادل هؤلاء الملوك التزاوج ليقروا من ارتباطهم ، كما أقاموا قصر اللايرنت (التيه) ليصبح مركزا لهم جميعا .

ويعجب هيرودوت بهذا القصر ويصفه وصفا دقيقا هو وبحيرة قارون المجاورة له ، ولكن اختلف بسماتيك أحد هؤلاء الملوك مع زملائه وانتصر عليهم بمساعدة الايوكيين والكاريين . وخلفه ابنه نينخو الذى أعاد حفر قناة الى البحر كان ستى الأول (١٣٢٦ - ١٣٠٠ ق . م) قد حفرها من قبل . ثم خلفه بساميس فابنه ابريس الذى قامت ثورة ضده فأرسل قائده أماسيس أحبس ليخمدتها . غير أن الثوار توجوا أماسيس ملكا وانتصر على ابريس ، وقد كان أماسيس حاكما صالحا ، وصلت مصر فى عهده الى أوج عظمتها . ويختتم هيرودوت كتابه هذا بقوله : « انه فى عصر أماسيس هذا غزا الفرس مصر » .

الكتاب الثالث

وعنوانه « ثاليا »

يعود هيروودوت الى موضوعه الرئيسي ، ألا وهو غزو قمبيز لمصر . فبعد أن استعرض هيروودوت آراء الفرس والمصريين حيال هذا الغزو ، أرجعه الى حرص قمبيز على تنفيذ سياسة أبيه وانسياقه وراء شهوة الفتح ، وعندما بدأ قمبيز غزوته ، كان « أماسيس » ملك مصر قد مات وخلفه ابنه « بسامنتيوس » فقاد هذا الملك المصريين وانتظر قمبيز عند فرع النيل الشرقي . غير أن قمبيز هزمه ، فهرب بجيشه الى قلعة منف ، ولكن سرعان ما سقطت القلعة في يد قمبيز واستولى على مصر ، ثم خطط غزوات أخرى ، اذ قرر ارسال أسطول ليغزو قرطاجة ، وجزء من جيشه لاختضاع أهل « آمون » (الصحراء الغربية) بينما يقوم هو بغزو اثيوبيا . ولما كان أسطوله مكونا من الفينيقيين ، فقد رفضوا غزو قرطاجة لأنها مستعمرة فينيقية ، كما ان الجيش الذي أرسله الى أهل آمون ذهب ولم يعد . لذا تركزت جهود قمبيز في غزوه لاثيوبيا وأرسل جواسيسه اليها ، غير أن الاثيوبيين يسخرون منه مما يزيد غضبه ، فيقود جيشه اليهم . ونرى ما يقاسيه قمبيز وجيشه في الطريق ، اذ يعاني من نقص المؤن ويضل الطريق ، فيفقد الأمل ويعود ادراجه ، وعندما وصل الى طيبة وجد المصريين يحتفلون احتفالا صاخبا لأن الاله أبيس (٨) كشف عن ذاته لهم ، فظن انهم فرحون لفشله وقتل عددا كبيرا منهم وجرح عجل أبيس في فخذه . وبعد فترة وجيزة أخذت علامات الجنون تظهر عليه . اذ انتابته نوبة من الذعر والخوف وأخذ يقتل البارزين من الفرس بل وقتل أخاه « سمرديس » واخته ، ولكن في الوقت الذي كان قمبيز يقوم بغزواته هذه حدثت تطورات سياسية هامة ببلاد اليونان ، اذ ظهرت « سامون » على المسرح ، فقد تولى حكمها رجل قدير يدعى « بوليكراتيس » عام ٥٣٢ ق . م وقد عمل على توسيع رقعة نفوذه وواتاه النجاح الباهر وامتدت أطماعه الى أبعاد بعيدة حتى انه حالف قمبيز وساعده في غزوته لمصر آملا أن يساعده ذلك العاهل صاحب الامبراطورية الواسعة ، ولكن القوات التي أرسلها لتساعده قمبيز في غزو مصر رفضت محاربة المصريين ، وعادت من منتصف الطريق لتحارب « بوليكراتيس » نفسه غير ان بوليكراتيس انتصر عليهم ، فلبأوا الى اسبرطة يطلبون مساعدتها ووافقت اسبرطة وكورثنة على مساعدتهم ولكل منهما دوافعه اذا أرادت اسبرطة أن تنتقم من أهل ساموس لاستيلائهم على الهدايا التي كانت قد أهدتها لكريوسوس ، أما كورثنة فقد كانت تكن لساموس عداً مريراً لأنها اختطفت بعض الشباب من مستعمراتها . فأقلمت الحملة الى ساموس وحاصرتها

طوال أربعين يوما بلا جدوى . فرغ الاسبرطيون الحصار وعادوا الى بلدهم . ثم يعود بنا هيرودوت الى تاريخ ساموس لنرى ما حل بها بعد فشل الغزو الاسبرطى .

اما الفقرات الأخيرة من هذا الكتاب فهي تتناول حرب « دارا » (٩) على بابل ، ففي أواخر أيام قمبيز والماجوشى ثارت بابل فى وجه مستعمرىها الفرس ، فسار اليها « دارا » بجيوشه وحاصرها سبعة أشهر حتى أوشك أن يفقد الأمل فى الاستيلاء عليها . ولكن جاءه أحد أصدقائه ووعده بأن يسلمه بابل ، ثم ذهب هذا الرجل وشوه نفسه بقطع أذنيه وأنفه ، ولجأ الى بابل وأقنع أهلها ان « دارا » مثل به لانه طلب منه رفع الحصار عن مدينتهم ، لذا فهو يتمنى أن يسند اليه البابليون قيادة جيوشهم حتى ينتقم من « دارا » ، وصدقه البابليون واسندوا اليه القيادة ، غير انه فتح أبواب بابل « لدارا » وجيوشه فتدفق الفرس اليها ليذبحوا أهلها ويصلبوا ثلاثة آلاف من سكانها .

الكتاب الرابع

وعنوانه « ملبومينى »

ونتبع فتوح « دارا » شمالا فى منطقة سكيثيا بساحل البحر الأسود الشمالى ، وكعاداته يحدثنا هيرودوت عن شعوب تلك المنطقة ، غير ان أهل سكيثيا يستحذون على اهتمامه ، فهو يبدأ بذكر أصل هذا الشعب ، وبعد ذلك الأساطير التى تفسر أصله ، فيقرر ان أهل سكيثيا قد وفدوا من الشمال وعبروا نهر أراكسيس « الفولجا » واحتلوا ساحل البحر الأسود بعد أن طردوا سكانه الأصليين .

أما عن أسباب غزو « دارا » لهم ، فقد اراد أن ينتقم منهم لانهم عندما كانوا يطاردون هؤلاء السكان ضلوا الطريق ودخلوا أرض ميديا التى أصبحت فيما بعد بلاد فارس ، واستعبدوا أهلها لثمانية وعشرين عاما . وفى وسط حديث هيرودوت عن السكان المحيطين بهم ينتهز الفرصة ليدل برأيه عن جغرافية العالم كما يتصورها ، فالعالم ينقسم الى جزء شمالى به أوروبا . وآخر جنوبى به آسيا وليبيا (أفريقيا) . ثم يصف لنا نهر اشتار (الدانوب) وفروعه لينقلنا الى أهل سكيثيا القاطنين على ضفته الشمالية ، فهو يحدثنا عن عاداتهم ويعدد اتصالهم باليونان .

ويخصص هيرودوت الجزء الأخير من كتابه هذا لانتشار نفوذ الفرس في منطقة ليبيا وبلدة قورنائية ويؤدى به الحديث عن قورنائية الى التحدث عن نشأتها ، مما يدفعه الى ذكر جزيرة « ثيرا » فقد انشأ أهل اسبرطة مستعمرة بهذه الجزيرة ، ثم انشأت هذه المستعمرة بلدة قورنائية ، وقد ازدهرت هذه البلدة وذاع صيتها فى العالم القديم ، فهاجر اليها يونان عديدون .

وفى أثناء حكم قمبيز ، سارت حملة فارسية من مصر لتساعد قورنائية ضد بلدة « برقة » ويحدثنا هيرودوت عن القبائل التى تسكن هذه المنطقة وطبيعة الأرض بها . فأرض المراعى فى الشرق ، والمزارع فى الغرب ، ثم يذكر مصادر الذهب بها والعلاقات التجارية بينها وبين سكان المناطق الأخرى ، ويختتم حديثه موضحا ان هذه المنطقة يسكنها أربع فئات : فئتان من المواطنين الأصليين هما الأثيوبيون فى الجنوب والليبيون فى الشمال ، بينهما فئتان من المستعمرين هما اليونان والفينيقيون .

الكتاب الخامس

وعنوانه « توبسيغورى »

يعود بنا هيرودوت الى القوات التى تركها « دارا » فى أوربا بمنطقة طراقيا تحت قيادة « فيجابازوس » فقد توغلت هذه القوات بأرض طراقيا لتخضع كل قبائلها . بل ويمتد طموحها الى مقدونيا ، فيرسل فيجابازوس وفدا اليها يطلب منها الخضوع للفرس . فخدعه المقدونيون وقتلوا رجال هذا الوفد عن آخرهم ، فوجه فيجابازوس وجهه شطر الشرق ليخضع المدن اليونانية الواقعة حول مضيق البسفور والدرديل ، بينما كان الاسطول الفارسى فى بحر ايجه يعمل على اخضاع الجزر اليونانية بخجة انها لم تساعد الملك الفارسى فى غزوته لأرض سكيثيا . وفى تلك الأثناء اندلعت ثورة على ساحل أيونيا. وقد تسببت بلدة ملطيه وجزيرة ناكسوس فى اشعال نيران هذه الثورة .

ثم يستطرد هيرودوت ليوضح كل الظروف التى كانت عليها آنذاك .

الكتاب السادس

وعنوانه « ايراتو »

يكمل هيرودوت فى هذا الكتاب تاريخ ثورة أيونيا ومحاصرة الفرس بلدة « ملطية » برا وجوا الى أن سقطت (عام ٤٩٤ ق . م) بعده ست .

سنوات من اندلاع الثورة ، ونفى الفرس كل سكانها الى ساحل الخليج العربى (البحر الأحمر) . ثم استمر الاسطول الفارسى يخضع المدن والجزر اليونانية لتنتهى الثورة . فقد كانت ثورة أيونيا هذه هى الشرارة التى أشعلت الحرب بين الفرس واليونان اذ ينقلنا هيروdot الى بلاد اليونان لنرى سياسة « دارا » حيالها بعد فشل الثورة . فقد ولى « دارا » « ماردونيوس » قائدا على قواته فى أوروبا وساحل آسيا الصغرى ، وأخذ « ماردونيوس » يخضع المنطقة الباقية من « طراقيا » ولكنه يفشل فى العبور الى بلاد اليونان ويتحطم اسطوله عند سفح جبل « آثوس » فيتجه الى مقدونيا حيث يخضع كل قبائلها وتصبح أول دويلة يونانية تسقط فى يد الفرس ، ثم يرينا انعكاس هذه الأحداث على دويلات اليونان .

الكتاب السابع

وعنوانه « بوليمنيا »

يذكر لنا هيروdot فى هذا الكتاب أن هزيمة الفرس فى ماراثون كان لها وقع شديد على « دارا » فقد اشتد حقه على الأثينيين وقرر تجريد حملة قوية تشن حربا ضروسا على بلاد اليونان كلها . فأوفد الرسل الى شتى أنحاء امبراطوريته الواسعة يجمعون الجند والمؤن طوال ثلاث سنوات . . وفى السنة الرابعة ثارت مصر على حاكمها الفارسى ، فقرر « دارا » شن الحرب على أثينا ومصر فى وقت واحد .

ثم يصف لنا هيروdot كيف تربع « كسركسيس » على العرش بعد وفاة والده « دارا » ونتتبع معه سير الحملة الكبيرة وتغلبها على العقبات فى طريقها الى أن أرسل « كسركسيس » الرسل الى دويلات اليونان - عدا اسبرطة وأثينا - يطالبها بالخضوع له . ويصف لنا هيروdot ضخامة الحملة بأن سكان المناطق التى مرّت عليها ظنوا أن الاله قد تخفى فى لباس « كسركسيس » وقاد الجيش البشرى كله ليسحق بلاد اليونان!! ثم يعدد لنا هيروdot الأجناس التى اشتركت فى هذه الحملة ليصف أسلحة كل منها وملابسه ، فقد كان هناك الهركانيون والأشوريون والخالديون وأهل باكتريا وسكيثيا والهنود والآريون والبارثيون والأثوبيون والاراميون وأهل فريجيا وليديا وميسيا وطراقيا وجزر الهند الشرقية وغيرهم ، ذلك بالاضافة الى القوات الفارسية ذاتها أما الاسطول فقد كان عماده الفينيقيين والمصريين وأهل قبرص وكيليكيا وكاريا وأيونيا وغيرهم .

ثم ينتقل بنا هيروdot الى الجانب اليونانى لنرى ما ألم به ، فقد كانت كل الدويلات اليونانية تعلم أن حملة الفرس ليست ضده أثينا وحدها ، بل ضده كل الجنس اليونانى .

الكتاب الثامن

وعنوانه « أورانيا »

وقد وقع أول اشتباك مباشر بين أساطيل الفرس واسطول اليونان أثناء معركة « ثرموبيلاي » ووصف المعركة البحرية بين الأساطيل بدقة متناهية بقوله : وأبحرت مائتا سفينة فارسية لتلتف حول أسطول اليونان ولما علم اليونان بالأمر قرروا البقاء حيث هم حتى آخر النهار ، وفى الغروب تقدم الأسطول اليونانى واشتبك مع الأسطول الفارسى وهزمه وأسر ثلاثين سفينة . وفى تلك الليلة أمطرت السماء وهبت عاصفة كان لها أن تحطم المائتى سفينة الفارسية التى أبحرت لتلتف حول أسطول اليونان . وفى صبيحة اليوم التالى أرسلت أثينا مددا الى الأسطول من ثلاث وخمسين سفينة ، وفرح اليونان بهذا المدد كما ابتهجوا عندما علموا بفرق المائتى « سفينة الفارسية » ، وانتظروا حتى الغروب وهاجموا الفرس مرة أخرى ليحطموا عددا كبيرا من سفنهم ، وفى اليوم الثالث شعر قادة الأسطول الفارسى بالخزى والعار لانهم من أسطول اليونان الضعيف ، فاستعدوا للمعركة واشتبك الأسطولان ، وكانت معركة ثرموبيلاي تدور رحاها فى هذه الأثناء ، لذا كان كل من الأسطولين يعمل جاهدا على احتلال الممر البحرى المواجه لثرموبيلاي ليمد قواته البرية بالعون . وانتهت المعركة بين الأسطولين ليخرج كلاهما قانعا بالخسائر والمكاسب التى حققها .

ثم ينقلنا هيروdot الى البر لنرى زحف قوات « كسر كسيس » بعد ثرموبيلاي ، وبعد ذلك يصف لنا معركة سالاميس البحرية وصفا رائعا ، فقد أبلى فيها اليونان وخاصة الأثينيون بلاء حسنا ، اذ استدرجوا سفن الفرس الضخمة الى مياه ضيقة مما قيد حركتهم بينما كانت السفن اليونانية خفيفة وسريعة الحركة وتمكنوا بقيادة ثيستوكليس من تحطيم معظم الأسطول الفارسى ، بينما عملت سفن ايجينا على تحطيم السفن الهاربة ، وانتهت معركة « سالاميس » بهزيمة الفرس هزيمة نهائية وانتصار اليونان انتصارا رائعا . وقد وضعت هذه المعركة نهاية حاسمة للغزو الفارسى .

الكتاب التاسع والآخر

وعنوانه « كاليوبى »

وقد وصف فيه هيرودوت معركة « بلاتيا » وفيه وصف غاية فى الدقة لهذه المعركة والتي نال فيها أهل أثينا واسبرطة وتيجيا شرف الانتصار وكيف انه بعد هذه اتخذ اليونان عدة تدابير اذ دفنوا موتاهم وذبحوا قرابين الشكر ، ثم أسرعوا بمحاصرة بلدة طيبة التي خلقت الكثير من المشاكل لليونان ، وانضمت الى جانب الفرس . وأسرت القوات اليونانية أول الأمر فى طيبة وقتلتهم . أما القوات الفارسية الوحيدة التي كانت لا تزال بأرض اليونان تحت قيادة « ارتابازوس » الوالى الفارسى فما أن علمت بهزيمة الفرس فى بلاتيا ومقتل ماردونيوس حتى سارعت بالهرب تاركة بلاد اليونان الى مضيق البسفور .

ثم ينتقل بنا هيرودوت الى البحر لنرى ما قام به الأسطول اليونانى ، وكيف أنه بعد انتهاء معركة ميكالى ، أحرق اليونان ما تبقى من أسطول الفرس ثم أبحر أسطولهم الى ساموس ليتشاور قادته فى أمر الأيونيين حتى لا يقعوا فى قبضة الفرس مرة أخرى . واستقر الراى على توحيد قوى يونان الجزر والساحل لضمان حريتهم . وأخيرا يختم هيرودوت تاريخه الجامع لاختفاء أثر الفرس تماما من الأراضى اليونانية عندما طردت القوات اليونانية ما تبقى من القوات الفارسية بمنطقة المضيقين .

تقييم كتاب هيرودوت

ودوره فى الفكر الانسانى

ما من شك ان هيرودوت « أبو التاريخ » ، ولكن ما الذى جعل منه أبا له ؟ ان التاريخ علم يدرس تتابع الأحداث ، يسرده كاتب يتمتع بحاسة التاريخ ووله بالمعرفة . فهو يحدد ويسجل ويفهم الماضى ليقرر ما حدث بالفعل ولماذا حدث . وان كان من جاءوا قبل هيرودوت قد تمتعوا بحاسة التاريخ ، غير انهم لم يصلوا الى تحديد مفهومه ووظيفته . فقد انحصرت مجهوداتهم فى حويلات محلية تسجل الأحداث تسجيلا جامدا مجردا ، أو تذكر أنساب عائلة أرستقراطية يرجع أصلها الى بطل أسطورى أو اله ، أو تتغنى بأسفار ومغامرات أبطال الأساطير كاوديسيوس وهرقل . بل وعالبا ما أرجعوا أسباب الأحداث الى ظواهر أسطورية أو نوازع الهية .

ولكن بكتابات هيرودوت ولد التاريخ ، اذ كان أول من عالج موضوعا ، معالجة شاملة ناقدا اياه ليفلسف جوانبه ويكشف عن الصلة ما بين أسباب الأحداث ونتائجها ، ويكفى أن نقرأ مقالة تاريخه الجامع لنندرك التحول الذى أنجزه هيرودوت فى تحديد مفهوم التاريخ ، فقد جعل من الانسان محورا لتاريخه عندما أعلن انه سيسجل «ما خلقته قريحة الرجال» لا قريحة الأبطال الأسطوريين والآلهة كما اعتاد اليونان ، وسيحدثنا عن «الأجيال التى نطلق عليها أجيال الانسان ، لا تلك الأجيال الخرافية التى تناقلتها الأساطير» .

ولم يقتصر اهتمام هيرودوت على الانسان اليونانى ليمجد بنى جنسه متغاضيا عن هفواتهم ومنقصا من قدر الشعوب الأخرى ، بل أعلنها صراحة انه سوف «يسرد كل ما حققه الرجال من أمجاد سواء من اليونان أو من غير اليونان» ، وهو بذلك يكشف عن قيمة نظرة المؤرخ الموضوعية وضرورتها . أما على مستوى البلدان والدول فهو يقول : «وسوف نفحص تاريخ كل من البلدان الكبرى والصغرى» لأن تلك التى كانت فيما مضى بلدانا عظمى أصبحت الآن لا ذكر لها ، أما تلك صاحبة النفوذ والصولجان فقد كانت من قبل لا شأن لها ، أى أن المؤرخ لا يأخذ بالظواهر ، بل يرجع بالحدث الى أصله ومنشئه ليظهر أسبابه ويوضح نتائجه . وهكذا كان هيرودوت أول من حدد مفهوم التاريخ الذى لخصه فى نقاط ثلاث : الاهتمام بأفعال الانسان اهتماما مباشرا ، فهذه الأفعال ذات نفع بالغ للانسانية ويجدر المحافظة عليها من الزوال ، والأعمال المجيدة ليست قاصرة على جنس من الأجناس بل ينجزها كل انسان وفى مختلف الظروف ، والأحداث ليست وليدة الصدفة والحظ ، بل تنبع من بواعث ودوافع من الممكن اكتشافها ، فالحاضر تكمن جذوره فى الماضى والماضى يخدم الحاضر الذى هو مرشد للمستقبل .

هيرودوت أول من ارسى علم الانثروبولوجيا

ومثلما كان هيرودوت أبا التاريخ ، كان أيضا أبا للجغرافيا وعلم الانثروبولوجيا (١٠) . فقد زار الكثير من البلدان ونزل بين مختلف الشعوب ، فامتد شغفه الى كل صغيرة وكبيرة ليقدّم لنا صورة صادقة عن جغرافية تلك البلدان وعادات شعوبها وأصلهم . والواقع ان ما دفعه الى الاهتمام بالجغرافيا والانثروبولوجيا هو اهتمامه بالانسان فى حد ذاته ، فقد آمن ان لكل بيئة جغرافية مقوماتها الخاصة التى تشكل مادياتها ، وهذه الماديات هى التى تشكل طباع الانسان وعقليته ، بل وبناء الجسمانى .

وما سلوك الانسان وعاداته سوى انعكاس لمقومات هذه البيئة الجغرافية والجنسية . وعندما كان هيرودوت يتناول شعبا من الشعوب بالدراسة ، كان يتبع منهجا موحدا : فقد كان يبدأ بوصف البيئة الجغرافية لهذا الشعب ، ثم يبحث عن أصله والجنس الذي انحدر منه والهجرات التي أثرت فيه ، ثم يسرد عادات هذا الشعب وطباعه ، ويختم دراسته بسرد تاريخ هذا الشعب . ومن هذا المنهج المتكرر يتضح ان التاريخ في رأى هيرودوت ما هو الا نتاج كل هذه المقومات الجغرافية والجنسية .

ولا حاجة بنا الى الاسهاب في ايراد مثل هذه الشواهد ، فالملاحظات الاثنولوجية ، أطرف ما في كتاب هيرودوت ، وبلغت من طرافتها انها لم تلاق ما تستحقه من التقدير حتى يومنا هذا . وقد تجاوزها اقدر الشراح في القرن الماضي ، لأن علم خصائص الشعوب لم يكن قد عرف بعد ، أو أنه لم يكن قد بلغ درجة كافية من التنظيم ، وان ما وجد منه لم يكن معروفا لديهم في ذلك الحين . وقد كانوا في الأكثر من علماء الآثار ، أو من هؤلاء العلماء الذين وقفوا جهودهم على دراسة السياسة والدين في العالم القديم ، وهكذا لم يدركوا أهمية الحقائق الاثنولوجية عندما عبروا بها ، والحقائق التي يضيفها علم الأجناس اليوم تحت عنوان : المذهب الروحي ، والمحرمات (تابو) ، والطوطمية ، و « سكنى البحيرات » وما الى ذلك ، كانت تنبذ على أنها من الغرائب أو البدع .

وبهذا يكون هيرودوت قد أرسى قواعد هذا العلم الذي سرعان ما اندثر بعده وفاته ، وهذا لا يعنى ان اليونانيين لم يكونوا يعنون بالانسان ، اذ كانوا يبذلون اعظم العناية لفهم لغز الحياة . الا انهم بتأثير سقراط وأفلاطون وجهوا عنايتهم الفاتكة الى طبيعة الانسان الداخلية ، والى مشكلاته الخلقية والسياسية ، واهملوا دراسة طبائعه وعاداته : كيف يعيش الناس ، وكيف يعالجون مشكلاتهم اليومية ؟ كيف يتغفون ؟ وما الملابس التي يخطونها ويرتدونها ؟ وأى نوع من البيوت يبتنون لسكناهم ؟ وما علاقاتهم الجنسية وروابطهم العائلية ؟ ولماذا يسلكون في حياتهم هذا المسلك الذي نراهم عليه ؟ وكيف ينتقلون من طور الطفولة الى طور المراهقة ، ومن العزوبة الى الزواج ، ومن الشباب الى الشيخوخة ؟ وكيف يعاملون المريض والمعتوه ؟ وكيف يتخلصون من جثث موتاهم ؟ ... لقد حاول هيرودوت أن يجيب عن أسئلة كهذه ، وقل من عنى بها ممن جاءوا بعده .

وقد ظهرت بعض العناية بدراسة خصائص الشعوب في القرن الثامن عشر ، ولكن قواعد هذا العلم لم توضع الا في القرن الماضي ، وفي

أوائل هذا القرن ، ولقد استطاع علماء خصائص الشعوب المحدثون أن يبرهنوا على صحة كثير من تلك الحقائق التي رواها أبو التاريخ ، والتي لم يعرفها أجدادنا أدنى التفات وكانت لها قيمة كبيرة لأنها أول أمثلة من نوعها .

وبعد . . ان تاريخ هيودوت الجامع يعد من أروع ما خلفه الفكر القديم ، وما من كتاب مثله يحوى كل هذه الجوانب من المعرفة الانسانية . ويتبع مثل هذا المنهج العلمى . لقد أراد هيودوت أن يصور عن صدق فكرته عن التاريخ ، فجاءتنا هذه الصورة حاوية جامعة لفروع المعرفة التي انتشرت فى العالم القديم وبين مختلف الشعوب . وما من دارس لأصول التاريخ أو علم الجغرافيا والانثروبولوجيا الا وامتلت يده لتاريخ هيودوت الجامع . فلولاها لما أمكننا معرفة هذه العلوم أو جمع مثل هذه المعلومات ، وهذا ما جعل منه أبا لا للتاريخ فحسب بل لكثير من العلوم الانسانية .

ولقد قال أحد كبار علماء خصائص الشعوب فى عصرنا « ان هيودوت يزداد كسبا يوما بعد يوم » . وكثيرا ما لقب أبو التاريخ بأبى الأكاذيب ، الا أن أكثر هذه الأكاذيب التي تنسب اليه ، لم تكن من بنات أفكاره ولكنها ما تزال ماثلة فى معلوماتنا . وان قامته لتزداد شموخا كلما قل جهلنا بعلم خصائص الشعوب .

هوامش

- (١) هيكاثيوس : (٤٧٦ ق.م) مؤرخ وجغرافى يونانى . ألف كتابين أولهما فى انساب بعض الأسر وتواريخها ، والثانى وصف لاسفاره فى أوربا .
- (٢) الدورين : شعب اغريقى قديم غزا بلاد اليونان حوالى عام ١١٠٠ ق.م واستقر فى الأجزاء الجنوبية والشرقية من شبه جزيرة البيلوبونيز وجزائر بحر ايجة الجنوبية وجزيرة كريت وجزر الدوديكانيز والأجزاء الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى .
- (٣) شيشرون : ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م) خطيب وكاتب ومحام وسياسى رومانى . ترك مؤلفات عديدة فى الفلسفة وعددا كبيرا من الخطب الرائعة والخطابات المشهورة .
- (٤) الفريجيين : شعب هندى أوروبى فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد . وكانت عاصمتهم غورديوم .
- (٥) تساليا : اقليم بشرق بلاد اليونان . كان الاقليم ولاية فى الامبراطورية الرومانية ثم استولى عليه البنادقة سنة ١٢٠٤ والاتراك سنة ١٥١٥ وانضم لليونان ١٨٨١ .
- (٦) هليوبوليس : ومعناها : مدينة الشمس . مدينة آون القديمة شرق القاهرة فى دلتا النيل . أسماها العرب عين شمس . ظلت طوال العصور القديمة مركزا دينيا هاما لاله الشمس .
- (٧) طيبة : مدينة قديمة . أشهر عواصم مصر الرئيسية . عبد فيها الاله آمون ، ونشأ بها ملوك الدولة الوسطى الذين أعادوا توحيد القطرين .
- (٨) أبيس : فى الديانة المصرية القديمة . عجل قدسه المصريون فى منف كرمز للقوة .
- (٩) دارا : (داريوس) ملوك فارس القديمة دارا (١) (٥٤٩ - ٤٨٦ ق.م) .
- (١٠) الانثروبولوجيا : علم الانسان . ويدرس أصل النوع الانسانى وكل الظواهر المتعلقة به .



فن الشعر
أرسطو طائيس
٣٢٥ ق . م .

من الكتب التي كان لها تأثير بعيد المدى في النقد الأدبي عند نقاد العالم كتاب أرسطو « فن الشعر » ، فما هو أصل الفن عند أرسطو ، وما غايته ؟ وهل يرمى الفن الى خلق الاحساس بالجمال الحسن الواقع في النفس فحسب ؟ واذا لم يكن هذا هو هدفه فما هدفه اذن ؟ وما هو جوهر الفن ، وماذا يفعل الشاعر حينما يصور في شعر غنائي آلام الحب ومسراته ولواعج الشوق وتبريحاته ؟ وماذا يصنع المصور الذي يقدم لنا صور المناظر الطبيعية الرائعة ؟

فكلما ثار جدل حول نظرية أو منحى جديد في المسرح قفز اسم أرسطو وسط ما يقال في معرض التأييد أو الهجوم . ولا غرو في هذا ، اذ أصبحت نظرية أرسطو في المسرح ، خاصة ما يتعلق بالتراجيديا (١) ، أساسا يعتمد عليه المسرحيون ، ومنها يبدأ التأييد أو الهجوم . ولو رجعنا الى النظريات المسرحية المختلفة لوجدنا معظمها أساسا اما امتدادا لنظرية أرسطو أو محاولات للفكاك من أسارها والخروج على تعاليمها .

ولقد نتج عن هذا الجدل المستمر حول نظرية أرسطو أن ضاعت الملامح الأساسية الأولى للنظرية وأخذ كل فريق من الأتباع أو الأضداد يفسرها ويؤولها على هواه ، حتى اننا نجد في كثير من الأحيان أن ما يقولونه عن النظرية هو أبعد شيء عنها ! وان الانسان ليرثي لأرسطو وهو يتململ في قبره أبدا حسرة على ما حل بعمله الخالد .

لذلك يحسن بنا أن نعرض لهذا الكتاب القيم الذي تركه أرسطو ناموسا للفنانين من بعده ولنبين نظريته في الفن عامة والمسرح بشكل خاص .

حياة نابغة المفكرين

أرسطو

هو أرسطوطاليس الفيلسوف الاغريقي ، نادرة العصور ، ونابغة المفكرين ، واكبر العلماء شهرة في تاريخ الفكر الانساني . فهو منشئ فن النقد الأدبي ، وأستاذ العلوم النفسية والمنطقية والأدبية والأخلاقية ،

والبحاثة الفذ فى علوم الاحياء . وقد انتهى به الحال لكثرة ما الف وصنف ان يدعى بالمعلم الأكبر وأن تسمى مؤلفاته « التعليم الأول » . وكما يقول ابن رشد :

« وضع علوم المنطق والطبيعات وما بعد الطبيعة واكملها ، وقد قلت : انه وضعها ، لأن جميع الكتب التى ألفت قبله عن هذه العلوم لا تستحق جهد الحديث عنها ، ولانها توارت بمؤلفاته الخاصة . وقد قلت : انه اكملها ، لان جميع الذين خلفوه حتى زمننا ، أى فى مدة خمسة عشر قرنا ، لم يستطيعوا أن يضيفوا شيئا الى مؤلفاته أو أن يجدوا فيها خطأ ذا بال . والواقع أن جميع هذا اجتمع فى رجل واحد ، وهذا أمر عجيب خارق للعادة ، وهو اذ امتاز على هذا الوجه يستحق أن يدعى الهيا أكثر من أن يدعى بشريا ، وهذا ما جعل الأوائل يسمونه الهيا » .

ولد أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد « عام ٣٨٤ ق . م » فى ستاجيرا بولاية صغيرة على الشاطئ المقدونى باليونان . وكان والده نيقوماخوس طبيبا ينتمى الى طائفة عرفت باسم « أبناء سقولايبوس » اله الطب عند الاغريق ، وكان والده يعمل طبيبا فى بلاط الملك أمينيتاس الثانى ، والد فيليب المقدونى ، وجد الاسكندر الأكبر .

نشأ أرسطو فى محيط هذا البلاط الملكى ، وقد عزا بعض المؤرخين - الى هذه النشأة الأولى - اهتمام أرسطو البالغ بالدراسات المتعلقة بالفسولوجية وعلم الحيوان ، ولو انه لم يعن بهذه العلوم عناية فائقة الا فى السنوات الأخيرة .

وقد يكون للوراثه بعض الأثر فى اهتمام أرسطو بهذه العلوم ، ولكن ما من شك فى أن الأثر الأكبر يرجع الى شغفه العميق بالبحث والاستقصاء فى جميع الاتجاهات العلمية والفلسفية ، وهو ما تميزت به المراحل الأخيرة من تطوره الفكرى .

تلقى أرسطو تعليمه الأول - وفق التقاليد - على يد أساتذة من أقران أبيه الأطباء ، الذين دمنوه وطبعوه بطابع ثقافتهم الطبية والبيولوجية المتصلة بمهنتهم . ولما كان المتبع أن يتلقى طالب الطب دراسات فى أصول الفلسفة ، فقد أرسل أرسطو - وهو فى السابعة عشرة - الى مدينة أثينا ليلتحق بالأكاديمية التى يرأسها أفلاطون . وظل يطلب فيها نحو عشرين عاما الى أن بلغ السابعة والثلاثين .

وفى أثناء هذه المدة ، أشربت نفسه علوم أستاذه أفلاطون ، وبانت مواهبه فتفوق على أقرانه بذكائه الخارق . . وهذا ما دفع أفلاطون الى

أن يقول « أن أكاديمية لا تحوى سوى شيئين اثنين فقط : عقل أرسطو فى جانب ، والطلبة كلهم فى جانب آخر » .

وبعد وفاة أفلاطون عام ٣٤٨ - ٣٤٧ ق . م فاز أرسطو - على ما جاء فى بعض المراجع - فى الانتخاب الذى أجرى لرياسة الأكاديمية إلا أنه - على الرغم مما كان يتمتع به من شهرة وتقدير ، وبعد صيت واحترام - قدم استقالته من هذا المنصب ، ورحل الى آسيا الصغرى ، حيث التحق ببلاط هرمياس أحد أمراء الولايات الفارسية .

وكان انتقال أرسطو الى آسيا الصغرى ، مباشرة بعد وفاة أفلاطون ، مدعاة لكثير من التقولات والاشاعات فيما يتعلق بالصلة بين أفلاطون وأرسطو .

يقول « ييجر » صاحب كتاب أرسطو ، فى تعليل مغادرة أرسطو للأكاديمية بعد موت أفلاطون مباشرة أن السبب كان مزدوجا ، فهو من ناحية شخصى ومن ناحية منهجى .

فمن الناحية الشخصية كان أرسطو يعتقد أنه الأحق بأن يكون خليفة أفلاطون فى رئاسة الأكاديمية ، لأنه كان أذكى بكثير من بقية تلاميذ أفلاطون . فالعهد برياسة الأكاديمية الى أحد أفراد أسرة أفلاطون جعل أرسطو يعانى من الناحية النفسية ، حفيظة وموجدة .

وأما السبب المنهجى فهو أن الأكاديمية برياسة « اسبوسيبوس » كانت قد اتجهت اتجاها يخالف كثيرا روحها الأصلية فى عهد أفلاطون ، وعد أرسطو ذلك خروجاً وخيانة من جانب اسبوسيبوس لمذهب أفلاطون ، فلم يكن فى وسع أرسطو أن يبقى بعد ذلك فى الأكاديمية ، وكان عليه أن يرحل . وقد صخبه فى الرحيل زميله اكسينوقراط الى آسيا الصغرى حيث اتصل بهرمياس .

ثم انتقل أرسطو الى بيللا حيث اسند اليه منصب مؤدب ولى العهد اسكندر ، الذى أصبح فيما بعد الفاتح العظيم اسكندر الأكبر . وواصل عمله فى هذا المنصب ثلاث سنوات من ٣٣٨ الى ٣٣٥ ق . م .

وقد أسبغت عليه هذه الوظيفة القابا من الشرف والوانا من النعمة ، وحبته بشرة طائلة ، فاستطاع أن يحقق ما تصبو اليه نفسه الطموح من الاتجاه الى التبحر فى العلوم . والتعمق فى البحوث الفلسفية ، دون أن تعوقه الحاجة الى المال ، فعاد الى أثينا ، مهد ثقافته ، واتخذها مجالا لنشاطه الفكرى ، وميدانا لتأملاته العقلية .

وأقام بها تحت رعاية الاسكندر ، زمنا ظلّ خلاله موضع الأجلال .
والتقدير من جمهرة تلاميذه العديدين وقد بلغ من علو قدره في العلم ،
أن منح حق استخدام « معبد أبولو » في أغراض التعليم ، وهو المعبد
الذى كان مكرسا لعبادة الاله أبولو ، وأطلق على هذا المعبد اسم «الليكوم»
وهى عين الكلمة الفرنسية « ليسيه » وهو المثال الذى احتذته فيما بعد
المعاهد العلمية فى أنحاء العالم .

أرسطو رائد المشائين

وكان أرسطو يلقى محاضراته فى هذه الندوة العلمية - كل صباح -
على النخبة من تلاميذه الأصفياء ، وجلهم - ان لم يكونوا كلهم - من العلماء
الطاعنين فى السن ، ذوى الصيت الذائع ، الذين عاونوه فى تسجيل بحوثه
ونشرها ، وفى اثبات آرائه ، فيما كان يدور بينه وبينهم من محاولات
ومساجلات حول المسائل العلمية ، والقضايا الفلسفية ، وتفسير ما تنطوى
عليه من غموض ، أو كشف ما يحوطها من ابهام . وهؤلاء هم حواريوه
ومريدوه الذين اصطفاهم ، والذين كان يقع على كاهلهم أكبر قسط من
الجهد العلمى ، وكان يسمى طلبته بالمشائين ، لانه كان لا يعلم جالسا
ولكنه كان يتمشى خلال الأروقة المحيطة بمعبد أبولو ، فيتمتع بالهواء
الطالق وأشعة الشمس فى الشتاء ، وبالهواء العليل والظل الظليل فى
الصيف . وكان يرى أن هذه الطريقة تساعد على تنشيط الذهن .

أما فى المساء فكان يعقد ندوات عامة على طائفة أخرى من التلاميذ
الشبان ، ومع ذلك يجد من وقته متسعا ، ليدون طائفة من المواضيع فى
علوم المنطق ، وما بعد الطبيعة ، والفنون ، والعلوم السياسية والنفسية
والأخلاقية ، وعلم الأحياء .

ويدل هذا النشاط الجم على حيوية دافقة ، لا تعرف الكلل ، وعلى
مقدرة فائقة فى حسن تنظيم عمله اليومى ، واتقان توزيعه .

واستمر أرسطو ينسج على هذا المنوال مدى ١٢ سنة ، الى أن ثارت
اثينا ، بعد وفاة الاسكندر ، وتمردت على سيادة مقدونيا . وأمست
حياته معرضة لخطر داهم ، وشعر انه - لابد - مواجه تهمة من تلك التهم
التي كانت توجه ببساطة الى أمثاله ، كالألحاد ، وانكار الآلهة وتحجيرها ،

وهى التهمة التى توجه عادة الى الخصوم ، عند الافتقار الى ما يعوز الاتهام من وقائع جدية وأسباب صحيحة .

لذلك فر أرسطو ناجيا بحياته ، لكى يعفى حكام أثينا - كما قال هو نفسه - من وصمة ارتكاب جريمة أخرى جديدة . بعد جريمة سقراط، تتصل بمقاومة الفلسفة ، ومطاردة العلماء من الفلاسفة ، وقصد الى جزيرة يوبيا ، حيث لم يلبث غير وقت قصير حتى قضى نحبه فى عام ٣٢٢ ق.م .



مؤلفات المعلم الأكبر

كتب أرسطو في كل علم تقريباً . وقد ألف نوعين من الكتب ، كتب عامة وأخرى خاصة . ونقصد بالكتب العامة تلك الكتب البعيدة عن المصطلحات العلمية والتي كتبها بأسلوب علمي مهذب وهذه هي الكتب التي أثنى شيشرون (٢) على أسلوبها . أما مؤلفاته الأخرى فقد كتبها لتلاميذه وهي تحتاج إلى الملم بقسط من العلوم ومعرفة بالاصطلاحات العلمية التي اختارها أرسطو والتي بدونها تصبح قراءتها عبثاً .

واسلوب أرسطو يمتاز بجفافه وشدة تركيزه ، ويرجع ذلك إلى أن كتاباته كانت بمثابة نقط مركزة يسترشد بها المعلم الأول أثناء الشرح في « الليكوم » ، ولكن شيشرون يذكر أن أسلوب أرسطو في عهد الشباب كان متأثراً بجمال أسلوب أفلاطون ورشاقته .

ويمكن تقسيم مؤلفات أرسطو بحسب أدوار حياته :

١ - دور الشباب :

تجد فيه محاوره « أوديموس » مثلاً وهي على غرار « فيلسون » لأفلاطون ، ونلاحظ أن أرسطو في هذا الدور متأثر بتعاليم الأكاديمية .

٢ - دور الانتقال :

يضع أرسطو فيه كتاباً عن « الفلسفة » ينتقد فيه نظرية أفلاطون في المثل ويضع الخطوط العريضة لمذهبه في الميتافيزيقا والطبيعة والأخلاق والسياسة .

٣ - الدور الأخير :

وهو مرحلة النضج الكامل وهي تمثل الثلاثين سنة الأخيرة من حياة أرسطو ، وضع أرسطو مؤلفاته الرئيسية على صورة مذكرات تعليمية . وتنقسم كتب أرسطو إلى المجموعات الآتية :

١ - الكتب المنطقية :

وقد سميت بالاورجانون أى آلة الفكر منذ القرن السادس الميلادى
وهى : المقولات ، والعبارة ، والتحليلات الأولى ، والتحليلات الثانية ،
والجدل ، والأغاليط .

٢ - الكتب الطبيعية .. وتتضمن :

(أ) كتاب الطبيعة أو السماع الطبيعى وهو مؤلف من ثمانية أجزاء ..

(ب) كتاب السماء .

(ج) كتاب الكون والفساد .

(د) كتاب الظواهر الجوية .

٣ - الكتب البيولوجية .. وهى :

تاريخ الحيوان وحركة الحيوان ويضم اليها كتاب النفس والرسائل
الصغرى المتصلة به وعددها ثمانية . وقد سميت بالطبيعيات الصغرى
وهى : الحس والمحسوس ، والذكر والتذكر ، والنوم واليقظة ، وتعبير
الرؤيا فى الأحلام ، وطول العمر وقصره ، ورسالة فى الحياة والموت ،
ورسالة فى النفس ، ورسالة فى الشباب والشيخوخة .

٤ - الكتب الميتافيزيقية :

يعرض أرسطو فى هذه الكتب للفلسفة الأولى وهى تشتمل على
أربعة عشر كتابا رتبها أندرونيقوس ورتبها حسب حروف الهجاء
اليونانية ، وسماها « ما بعد الطبيعة » لأنها ترد فى الترتيب بعد كتاب
الطبيعة .

٥ - الكتب الأخلاقية والسياسية :

وهذه الكتب تبحث فى الجانب العلمى من فلسفة أرسطو وهى
تتضمن :

(أ) الأخلاق الأوديسية : وهى أقرب الى منهج أفلاطون . وتشتمل
على سبع مقالات .

(ب) الأخلاق النيقوماخية وهى فى عشر مقالات .

(ج) الأخلاق الكبرى : وهى تلخيص للكتابين الأولين .

أما الكتب السياسية فأهمها : كتاب السياسة ، وكتاب « نظام
الاثينيين » وقد جمع فيه أرسطو مقتطفات من ستة عشر دستورا للمدن
اليونانية .

٦ - الكتب الفنية :

كتاب الخطابة في ثلاث مقالات ، وكتاب « فن الشعر » الذي نحن بصددده .

٧ - الكتب المنحولة :

وهي الكتب التي أثبت النقد التاريخي عدم صحة نسبتها لأرسطو لأنها تتضمن آراء لا تتفق مع الموقف الأساسي لأرسطو ، وأخصها « كتاب الربوبية » .

وقد عكف القدماء على كتب أرسطو يدرسونها ويعلقون عليها إلى أن أغلقت مدارس الفلسفة في أثينا على عهد « جوستينيان » عام ٥٢٩ م . ثم نقلت كتب أرسطو إلى السريانية ، ولم يلبث السريان أن نقلوها إلى العربية في عهد العباسيين . وفي الأندلس قامت حركة لنقل هذه الكتب من العربية إلى اللاتينية وبعدها ترجمت من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة . وفي العصر الحديث أعيدت ترجمة هذه الكتب إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، كما توفر الباحثون على تحقيق الترجمة العربية القديمة للمؤلفات الأرسطية .

فن الشعر عند أرسطو

ويحسن بنا أن نعرض ما حوى هذا المؤلف القيم قبل التعرض للمسائل الأدبية التي يثيرها هذا الكتاب وبيان مكانته في تاريخ النقد الأدبي العالمي .

فمن الممكن أن يدرك القارئ دون مشقة تلك الخطة المنهجية التي تتبعها أرسطو في كتابه . ويظهر هذا واضحا إذا قارنا فن الشعر لأرسطو بفن الشعر لهوراس (٣) الذي يحمل طابع رسالة أرسلت إلى أصدقائه من آل بيسو .

يبدأ أرسطو ببيان أن الشعر فن من فنون المحاكاة كال موسيقى والرسم مثلا ، ثم يقسم الشعر إلى سردي ودراماتيكي . فهو ميروس (٤) عندما يتحدث بلسان غيره فشعره دراماتيكي ، أما إذا روى عن غيره فشعره سردي فقط . وعلى هذا فالشعر الدراماتيكي قد يكون شعرا حماسيا أو شعرا مسرحيا . ولما كانت الملاحم تتحدث عن العظماء والأبطال وكذلك تفعل التراجيديات فقد قارنهما أرسطو بالشعر الإيامبي والكوميديا التي نتحدث عن الأسافل .

ويبدأ أرسطو كتابه بالفقرة الآتية :

« لما كان موضوع بحثنا هو الشعر فسأشرع في الكلام ، لا عن الفن اجمالا فحسب ، بل عن أنواعه وعن الوظائف المختلفة لهذه الأنواع وعن بناء الحبكة المطلوبة لقصيدة جيدة وعن عدد الأجزاء التي تتألف منها القصيدة ونوع هذه الأجزاء ، وعن كل المسائل التي لها صلة بهذا الموضوع . ولنسلك الآن المنهج الطبيعي فنبدأ بالحقائق الأولية . »

ان شعر الملحمة والمأساة والملهاة وشعر الدائرامب (Dithyramb) ومعظم الزمر بالمزمار والضرب على القيثارة ، كل أولئك في جملته أساليب للمحاكاة . ولكن هذه الأساليب يختلف بعضها عن بعض من جهات ثلاث، اما باختلاف نوع وسائلها أو باختلاف موضوعاتها أو كيفية المحاكاة فيها .

وبعد الإشارة الى أنواع الشعر يعطى أرسطو لمحة عامة عن تاريخ الشعر مبتدئا بهوميروس أبى الشعر اليونانى . ويشرح أرسطو بإيجاز تاريخ التراجيديات والكوميديات قبل أن يحدد بالدقة أوجه الاختلاف بين التراجيديات وشعر الحماسة .

ويعرف التراجيديات ويحللها بدقة الى ستة أجزاء رئيسية هي : الموضوع والأشخاص والفكرة والأسلوب والعرض المسرحى والأناشيد الغنائية ، والموضوع أو الحبكة هي الجزء الرئيسى ، بل هي روح التراجيديات ، ان صح هذا التعبير ، وهي أهم من التشخيص . ولذلك أسهب أرسطو في التحدث عنها ، فكل شيء يدور حول الموضوع . فعندما يسدى أرسطو الى الشاعر بعض النصيح يشير الى الموضوع ، وعندما يتكلم عن « العقدة » يشير كذلك الى الموضوع . ولا يناقش أرسطو غير جزئين من الأجزاء الستة . فأما الموسيقى والمناظر المسرحية فلا يذكرها مرة أخرى . أما الفكر فيقول عنه ان مكانه الطبيعي في الرسائل المخصصة لفن الخطابة . وبعد أن يتحدث عن اللغة والألفاظ يعود ثانية للتحدث عن وحدة الموضوع . ثم يقارن بين الملحمة والقصة التراجيدية ، مادحا هوميروس الى عنان السماء ، ثم يختم بتفضيل التراجيديات .

ويتحدث أرسطو في مطلع كتابه عن فن الشعر عن محاكاة الفن للطبيعة ، وعن الشعر كفن من فنون المحاكاة . وأرسطو لا يعنى بالطبيعة تلك المظاهر الخارجية التي نشاهدها ، ولكن الطبيعة في نظره قوة خلاقة فهي المبدأ المنتج في هذا العالم . وتراه في كتابه عن الطبيعيات يقارن بين الفن والطبيعة ، ووجه المقارنة أن هناك اتحادا بين المادة وبين الشكل في كل منهما . فالفن يقلد منهاج الطبيعة . والفنون النافعة تأخذ عن الطبيعة الهدف الذي تسعى اليه . فالطبيعة تختار هدفها وتسعى اليه

فلا تخطئه ، فان فشلت ، فالعيب عيب المادية التي تستخدمها . والطبيعة تحتاج في بعض الأحيان الى المعونة ، فالطبيعة تهدف الى الصحة ، ولكنها قد تفشل ، فتستعين بالطبيب الذي يستخدم طرق الطبيعة للوصول الى الهدف المنشود . فالمحاكاة عند أرسطو ليست مجرد نقل آلى ، وانما هي الهام خلاق به يستطيع الشاعر أن يوجد شيئا جديدا على الرغم من انه يستخدم ظواهر الحياة وأعمال البشر . فالشعر ان هو الا تبيان وابرار لكل ما هو دائم وعام وحقيقى فى حياة الانسان وأفكاره . ولهذا كان الشعر أفضل من التاريخ . وعندما يحاكي الشاعر الطبيعة يحاكي عملياتها الخلقة ، ولا يقلد نتائج هذه العمليات . ولهذا كان الوزن عرضا غير لازم للشعر ، ويمكن أن تدل كلمة شاعر Poet على أى فنان فى النظم أو النثر .

ولم يكن أرسطو أول من قال ان الفن محاكاة ، فقد كان هذا قولاً سائرا في بلاد اليونان ، ولكن أرسطو نفث فيه معنى لا يشاركه فيه أحد .

النظرية الجمالية لأرسطو

ويعرف أرسطو الشعر تعريفا وافيا فى الفصل التاسع من كتابه حيث يقول :

« يتضح مما ذكرنا أن وظيفة الشاعر هي أن يصف شيئا يمكن أن يحدث ، لا شيئا حدث بالفعل ، أى انه يصف الشيء المحتمل حدوثه من حيث هو كذلك ، أو من حيث هو ضرورى . والفرق بين المؤرخ والشاعر ليس فى أن الأول يكتب نثرا والآخر يكتب نظما ، فانك تستطيع أن تنظم تاريخ هيرودوت ويظل نظمك مع ذلك نوعا من التاريخ ، أما الفرق الحقيقى فهو ان التاريخ يصف الأمور التى حدثت ، والشعر يصف ما يحتمل حدوثه . ومن ثم كان الشعر أدنى الى الفلسفة ، وأعظم خطرا من التاريخ . لان قضاياها ذات طابع كلى ، فى حين أن قضايا التاريخ جزئية ، »

ويرجح أرسطو أن الشعر نشأ أصلا من ميول ونزعات راسخة فى الطبيعة البشرية ، فنزعة المحاكاة تولد مع الانسان ، وهو أكثر من الحيوان استعدادا لها ، وبها يكتسب بعض معارفه الأولية . والمحاكاة لذينة ، ومشاهدة المحاكيات لذينة أيضا . وهناك اتفاق بين أرسطو وأستاذه أفلاطون فى أن نشوء الشعر يعود أيضا الى الميل الى الانسجام والايقاع . ويضيف أرسطو كسبب من أسباب نشوء الشعر وغيره لذة التعلم وقد أشار إليها فى كتاب ريتوريقا .

واللذة أيضا هي هدف الشعر عند أرسطو ، بل هدف كل الفنون الجميلة ، أما الفنون المفيدة ، كالتجارة مثلا ، فهدفها تقديم الوسائل الضرورية في حياتنا الدنيا ، ولا يعنى أرسطو هنا باللذة متعة حقيرة ، وإنما يقصد اللذة السامية التي تمنح متعة جمالية مصدرها الشعور ، لا العقل . فلاحساس الذي يصحب النظر الى فن جميل يشبه المتعة التي تصحب التفكير الفلسفى .

وهذه اللذة ليست لذة الصانع أو الشاعر ، ولكنها لذة الناظر أو السامع ، فكما أن الهدف فى الخطابة يرنو الى السامع ، فكذلك فى الشعر .

فأرسطو هو أول من حاول فصل النظرية الجمالية عن النظرية الأخلاقية . وهو يلح فى أن هدف الشعر هو اللذة . وهو حين يفعل ذلك يبتعد كثيرا عن الآراء التي كانت سائدة فى عصره .

وأرسطو يمدح سوفوكليس (٦) كثيرا فى كتابه ، ولكنه لا يشير مرة واحدة الى سمو مبادئه الأخلاقية . وليس هناك فى كتاب فن الشعر ، لا فى تعريف التراجيديا ولا فى أى موضع آخر ، إشارة الى طراز من الشعر يجعل المواطنين أفضل ، فالمسرح ليس بمدرسة . ولكن أرسطو يهاجم الكارثة التي تحل ببطل القصة فتقهر الفضيلة وتنصر الرذيلة ، لأنها لا تثير شفقة ولاخوفا . وهو يقرر كذلك أن الانحطاط الأخلاقى يجب ألا يعرض على المسرح الا لضرورة . أما اذا لم تدع اليه الضرورة فلا داعى له .

ولكن النظريات القديمة التي تنسب للشعر هدفا أخلاقيا وتعليميا استمرت فى الديوغ والانتشار فى بلاد اليونان . ونجد استرابون (٧) فى القرن الأول قبل الميلاد ينقد ايراتو سثينس لتمسكه بنظرية أرسطو الجمالية ويقول استرابون ان وجود الشعر فى منهاج جميع أنواع المدارس اليونانية دليل على أن اليونانيين يرون أن للشعر أثرا على السلوك والأخلاق وأن الشاعر الذى لا يهدف شعره الى تهذيب الشعب وتعديل مناهجه ليس بشاعر جدير بهذا الاسم . ويرى بلوتارك (٨) أن الشعر هو الخطوة الأولى التي تعدنا لدراسة الفلسفة . وقد وافق رأى هوى فى نفوس الرومان ، فأعلن هوراس أن هدف الشاعر الاسمى يجب أن يكون النافع واللذيد . وقد ساد هذا رأى فى العصور الوسطى وفى أوائل العصر الحديث ، وكان كثيرون ممن يرددونه يظنون انهم يسيرون فى اثر أرسطو .

وهناك من المحال - فى نظر أرسطو - قبوله فى الشعر ، وهى الأساطير والخرافات والروايات السائرة على كل لسان فى شعب ما .

ولكن غير المعقول أقل قبولا في التراجيديا منه في الملاحم . وان أريد عرضه على المسرح فيجب أن يصور على أنه محتمل ، فالمحال ماديا أسهل في معالجته فنيا من المحال اخلاقيا أو عقليا .

وكذلك فان الشعر لا يقبل المصادفة أو الحظ ، لان في ذلك نفيسا للفن وللذكاء وللطبيعة كقوة منظمة .

وتعريف المأساة والقصة التراجيدية محاكاة عمل جدي تام ، ذات طول معلوم في لغة مزخرفة بأنواع من الزخرف الذي يناسب الأجزاء المختلفة . وهي قصة تمثيلية لا حكاية اخبارية ، تظهر بالشفقة والخوف هذين الانفعالين .

ويشرح أرسطو ما يعنى بأنواع الزخرف المختلفة : فانشيد الجوقة لابد فيها من شعر وألحان أما الحوار فيكفى فيه الشعر وحده .

وتكمن الصعوبة في هذا التعريف في كلمة تطهير Katharisis (٩) التي ثار حولها نقاش طويل والتي استمرت قرونا كثيرة كان النقاد يرون فيها اشارة الى تطهير أخلاقى من الاهواء .

وعلى الرغم من ان النقاد في عصر احياء العلوم قد أدركوا معنى الكلمة الحقيقية ، وعلى الرغم من أن ميلتون (١٠) أدرك مغزاها وضرب له مثلا علاج الداء بسواء من جنسه ، وعلى الرغم من أصوات احتجاج رفعت بن حين وآخر ، الا أن أول من نجح في لفت الأنظار الى خطأ التفسير التقليدى هو « جاكوب بيرينس » فى مقال نشره سنة ١٨٥٧ . وقد بين بيرينس أن لكلمة « كاثارسيس » معنى طبييا ، وان تطهير الروح هنا مشابه لأثر الدواء على البدن ، فالتراجيديا تثير انفعالين وتهدهما وهما الشفقة والخوف ، وهما انفعالان يوجدان فى جميع أئمة البشر ، وبينهما ارتباط ، فهناك خوف يختبئ تحت الشفقة .

وقد أدرك أفلاطون فى هجومه على الشعر أن الرغبة الطبيعية فى الأحران والدموع وهى التى نحاول أن نتحكم فيها فى حياتنا العادية نجد ما يسرها فى الشعر . فالشعر فى نظر أفلاطون ، يغذى ويسقى الاهواء بدلا من قتلها جوعا . وهو يضعف الرجولة ويشير الاضطراب فى الروح بآثاره الأهواء وعزل العقل ومحابة الشعور .

وقد رد أرسطو بأنه ليس من المفيد أو المرغوب فيه قتل الأحاسيس والمشاعر الانسانية ، ولكن ينبغى التحكم فيها . فالتراجيديا تطلق الشفقة والخوف اللذين يكمنان فى قلب كل انسان بآثاره شفقة وخوف

مسرحة وعند زوال الانفعال يتم التطهير . فالتراجيديا علاج من جنس الدواء .

وقد قاد أرسطو الى هذه النظرية ما لاحظته من اثر الموسيقى فى شفاء بعض الاضطرابات النفسية ولا سيما الجذب الدينى . فأرسطو يرى أن هناك نوعا خاصا من الموسيقى يهدى من هذا الاضطراب النفسى بأن يوجد مخرجا للحماس الدينى . يعود بعد ذلك المريض الى حالته العادية وكأنه قد تعاطى دواء مطهرا .

ولما كانت مدرسة أبقراط تستعمل كلمة تطهير فى اخراج الم من البدن ، فهناك اتفاق بين المعنى الطبى والمعنى الذى يقصده أرسطو . ذلك لأن أرسطو يعرف الخوف والشفقة فى الجزء الثانى من كتابه ريتوريقا بما لا يخرج عن هذا الرأى . فالخوف عنده حزن أو اختلاط يحدث من تخيل شر يتوقع أن يفسد أو يؤذى ، والشفقة حزن لشر يظن مفسدا يعرض لامرئى بلا استيجاب .

الوحدات الثلاث

والوحدات الثلاث هى : وحدة الموضوع ووحدة الزمان ووحدة المكان .

وتعتبر وحدتا الزمان والمكان من أكثر الافتراءات التى الصقت بأرسطو ، والتى تمسك بها الشعراء فى فرنسا فى عصر لويس الرابع عشر وحاولوا أن يجدوا لها سنداً فى كتاب فن الشعر لأرسطو . والوحدة الوحيدة التى يعرفها أرسطو هى وحدة الموضوع وهى التى يسميها روح القصة . ويرد أرسطو فى الفصل الثامن من كتابه على أولئك الذين يرون أن وحدة الموضوع تنشأ من وحدة الشخص ، لأن حياة الشخص تتكون من أحداث كثيرة قد لا تجمعها وحدة . وهذا عيب من يؤلفون قصة أو يكتبون ملحمة عن هرقل أو ثيسيوس . لكن هوميروس ، وله فى كل شئ المقام الأسفى فقد ابتعد عن هذا الخطأ : اما بفضل معرفته لأسرار الفن أو بفضل عبقريته عندما كتب الأوديسة واللياذة . وكلما كانت الوحدة أعظم وأكمل ، اكتسب الموضوع شخصية موحدة . وأجزاء هذه الوحدة لا يمكن أن تنقل أو تبتر دون أن ينفرد عقد الكل . ويتصل بوحدة الموضوع طول المأساة لأنها محاكاة فعل تام له مدى معلوم . واذا أفرط الشئ فى الطول أو القصر لم يعتبر جميلا ، ولهذا يجب أن يكون للمأساة من الامتداد ما تقوى الذاكرة على وعيه بسهولة . والطول الكافى هو الذى يسمح بتطور الأحداث وتواليها وفقا لقاعدة الاحتمال أو الضرورة ، حتى يأتى

تغير الحال (حظ البطل) كنتيجة منطقية لتسلسل الحوادث ، وحتى تنتهى
القصة دون التجهاء الى آله من الآلهة .

ويرتكز رأى القائل بوحدة الزمن على اشارة لأرسطو لم يرد على
الاطلاق أن يجعل منها قاعدة واذا هى طبقت على المسرحيات اليونانية بأن
خطوها . فأرسطو يقارن بين الملحمة والمأساة فيقول ان القصة التراجيدية
تحاول أن تحصر نفسها قدر المستطاع فى دورة واحدة للشمس أو يزيد
قليلا . أما وحدة المكان فلم يعرفها أرسطو أو يشير اليها من قريب
أو بعيد وانما استنتجت خطأ من وحدة الزمن ومن عدم تغيير المناظر فى
المسارح اليونانية ومن افتراض بقاء الجوقة فى مكان واحد طوال عرض
القصة . ووحدة المكان هذه لم يعرفها شعراء المسرح العظام ولا يمكن أن
تطبق على مسرحياتهم .

بطل المأساة المثالى :

استمرت فكرة البطل المثالى الذى تنور حوله القصة التراجيدية سائدة
طوال العصور القديمة والحديثة . وكان يسندها تفسير خاطئ للفصل
الثالث عشر من كتاب فن الشعر لأرسطو . وأول من خرج على هذا الاجماع
جون جوتز المحاضر فى أدب اللغة الانجليزية بجامعة اكسفورد فى كتابه
عن أرسطو والتراجيديا اليونانية والذى أعلن انه لا يوجد دليل - أدنى
دليل - على أن أرسطو كان يفكر فى بطل تراجيدى ، وأن فكرة البطل
المثالى أدخلها العلماء فى كتاب أرسطو ، ولا يحتاج الى مجهود جبار للقضاء
عليها .

أما الرأى التقليدى فقد استند على أن وظيفة التراجيديا هى التطهير
بإثارة الشفقة والخوف . والشفقة لا تكون الا على من تردى فى الهاوية
دون استحقاق ، والخوف لا يكون الا على الشبيه . ولهذا كان سقوط
من لا عيب فيه لا يثير خوفا أو شفقة ، وكذلك سقوط الشرير الذى لا خير
فيه . أما اذا نال الشرير سعادة ، فاننا جميعا نشعر بالاستياء . والحالة
المثالية هى حالة رجل عريق لم يصل الى ذروة الكمال ، ولكنه ميال الى
الخير . يتردى فى الهاوية بسبب خطأ فى الحكم .

فأرسطو لا يهتم بتحول مجرى الحوادث سواء كان التحول من النعيم
الى الشقاء أو العكس ، غير أن التغير الى أسوأ مفضل عنده وضرورى جدا
عنده أصحاب نظرية البطل المثالى الذى لابد ان يسقط بسبب خطئه .
فالتحول عند أرسطو (فى الفصل الحادى عشر) هو انقلاب الفعل الى
ضده اطاعة لقانون الاحتمال أو الضرورة ، ولابد ان ينتج من تطور حوادث

القصة بحيث يكون ضرورة عن الوقائع احتماليا أو ضروريا . ولكن
أرسطو يهتم بطول القصة الكافي الذى يسمح للحوادث بالتطور حتى
يحدث التحول من السعادة الى الشقاء أو بالعكس طبقا لقاعدة الاحتمال
أو الضرورى .

الالهام :

هل الشعر بأنواعه المختلفة صنعة أم الهام ؟ هذه فكرة لم يعرها
أرسطو كبير اهتمام . وفكرة الالهام فكرة غريبة على مناهج التفكير
اليونانى . فالشعر صنعة والشعراء كالصناع مهرة . وأول من يلح على
فكرة الالهام هو بندار (١١) ، أما سقراط فيطوف بكبار الشعراء يسألهم
عن معنى ما ينظمون فلا يستطيعون . وفى محاوره أيون يردد أفلاطون
أن الشعر الهام وأن الاله يلهم المنشد والمنشد يلهم النظارة ، وهو يشبه
أثر هذا الالهام بأثر المغناطيس الذى يجذب الأشياء القابلة للمغنطة
ويكسبها خاصية الجذب أيضا . ويقترب أرسطو من هذا الرأى فى كتابه
ريطوريقا عندما يقول ان الشعر الهام ، وفى الفصل السابع عشر من
كتابه عندما يميز بين نوعين من الشعراء : نوع يشارك أشخاصه مشاعرهم
فهم ذوو عواطف جياشة تؤهلهم للتكيف مع أحوال أشخاصهم ، ونوع
يشتد استسلامه للنوبات الجنونية الشعرية .

ولكن الحق أن اليونان فى جميع عصورهم لم يخرجوا قط عن حكم
العقل . وهذا ما جعل لأرائهم ونظرياتهم فى الفلسفة والشعر وغيره صفة
الدوام والعموم .



مكانة فن الشعر فى تاريخ النقد الادبى

« فرغت من تلاوة كتاب أرسطو « فن الشعر » تلاوة جيدة شعرت فيها بمتاع أى متاع : انه ثمرة جميلة من ثمار العقل فى كمال تعبيره .
ومما يدعو الى الاعجاب أن يشهد المرء الى أى حد يتعلق أرسطو بالتجربة وحدها ، ولئن كان هذا الأمر يضاف عليه ، ان شئت - طابعا من الواقعية والموضوعية المبالغ فيهما ، فانه فى مقابل هذا يخلع على منهجه مزيدا من الرسوخ والرصانة . فلشد ما أبهجنى - مثلا - أن ألحظ مدى سعة عقله فى الدفاع عن الشعراء ضد مهاجمات النقاد وتشقيقاتهم الدقيقة ، ومدى مضاء عزيمته فى النفوذ قسما الى الجوهر ، وتسامحه فيما سواه ، حتى انى أحسست فى كثير من المواضع بدهشة حقيقية . ثم نظرته فى الشعر ، والجوانب التى تهمة منه بخاصة ، كل هذا فيه من النفوذ والحياة ما يدعونى الى العود اليه عما قليل ، ولو بسبب بعض المواضع المهمة التى ليست واضحة كل الوضوح ، وأود أن يتضح معناها بجلاء عندى » .

هكذا كتب جيته Goethe الى شيلر Schiller فى ٢٨ ابريل ١٧٩٧ يصف له اثر قراءته لكتاب أرسطو « فن الشعر » لما قرأه مرة أخرى ، بعد أن كان قد قرأه قبل ذلك بثلاثين سنة فى ترجمة كورتيوس ، فلم يفهم شيئا من مغزاه الحقيقى آنذاك ، واذا به اليوم ، وقد شارف على الثامنة والأربعين ، يقرأه فيجيد فهمه ويصيح « ان المرء لا يكتشف كتابا حقيقيا الا فى اليوم الذى يفهم فيه » (رسالة الى شيلر فى ٦ مايو سنة ١٧٩٧) ، ثم يقضى باعجابه الى صديقه شيلر فيبادله شيلر اعجابا باعجاب ويقول (٥ مايو سنة ١٧٩٧) : « أنا راض كل الرضا عن أرسطو - لا عن أرسطو وحده ، بل وعن نفسى أيضا : فليس من الأمور العادية أن يقرأ الانسان لرجل مثله ، رصين العقل مودوع الحكم ، دون ان يفقد معه الطمأنينة . ان أرسطو هذا حكم رهيب كأنه أحد زبانية الجحيم بالنسبة الى كل من يدعى التمسك الوضع بالشكل الخارجى ، أو التحرر المطلق من كل شكل : فالأول لا يلبث ان يشعر بوقوعه فى متناقضات مستمرة لما يشهده من استقلال فى الرأى والعقل

والذكاء اذ يتضح في الحال ان أرسطو يعبر الجوهر أهمية أكبر ، بما لا نهاية له من المرات ، مما يعبر سائر مسائل الشكل الخارجى ، أما الثانى فسيروده حتما أحكاما فى استنباط قوانين تركيب الأنواع الشعرية - وخصوصا المأساة - من فكرة الشعر وفكرة المأساة بخاصة . ولهذا فهمت الآن ، والآن فحسب ، لماذا أرهق شراحه الفرنسيين وشعراء فرنسا وتقادها ، وبث فيهم دائما الخوف الذى تثيره العصا فى نفوس الأولاد . وشكسبير الذى لم يتورع عن مخالفة قواعد أرسطو ، كان يمكن أن يكون بينه وبينه من الوفاق أكثر مما كان بين أرسطو والمأساة الفرنسية - ومهما يكن من شئ ، فأنا راض كل الرضا لاني لم أقرأه قبل هذه الأيام : والا لكنت قد فقدت كل اللذة وكل الفائدة اللتين استشعرتهما اليوم . وعلى من شاء أن يقرأه بفائدة ، أن يكون عارفا من قبل بالأفكار الواضحة كل الوضوح عن الأمور الرئيسية ، أما من لم يقف من قبل على الموضوع الذى يعالجه أرسطو ، فمن الخطر المحقق أن يلتبس عنده النصيحة ، . وفى هذه الجملة البليغة كشف شيلر عن حقيقة كتاب أرسطو « فن الشعر » ومصيره .

فلقد كان لهذا الكتاب من المكانة فى تاريخ النقد الأدبى فى أوروبا الحديثة ما لم يظفر به أى كتاب آخر حتى الآن . فمنذ أن نشر «جورجيو» أول ترجمة لاتينية له فى سنة ١٤٩٨ بالبندقية ، ومنذ ان ظهرت له طبعة يونانية - بمعونة جيوفانى لسكاريس فى سنة ١٥٠٨ بالبندقية أيضا - والكتاب قد أصبح مصباحا سحرىا فى أيدي الشراح والنقاد . وإذا بسلسلة رائعة من ادباء عصر النهضة الانسانيين يتعاقبون على الكتاب : يستنبطون أغواره ، وينقبون عن خفايا قواعده ، ويختصون حول فهم مضمونه وقواعده . وكان على رأسهم فرنسيسكو روبرتو الذى قدم الى كوزمو دى مدتشى سنة ١٥٤٨ أول شرح لهذا الكتاب فى العصر الحديث ، فبدأ بشرحه طريقا طويلة سلكها النقاد طوال القرون : السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر أيضا حتى قيام الحركة الابتداعية (الرومنتيك) .

والعارفون بتاريخ الآداب الأوروبية يعلمون أثر هذا الكتاب فى الأدب الفرنسى فى القرن الذهبى ، القرن السابع عشر ، وكيف تأثر به كورنى (١٢) الذى جرى فى أثر الرعيل الأول من الانسانيين الايطاليين ، فسار على قواعده فى تأليف مسرحياته ، وبهذا وضع الأساس فى التأليف المسرحى الفرنسى الذى بلغ به أوجه على أساس هذه القواعد جان

راسين (١٣) ، فتكون عن هذا ما عرف فى تاريخ الأدب باسم « المذهب الاتباعى (الكلاسيكى) فى الأدب الفرنسى » ، وهو المذهب الذى أثر من بعد فى الأدب الألمانى فى القرن الثامن عشر . وعن طريق الشراح الإيطاليين كذلك تأثر الأدب الأسباني خصوصا الجماعة التى أطلقت على نفسها أو أطلق عليها اسم « اتباع قواعد أرسطر » و Los preceptistas aristotelicos

ومن بينهم الونسو لوبث والينثيانو وكسكالس وجونثالث دى سالاس من كبار الانسانيين الأسبان الذين ساهموا فى حركة النهضة .

هوامش

- (١) تراجيديا : « مأساة » مسرحية شعرية أو نثرية تعالج موضوعا جديا وتصور صراعا بين البطل وبين قوة عليا أقوى (كالقدر أو المجتمع أو الظروف) ينتهى آخر الامر نهاية فاجعة تثير الاشفاق .
- (٢) شيشرون : ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ - ٤٣ ق.م) خطيب وكاتب ومحام وسياسى روماني .
- (٣) هوراس : (٥٦ ق.م - ٨ ق.م) من أعظم شعراء اللاتين . نجح فى تصوير عصره تصويرا حيا فى اسلوب واضح ودقة متناهية والفاظ مختارة .
- (٤) هوميروس : أعظم الشعراء الاغريق . معظم الدراسات ترجع انه عاش قبل ٧٠٠ ق.م . أشهر أعماله الألياذة والأوديسة وهما من روائع الأدب العالمى .
- (٥) الدرامب : ترنيمة يونانية قديمة كانت ترتل للاله باخوس .
- (٦) سوفوكليس : (٤٩٦ - ٤٠٦ ق.م) من أشهر شعراء المأساة اليونانية .
نال الجائزة الأولى ٢٠ مرة .
- (٧) استرابون : (٦٤ ق.م - ٢١ ق.م) جغرافى ومؤرخ يونانى . وضع سبعة وأربعين مجلدا فى التاريخ ووضع سبعة عشر مجلدا فى الجغرافيا . وتعتبر هذه الآثار من أهم المصادر التى نستمد منها معرفتنا بالعالم القديم .
- (٨) بلوتارك : مؤرخ وناقد يونانى . يعتبر أعظم كتاب السير والتراجم فى العالم القديم .
- (٩) Katharsis وهى بمعنى كلمة تطهر فى أصلها اليونانى أما ترجمتها الانجليزية فهي Catharsis Purgation
- (١٠) ميلتون : (١٦٠٨ - ١٦٧٤ م) شاعر انجليزى اهتم بالموضوعات الاجتماعية والسياسية فى عصره .
- (١١) بندار : (٥٢٢ ق.م - ٤٢٨ ق.م) شاعر يونانى اشتهر بقصائده التى تفتى فيها بالنبل والشجاعة والطهارة والشرف . اعتبره بعض النقاد أعظم الشعراء الفنائين فى العصور القديمة .
- (١٢) كورنى : (١٦٠٦ - ١٦٨٤ م) شاعر المأساة الفرنسى . كان أبطال رواياته يتميزون باخضاع العاطفة للإرادة والتمسك بأداء الواجب .
- (١٣) جان راسين : (١٦٣٩ - ١٦٩٩ م) أعظم الكتاب المسرحيين الفرنسيين . وأعظم ممثلى التراجيديات الكلاسيكية الحديثة .

تفذيب الأخلاق وتطهير الأعراق

مسكويه

١٠٢١ م

« ابن مسكويه من الأسماء المضيئة التي صنع أصحابها ملامح شتى
في وجه الحضارة الانسانية بصفة عامة والحضارة الاسلامية بصفة
خاصة . »

انه المفكر الاسلامي والعالم الجليل الذي يعد من أبرز علماء الأخلاق
في العالم أجمع بشهادة الغربيين قبل الشرقيين .

وعلى الرغم مما تعرض له في صدر حياته من بعض المتاعب المالية
والأزمات النفسية ، الا انه استطاع بالجد والمثابرة والصبر الطويل أن
يحقق لنفسه مكانة مرموقة في مجتمعه وينجز العديد من الأعمال التي
أضافت الى التراث الانساني كنوزا فكرة وعلمية ، كانت لها آثارها البعيدة
على مسيرة الحضارة الانسانية .

فابن مسكويه . . فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم كيمياء . . اشتهر
في عالم الفلسفة بفلسفته الأخلاقية ، فله في هذا الصدد كتاب « تهذيب
الأخلاق » ، وكتاب « الفوز الأصغر » و « مجموعة من الحكم » نقلها عن
حكماء الهند وفارس واليونان ، والعرب .

كان مولعا بالتاريخ وذلك لما يتضمنه من التجارب الانسانية على
توالي العصور فقام بتأليف كتابه المعروف باسم « تجارب الأمم » .

حياة مسكويه

هو « أبو علي بن يعقوب الملقب بابن مسكويه » . . وهي لفظة مركبة
تركيبا أعجميا ومعناها : « رائحة المسك » وهذا كناية عما تميز به
شخصه من خصال حميدة فاضلة . . . ولد عام (٣٣٠ هـ - ٩٤١ م)
وهو ينتمي الى أسرة ذات جاه وعراقة . كان والده يعيش في سعة وترف
لكن هذا الوالد سرعان ما فارق ابنه ، وودع الدنيا وهو لم يزل في عمر
الشباب . . الأمر الذي جعل « فيلسوفنا » لم يحاول أن يعتمد في تعليمه

على أستاذ بعينه .. فلا يذكر التاريخ أنه كان يتلقى العلم على واحد من الأساتذة ، ولم يقتنع بالذهاب الى المدرسة لتلقى دروسه ، وانما أثر أن يعلم نفسه بنفسه .. كان حبه للحقيقة يدفعه دائما الى الاجتهاد ، وتكبد مشقة التحصيل .. وساعده على ذلك ، طبيعة العمل الذى كان يؤديه ، فقد عمل أمينا لمكتبات قصور الأمراء التى تردد عليها خلال سنين طويلة .. ومن ثم ، كان « الكتاب » بالنسبة اليه « ينبوع الثقافة » و « المعلم » و « الجامعة » التى تربي فيها .. انظر اليه وهو يشيد بالكتب فى أشعاره يقول :

**فان تمنيت عيش الدهر أجمعه
وان تعانين ما ولى من الحقب
فانظر الى سير القوم الذين مضوا
والحظ كتابتهم من باطن الكتب**

العصر الذهبى للثقافة

عاش « ابن مسكويه » فى ظل دولة بنى بويه (١) التى بلغت أوج مجدها وعظمتها فى زمن الخليفة « عضد الدولة » ، فكان يشرف على مكتبات أمرائها المكسدة بالكتب النادرة التى أثرى منها ثقافة ، وفكرا ، وعلمًا .

وكان عهد « عضد الدولة » عهد ازدهار ونهضة ، وكانت الكتب أغنى شئ يملكه الانسان فى ذلك الحين .. فلم يضمن الحكام – بالمال والجهد – من أجل بسط حركات التنوير ونشرها بين الناس ، فصارت الكتب أشبه بالسوق الرائجة التى تلقى اقبالا من الناس فى كل مكان . وكان الأمراء يتبارون فيما بينهم على اقتناء النفيس من الكتب .. فلم يترددوا فى ايفاد مبعوثين لهم الى أنحاء البلاد بحثا عن الكتب الجديدة حتى تتوافر لكل من يحتاج اليها ... ومن هنا ، كانت الثقافة شيئا مشاعا بين الجميع .. فلا غرابة فى أن يطلق على هذا العصر العصر الذهبى للعلم والفلسفة والأدب .

عالم الكيمياء :

قضى فيلسوفنا فترة من عمره فى رحاب الخليفة « عضد الدولة » الذى كان شغوبا بالكشوف العلمية ، وبما أبدعه العلماء ، خصوصا فى دنيا الكيمياء .. ولقد كان ابن مسكويه يركز اهتمامه – فى بادئ الأمر –

على الكيمياء ، فكانت آنثذ شغله الشاغل ، حيث راح يستخلص النتائج من خلال عملية مزج المواد وخلط عناصرها ، عارضا هذه النتائج على الخليفة . فكان بذلك يشبع فضوله الشديد في هذا الشأن . حتى ان الخليفة كان يتناول طعامه في حين يقف ابن مسكويه الى جانبه ليسأله عن تلك العناصر التي تتألف منها الأطعمة ، وعن منافعها ومضارها !

الفيلسوف :

ولئن كانت علوم الكيمياء قد شغلت ابن مسكويه فترة من حياته ، الا انه لم يكتف بها ، ولم يتوقف عندها ، وانما راح يشق طريقه الى الفلسفة ، وينهل من معينها ويضعها في موضعها الصحيح اللائق بها . . . فقد كانت - في زمنه - تمثل نوعا من المعارف النظرية : من منطق ، وطبيعة ، ورياضيات وسياسة واخلاق واقتصاد .

اطلع ابن مسكويه على نتاج العقل اليوناني ، ودفعه اعجابه بأفلاطون الى قراءة كل كتبه . . . وقد زاد اعجابه بآرسطو ، خصوصا في كتابه « الأخلاق » وكتاب « النفس » و « المقولات » . . . أما جالينوس فقد قرأ له كتاب « التشريع » و « منافع الأعضاء » و « في تعريف المرء عيوب نفسه » و « انتفاع الأخيار بأعدائهم » . كذلك تأثر بنتاج فلاسفة الاسلام . . . ومنهم الكندي والفارابي وابن سينا .

شاهدا على عصره

واذا كانت الحياة قد ازدهرت في حكم « بني بويه » ، وعم الرخاء والتقدم ، الا أن هذا لم ينف ما أصاب هذه الحياة من فساد وانحراف وفوضى !! فقد غرق الناس في ملذاتهم ومتاعهم ، وعيشهم . وجاء فيلسوفنا لكي يكون شاهدا على عصره الذي فقد قيمه الأخلاقية وأضاع مثله العليا !!

فظهر هذا الفيلسوف كرد فعل لهذه الحالة السيئة التي انحدرت اليها البلاد فكانت فلسفته الأخلاقية ، أصدق تعبير عما يحتاج اليه مجتمعه من قيم ، ومبادئ ، وفضائل ، ومن هنا كانت أغلب كتاباته في الدعوة الى اصلاح النفوس وتوجيهها الى حياة أفضل . فنراه يحدثنا في هذا الصدد في كتابه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » فهو يرى ان الناس اما أخيار بالطبع ، أو أشرار بالطبع ، أو لا أخيار ولا أشرار ، لكن التطبيع الاجتماعي يجعلهم أخيارا أو أشرارا . . . وهو يعنى بالشخص الخير . . . الشخص الذي تصدر عنه الأفعال الانسانية .

أما علم الأخلاق ، فهو عنده ذلك الذى يبحث فيما يجب أن تكون عليه أخلاق الانسان فى الجماعة . . لهذا ، كانت محبة الناس فى نظره انما هى أساس كل الفضائل . . وهو يرى أن « أحكام الشريعة » لو فهمت فهما صحيحا لأصبحت أشبه بالركيزة التى يقوم عليها مذهب أخلاقى قوامه محبة الانسان للانسان . .

وقد ألف ابن مسكويه كتبا كثيرة فى الفلسفة والتاريخ لم يصلنا منها الا ما يأتى :

- ١ - كتاب « تجارب الأمم فى التاريخ » : وهو تاريخ عام يبدأ بالخليفة وينتهى سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م ويدخل فى ذلك تاريخ الفرس القدماء وما يتعلق به من أخبار الروم والترك . وقد استغرق هذا المؤلف ستة مجلدات كبيرة .
- ٢ - كتاب : آداب العرب والفرس : وهو فى ستة مجلدات أيضا ، تكلم فيها عن الأخلاق والآداب عند العرب والفرس والهند واليونان .
- ٣ - الفوز الأكبر : وهو فى الفلسفة وما يتعلق بها . وفى جملة ذلك رأيه فى المخلوقات ونسبتها بعضها الى بعض باختلاف طبقاتها من الجماد والنبات والحيوان . وتبعه كتاب الفوز الأصغر تلخيصا له .
- ٤ - كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق : وهو من كتبه الهامة والذى نحن بصدد فى هذا الفصل من الكتاب .



محتويات تهذيب الأخلاق

وكتاب تهذيب الأخلاق مقسم الى سبع مقالات عالج ابن مسكويه فيها على التوالى :

- ١ - النفس والفضائل .
- ٢ - مراتب القوى وشرفها (الخلق ، ماهيته وكيفية تكونه) . .
- ٣ - الفرق بين الخير والسعادة وأقسام الخير .
- ٤ - ظهور السعادة فى الأفعال الناشئة عن الفضائل .
- ٥ - فى الاتحاد وحاجة الناس بعضهم لبعض .
- ٦ - علاج أمراض النفس (الوقاية) .
- ٧ - رد الصحة على النفس (العلاج) .

وقد قسم المؤلف هذه المقالات الى فصول أو « مطالب » وسوف
تعرض مع شيء من التفصيل لكل مقال على حدة :

١ - النفس والفضائل

يرهن ابن مسكويه في هذا المقال على أن النفس ليست بجسم ولا حالة من أحوال الجسم وانما هي شيء آخر مفارق له في جوهره ، متخذاً نفس البراهين التي أوردها أرسطو تقريباً . والنفس لا تأخذ علمها من الحواس ، ولكنها تأخذ هذا العلم من ذاتها أى من العقل . وهي تواقّة الى العلوم والتأمل ، كما ان قوى النفس تنقسم الى ثلاثة أقسام : قوة ناطقة وتسمى الملكية وآلتها السماغ ، وقوة غضبية وتسمى السبغية وآلتها القلب ، والقوة الشهوية وهي تسمى بالبهيمية وآلتها التي تستعملها من البدن الكبد . والفضائل والردائل تقابل هذه القوى ، فالحكمة فضيلة النفس العاقلة ، وهي تتأتى عن العلم ، والسخاء هو فضيلة النفس البهيمية وهو يتأتى عن العفة ، وفضيلة النفس الغضبية الشجاعة وهي تتأتى عن الحلم . وهذه الفضائل الثلاث يحدث عنها اذا اعتدلت في نسبة بعضها الى الأخرى فضيلة رابعة هي كمالها وتامها وهي فضيلة العدل . وعلى ذلك فالفضائل كما أجمع عليها الحكماء أربع وهي : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، واضدادها : الجهل والشره والجبن والجور . وهذه الفضائل ليست الا أجناساً يندرج تحت كل منها أنواع كثيرة .

والفضائل ليست الا أوساطاً بين أطراف متباعدة وهي الرذائل ، فكل فضيلة وسط بين رذيلتين : فالحكمة وسط بين السفه والبله ، ويقصد من السفه هنا استعمال القوة الفكرية فيما لا ينبغي وكما لا ينبغي ، والذكاء وسط بين الخبث والبلادة ، والعفة وسط بين الشره وخمود الشهوة والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والسخاء وسط بين التبذير والتقتير . أما العدالة فهي وسط بين الظلم والانظلام أى تحمل الظلم . ذلك ان الظلم هو « التوصل الى كثرة المقتنيات من حيث لا ينبغي وكما لا ينبغي ، وأما الانظلام فهو الاستجداء (العطاء) والاستحانة (تحمل الظلم) في المقتنيات لمن لا ينبغي كما لا ينبغي ، أى أن الانظلام أن تتنازل عن حقوقك حيث لا ينبغي .

ولا شك ان الفضائل خاصة بالانسان دون الحيوان ، والانسان لا يستطيع وحده تحقيق الفضائل فهو لكى يكمل ذاته في حاجة الى معاونة أناس كثيرين من بنى جنسه وعلى ذلك خلق الانسان مدنياً بطبعه ، أى خلق محتاجاً الى مدينة من بنى جنسه يعيش فيها في تعاون تام معهم

حتى تتحقق له السعادة . فالإنسان مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم بالحسن ومحبتهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته ، وهم محتاجون اليه أيضا لانه يكمل انسانيته . فاجتماع الناس في حياة مدنية انما يؤدي بهم الى تحصيل الفضائل الانسانية . ولذلك يحمل ابن مسكويه على الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم ، « اما بملازمة المغارات في الجبال واما ببناء الصوامع في المفاوز واما بالسياحة في البلدان » لان مثل هؤلاء « لا يحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية ، ولا تظهر فيهم العفة ولا الجدة ولا العدالة » بل تصير قواهم وملكاتهم التي ركبت فيهم باطلا . فالمعزولون عن المجتمع والحياة الاجتماعية عند مسكويه ليسوا فضلاء وليسوا أعفاء وليسوا عادلين ، رغم انه يظن بهم الفضيلة والعفة والعدل . ذلك ان الناس يظنون ان هؤلاء فضلاء لانه لم يصدر عنهم رذائل أو ما يضاد الفضائل ، وهذا خطأ لان الفضيلة ليست ضدا ولا علما بل هي فعل ايجابي يظهر عند مشاركة الناس الحياة الاجتماعية ، وليس بالفاضل من يمتنع عن الرذائل فقط ، لان مجرد الامتناع عن الرذيلة لا يكون الفضيلة ، بل الفضيلة هي المشاركة الايجابية في الحياة حتى تكثر الخيرات وتتحقق السعادة .

ولكن اذا كانت هذه هي حال الفضائل ، فكيف يتكون الخلق الانساني الذي يؤدي اليها ؟ ذلك هو موضوع المقالة الثانية .

٢ - الخلق ماهيته وكيفية تكوينه

الخلق - فيما يروى مسكويه - حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية . وهذه الحال تنقسم الى قسمين : فيها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقل سبب ومنها ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب . أي أن السلوك الانساني يحتوي على عنصرين : عنصر طبيعي غريزي ، والآخر مكتسب بالعادة والمران .

وبعد أن يعرض لآراء العلماء كآرسطو وجالينوس ، وبعد بحثه لقضية ما اذا كان الخلق طبيعيا لا يمكن تغييره أو انه غير طبيعي يمكن تغييره بالمواظظ والتدريب ينضم الى هذا الرأي الأخير ، لان الأطفال ينشأون بحسب الاسلوب الذي ربوا عليه في المجتمع ، ولكن مع ذلك يختلف الأفراد في قبولهم الأخلاق الفاضلة اختلافا بينا ونجد منهم من هذه الناحية مراتب كثيرة ودرجات لا حصر لها ، اذ منهم « المتواني والممتنع

والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الأطراف . . . ، فالناس يتباينون فى ذلك حتى لنجد منهم من هو أقرب للحيوان فى تخلفه ومنهم من هو أقرب للملائكة ، وبين هذا وذاك مراتب لا حصر لها .

نستطيع اذن أن نقوم الخلق وان نكمله ، وان ننزع عنه الرذائل ، وتلك هى مهمة « صناعة الأخلاق » التى هى أفضل « الصناعات » ، اذ صناعة الأخلاق هى التى « تعنى بتجويد أفعال الانسان بما هو انسان » . ولكن ما هى الأسس التى تقوم عليها « صناعة الأخلاق » هنا يذكر مسكويه بعض المبادئ .

أولا : الغرض من علم الأخلاق الوصول بالانسان الى الكمال ، وكمال الانسان يختلف عن كمال المركبات الأخرى ، كالحيوان والنبات والجماد من حيث ان كماله تفكير وعمل . ذلك ان كمال الانسان كمالان ، كمال العلم وكمال العمل ، أو النظر والتطبيق ، ومهمة علم الأخلاق تنحصر فى الجانب العملى أى تقويم الخلق وتحقيق « الكمال الخلقى » فى الفرد بحيث لا تتصارع فى داخل نفسه القوى المختلفة وتصدر أفعاله كلها بحسب القوة العاقلة ، وينتهى علم الأخلاق الى « التدبير المدنى الذى يرتب الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم الى ذلك الانتظام ، ويسعدوا سعادة مشتركة كما كان ذلك فى الشخص الواحد » .

ثانيا : اللذات الحسية لما كانت مشتركة بين الانسان والحيوان فانها ليست اللذات الجديرة بالانسان ، بل اللذات العقلية التى يتميز بها الانسان عن سائر المخلوقات هى الجديرة بأن يبحث عنها .

ثالثا : يجب أن ينشأ الأطفال على السلوك السليم وفق برنامج يسير وفق ظهور قوى النفس فى الأطفال اذ أول ما يظهر النفس الشهوية ، ثم بعد ذلك النفس الغضبية وأخيرا النفس العاقلة . وبذلك وضع مسكويه برامج لتنشئة الأطفال على آداب الأكل والشرب والملبس (القوة الشهوية) وعلى الشجاعة والجرأة (النفس الغضبية) ثم على تحكيم العقل فى الأفعال (النفس الناطقة) .

فالأخلاق تستهدف الوصول بالانسان الى الكمال وهذا الكمال يؤدى به الى السعادة والى الخير ولكن ما السعادة وما الخير وما الفرق بينهما ؟ وهذا موضوع المقالة الثالثة .

٢ - السعادة والخير ، ماهيتهما

والنظام الخبير

هنا يعرض مسكويه لرأى أرسطو فى التفرقة بين الخير والسعادة .
اذ الخير ما يقصده الكل بالشوق فهو طبيعة تقصد لذاتها ، والخير له ذات وهو الخير العام للناس من حيث هم ناس فهم بأجمعهم مشتركون فيه ، أما السعادة فهي خير خاص بقرء ما ، فليس لها ذات معينة وهي تختلف بالاضافة لقاصديها من شخص لآخر . وعرض بعد ذلك لاختلاف الحكماء القدماء فى فكرتهم عن السعادة ، اذ ذهب بعضهم وعلى رأسهم أفلاطون الى أن السعادة تخص النفس وحدها دون البدن ، وعلى ذلك فلن تحدث سعادة للانسان طالما ظلت النفس متعلقة بالبدن . وانما تكون سعادة النفس بعد مفارقتها للبدن لان حاجات الجسم وافتقاره الى أشياء كثيرة تعوق النفس عن الحكمة والتأمل ، ووفق هذا الرأى لا سعادة للانسان الا بعد المات . وذهب فريق آخر من الفلاسفة وعلى رأسهم أرسطو الى أن السعادة تحدث للانسان مع اتصال النفس بالبدن وتختلف من شخص لآخر ، فالفقير يرى سعادته فى الثروة والمريض يرى أنها فى الصحة والذليل يرى انها فى السلطان والفاضل يرى السعادة فى افاضة المعروف على المستحقين . وكل تلك سعادات متى حصل عليها صاحبها فى الوقت المناسب وبالقدر المناسب ، وما كان منها مرادا للحصول على شىء آخر فذلك الشىء الآخر يكون أجدر بلفظ السعادة .

ويقف مسكويه موقفا وسطا بين هذين الرايين : اذ لما كان الانسان مكونا من روح وجسم ومادام الانسان انسانا فلا تتم له السعادة اذن الا بتحصيل السعادة الروحية والسعادة البدنية . والسعادة تكون على مرتبتين : المرتبة الأولى : أن يكون الشخص متعلقا بأحوال الأشياء الجسمانية سعيدا بها ولكنه مع ذلك يطالع الأمور الروحية مشتاقا اليها باحسا عنها ومتحركا نحوها . أما المرتبة الثانية فهي أن يكون الانسان متعلقا بالأشياء الروحية سعيدا بأحوالها العليا ، وهو مع ذلك يطالع الأمور البدنية معتبرا بها ، ناظرا فى علاقات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها . ولكن اذا قارنا فيما يرى مسكويه بين هاتين المرتبتين وجدنا أن المرتبة الأولى لا تخلو من الآلام والمنغصات والخسرات وهي أمور تلازم الأشياء الحسية التى تشغل الانسان عن السمو بروحه نحو الملاء الأعلى كلية . أما المرتبة الثانية فيكون الانسان فيها سعيدا سعادة تامة ، فانه وقد قطع كل صلة بالمحسوسات لن يتألم لشيء ولا لآى حادث ، وهو بانشغاله بعالم الروح سينتقل من حال الى حال (على طريق الصوفية) حتى يصل الى مرتبة الملائكة وذلك عن طريق العشق الالهى .

ولكن ما موقف فضائل العدالة والشجاعة والعفة من السعادة ؟
ذلك موضوع المقالة الرابعة من الكتاب .

٤ - السعادة في فضائل العدالة والشجاعة والعفة

السعادة لا شك تحدث لمن يقوم بممارسة الفضائل من العدالة والشجاعة والعفة وما يندرج تحتها من فضائل نوعية ، ولكن لكي تؤدي الفضائل الى السعادة لابد أن تكون مستهدفة بنية خالصة لا لأمور زائفة خارجة عنها . ففي حالة الشجاعة نجد أشخاصا - فيما يرى مسكويه - يتصرفون تصرف الشجعان وهم ليسوا كذلك كمن يقدم على الحرب والقتال لا لغرض الا لانه سينال من ذلك اجرا ، فانه يفعل هذا « بطبيعة الشره لا بطبيعة الفضيلة التي تدعى الشجاعة » . كما لا يعد كل من يقدم على الأموال شجاعا ولا كل من لا يخاف الفضائح . فالشجاعة هي الاقدام والصبر على الأهوال ومقاومة الشهوات حيث تجب هذه الأمور . على ان لذة الشجاع - على حد تعبير مسكويه - ليست تكون في مبادئ أمورهم فان مبادئ الأمور تكون مؤذية له ، ولكنها تكون في عواقب الأمور وتكون أيضا باقية مدة عمره وبعد عمره ، لاسيما اذا حامى عن دينه وعن اعتقاداته الصحيحة في وحدانية الله عز وجل ، والشريعة التي هي سياسة الله وسنته العادلة التي بها مصالح العباد في الدنيا والآخرة . والشجاعة تتعلق بالعفة ، فكل شجاع عفيف حكيم ، وكل حكيم شجاع عفيف . على ان هناك أفعالا تظهر صاحبها بمظهر العفة والسخاء وهو ليس كذلك . بل يتصنع ذلك للحصول على مزيد من المال أو الشهرة أو كمن يبذل المال في الشهوات ، وكذلك ليس بعادل من يعدل في بعض الأمور ليصل عن طريق ذلك الى المال أو الشهرة أو تحقيق شهوة من الشهوات لان العادل بالحقيقة هو الذي يعدل قواه وأفعاله وأمواله كلها ، حتى لا يزيد بعضها على بعض ، ثم يروم ذلك فيما هو خارج منه من المعاملات والكرامات ، ويقصد في جميع ذلك فضيلة العدالة نفسها لا غرضا آخر سواها . فالعدل اذن أن يعدل الفرد بين قواه وأفعاله المختلفة فلا يطغى مثلا القوة الشهوية على العقلية ولا على الغضبية ولا تطغى الغضبية على القوتين الآخرين . ثم يعدل في معاملاته مع الناس . والعدل مشتق من معنى المساواة والمساواة هي أشرف النسب الرياضية ، فالعدل مساواة ، فاذا تعذر إيجاد المساواة استخدمت النسب للوصول للعدل .

ثم يبين ان العدالة توجد في ثلاثة مواضع : قسمة الأموال وقسمة المعاملات في البيع والشراء ، ثم القسمة في حالة وقوع الجور والظلم .

ويبين مسكويه أسباب الظلم ويلخصها في أربعة وهي الشهوة والشر والخطأ والشقاء . ثم يقسم العدالة الى ثلاثة أقسام أحدها ما يقوم به الانسان لربه والثاني ما يقوم به للناس من أداء الحقوق والثالث ما يقوم به الانسان من تأدية التزامات أسلافه كأداء ديونهم وتنفيذ وصاياهم . ثم يبين أثر العدالة في سعادة الفرد والمجتمع ذاكرا رأى أفلاطون في هذا المعنى وكيف أن وظيفة السلطان والدولة هي العدل ومنع الظلم .

ويختتم مسكويه هذه المقالة بإشارته الى أن بعض العلماء يرون أن المحبة بين الناس هي أساس ضرورة العدالة ، فالعدالة إنما جعلت فضيلة لعدم وجود المحبة بين كل الناس . فلو سادت المحبة في العلاقات بين الأفراد لأنصف بعضهم بعضا وأحب لغيره ما يحب لنفسه . ومثل هؤلاء العلماء يرون أن فضيلة « التآحد » أي الحياة في مجتمع واحد هي أشرف غايات أهل المدينة ، فإذا أحب كل منهم الآخر واتحدوا سادت السعادة الجميع . وهذه الخاتمة للمقالة الرابعة ليست الا مدخلا للمقالة الخامسة التي يبحث فيها مسكويه ضرورة المجتمع البشري وحاجة الناس الى تكوين المجتمعات .

٥ - في الاتحاد وحاجة الناس

بعضهم لبعض

هنا يردد مسكويه نظرية أفلاطون من أن الانسان تلزمه كثير من الأشياء لكي يعيش ، وهو لا يستطيع تحقيق هذه الأشياء وحده ، لذلك كان الاجتماع ضروريا بين الناس لانهم يكملون بعضهم بعضا ، ولذلك أيضا قامت المحبة بينهم . والمحبة على أنواع : فمنها التي تنعقد سريعا وتنحل سريعا ، وتلك هي المحبة التي تؤدي اليها اللذة لأن اللذة سريعة التغير ، ثم المحبة التي تنعقد سريعا وتنحل ببطيئا ، وتلك هي المحبة التي تعقد بقصد تحقيق النافع من الأشياء والأمور ، ثم المحبة التي تنعقد ببطيئا وتنحل ببطيئا وتلك هي المحبة التي تعقد بقصد تحقيق الخير . وكل هذه الأنواع من العلاقات خاصة بالانسان لانها لا تتم الا بعد تفكير وروية . ثم يحلل مسكويه فكرة المحبة وأثرها في حياة الجماعة فيبين كيف أن الصداقة نوع من المحبة ولكنها محبة خاصة تقوم على الود ، بل هي الود نفسه ، وهي تقوم بين الأحداث لتحقيق اللذة أو المنفعة ، وتكون الصداقة بين الأخيار لتحقيق الخير . وكذلك العشق الالهي أو المحبة الالهية نوع من المحبة وتمثل شوق الجزء الالهي في الانسان الى الاتحاد بالذات

العليا التى هى من نفس جوهرها . وهذه المحبة هى المحبة فى الله وهى لا تكون الا بين الأخيار بينما المحبات الأخرى قد تكون بين الأشرار . والمحبة هى أساس الحياة الاجتماعية وما سمي الانسان انسانا الا لأنه يأنس الى أخيه الانسان ويجتمع به ويؤاخيهِ . وثمة صور كثيرة من المحبة ، كالمحبة بين السلطان والمحكومين وبين الولد والوالد وبين طالب الحكمة ومعلمها ومحبة العبد لحالقه . ويعرض مسكويه لكل من هذه العلاقات وما قد يطرأ عليها من مفسد وظروف التى تجعل منها علاقات حسنة توطد حياة الفرد والجماعة . ثم يتكلم عن الذين يغشون المحبة والصدقة مبينا ان ضررهم أكبر بكثير من ضرر الذين يغشون الدرهم والدينار ، ثم يوجه نصحه للأفراد ، فمثلا فى حالة الصدقة يجب أن يكتر الفرد من مراعاة صديقه ولا يستهين بالقليل فى حقه عند مهم يعرض له أو حادث يحدث به ، وعلى ذلك فللصدقة التزامات يجب أن يقوم الفرد بها ، ومن هنا يجب على الانسان ألا يكتر من الصدقات الا بالقدر الذى تحتمله ظروفه وبالقدر الذى يستطيع فيه أن يفي بحاجاتها ، لأن كثرة الصدقات مع عدم القدرة على الايفاء بالتزاماتها يحولها الى عداوات .

ويطلب مسكويه فى وصف التزامات الصديق نحو صديقه . ولكن هل يقتصر الانسان على الصدقة ؟ لا ، بل لابد أن يصل الى الصدقة الالهية والعشق الالهى وهو أسمى أنواع المحبة .

(٦ - ٧) الوقاية . . والعلاج

فى هاتين المقالتين يبحث مسكويه فى تشخيص بعض الأمراض النفسية والاجتماعية والوقاية منها وعلاجها . وهاتان المقالتان ليستا الا نوعا من التربية للنفس . وفى المقالة السادسة يوجه النظر الى أن الصحة النفسية تستلزم أن يعمل الانسان فكره لأنه لو عطل نفسه عن التفكير فإن هذا يؤدى بها الى البلادة . « ومما يؤخذ به من يحفظ صحة نفسه أن يلتزم وظيفة من الجزء النظرى والعملى ، لا يجوز له الاخلال بها البتة ، لتجرى النفس مجرى الرياضة التى تلزم فى حفظ صحة البدن ، وأطباء النفوس أشد تعظيما لها فى حفظ صحة النفس . وذلك ان النفس متى تعطلت عن النظر وعدمت الفكر والغوص على المعانى ، تبلدت وتبلهت وانقطعت عنها مادة كل خير . واذا أفت الكسل وتبرمت بالروية واختارت العطلة ، قرب هلاكها لان فى عطلتها هذه انسلاخا من صورتها الأصلية ورجوعا منها الى رتبة البهائم . . . » واذا كان من الضرورى تقوية القوة العاقلة المفكرة فان من الضرورى كذلك الاقتصاد فى الأكل والشرب وعدم المبالغة فيهما لان الانسان جبل على المبالغة فى اللذات الجسمية ، بينما

الذات العقلية خير وأبقى وتؤدي الى سعادة أكثر . فالذى يفكر ويروض نفسه على التفكير يصل الى لذائذ لا يصل اليها أغنى الناس بالمال والسلطان أو الملوك . وليتخذ الانسان من القوت الضرورى جدا لحفظ حياته وصحته ولا يثير رغباته الشهوية : ويجب أن يستعد المرء دائما لمجاهدة النفس الشهوية والغضبية كمن يستعد لحرب أو للتغلب على أعداء بالعدة والعتاد والتحصن . ذلك هو الجانب الوقائى للأمراض النفسية . أما الجانب العلاجى فهو موضوع المقالة السابعة والأخيرة . ويعدد الأمراض النفسية والاجتماعية بادئا من الفضائل التى - كما ذكرنا - ليست الا أوساطا بين طرفين ، وكل من الطرفين يعد شرا . ولما كانت الفضائل أربع هى الشجاعة والعفة والحكمة والعدل ولما كانت كل فضيلة وسطا لطرفين مردولين فان عدد الرذائل يكون ثمانية وهى التهور والجبن وهما طرفا الشجاعة ، والشر والخمول وهما طرفا العفة ، والسفه والبله وهما طرفا الحكمة والجور والمهانة أو الظلم والانظلام وهما طرفا العدالة .

ويستعرض مسكويه هذه الرذائل واحدة واحدة فيبين سببها ومظاهرها ويبين السبيل الى الخلاص منها فالتهور مثلا سببه الغضب الذى يأتى من اعتلال النفس الغضبية وذلك فى حالة المزاج الحاد اليابس الذى يثور لأنفه الأسباب . أما الأسباب المولدة للغضب فهى العجب والافتخار والمراء واللجاج (٢) والمزاج والتهيه والاستهزاء والغدر والضيم وطلب الأمور اللذيذة التى يتنافس عليها الناس ويتحاسدون . . . ويتناول مسكويه ما تؤدي اليه هذه الرذائل من رذائل أخرى ويبين خطرها فى حياة الجماعة . والعلاج فى ترويض النفس وتمارينها أو مجاهدتها حتى تصير فى حدود عادية ، وفى حالة التهور تمرن النفس الغضبية حتى لا تثور لأنفه الأسباب وحتى تخلد للحلم ، أما فى حالة الجبن فنجد النفس الغضبية بالعكس فى حاجة الى أن تستيقظ وتقوى بحيث « توقظ النفس التى تمرض بهذا المرض بالهز والتحريك » فمثلا يحكى عن بعض الفلاسفة انه كان يعتمد مواطن الخوف فيقف فيها ويحمل نفسه على المخاطر العظيمة بالتعرض لها ويركب البحر عند اضطرابه ليعود نفسه الثبات فى المخاوف . بالتمرين اذن والمجاهدة والمجادة العملية يصل الانسان الى علاج نفسه من هذه الأمراض وما يتبعها من عوارض .

اهمية كتاب التهذيب فى تقويم الأخلاق فى كل العصور

يقول مسكويه فى غرضه من تأليف هذا الكتاب :
« ان غرضنا أن نحصل لانفسنا خلقا تصدر به عنا الأفعال كلها

جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي . والطريق في ذلك ان نعرف أولا نفوسنا : ما هي وأهم شيء هي ولأي شيء أوجلت فينا ؟ أعنى كمالها وغايتها وقواها وملكاتنا التي استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه المرتبة العلية . وما الأشياء العاتقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتفلسح وما الذي يدنسها فتخيب ؟ » .

اذن فان أهمية هذا الكتاب ترجع الى تقويم الأخلاق والسلوك على أساس دراسة علمية سليمة وفق المستوى الذي وصلت اليه العلوم آنذاك . والواقع أن كتاب التهذيب يمثل العصر الذي وجد فيه أصدق تمثيل ، ففي ذلك العصر كان تيار الترف شديدا جارفا عند طبقات الأمراء والخلفاء من يتصلون بهم الى جانب البؤس الشديد لكثير من من الطبقات الأخرى . وأدى الترف والاناقة الى خلق قوانين متعارفة لكل شيء وألفت في ذلك الكتب المطولة ، فألفوا في « حدود الظرف » وما يقدم من الأطعمة وما يؤخر و « آداب الحمام » و « آداب الزينة » وطريقة معاملة الأمراء والخلفاء . . . ومن أمثلة ذلك كتب « مرآة المروءات » و « مكارم الأخلاق » و « اللطائف والظرائف » و « العقد النفيس في نزهة الجليس » للشعالبي النيسابوري . أي أن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في هذا العصر كانت محل دراسة ومؤلفات تؤلف على نهج علمي لتحديداتها . ولاشك ان علم الأخلاق على رأس الدراسات التي تحدد علاقة الفرد بغيره من أفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم ، فكان هو الآخر محل دراسة الكثير من العلماء المعاصرين لمسكويه .

ومسكويه يعرض في كتابه « تهذيب الأخلاق » بشكل متضمن حيناً صريح حيناً آخر الأمراض الأخلاقية التي انتشرت في عصره من العجب والخيلاء عند بعض الأمراء والملوك والكراهية التي انتشرت بين بعض الطبقات والحسد والغيرة والمشاحنات ، لأن عصره كان عصر تنافس بين عناصر الدولة من ترك و فرس وعرب ، بل وتنافس بين أمراء كل عنصر من هذه العناصر . وكان ثمة حقد دفين بين الطبقات لان ثروات الأمراء في الدولة البويهية وغيرها وصلت الى أرقام خيالية بينما الطبقات الأخرى ومنها طبقة العلماء كانوا لا يجدون ما يسدون به رمقهم !!

كل هذه الأحوال نتجت عنها أمراض اجتماعية ونفسية خطيرة تفشت في المجتمع آنذاك الى جانب التنافس والتناحر على السلطة والمراكز ، وهذا ما عالج مسكويه في كتابه في أكثر من مقال ومطلب . والى جانب المشكلات النفسية والاجتماعية يعالج مسكويه قواعد علاقات الأفراد بينهم ببعض في شتى دقائقها .

واذا كنا قد قلنا ان فى فلسفة مسكويه الخلقية نزعة واقعية عملية مستفادة من تجاربه الشخصية ، فاننا نود ذكر عهده الذى عاهد نفسه وربّه عليه ، وهو العهد الذى نجده مذكورا فى « معجم الأدباء » لياقوت . وفى كتاب « المقابسات » للتوحيدى . وقد يكون فى هذا العهد من جانب مسكويه رد على انحطاط الأخلاق فى عصره انحطاطا كبيرا .

يقول مسكويه : « هذا ما عاهد عليه الله فلان ، وهو يومئذ آمن فى سربه معافى فى جسمه . عنده قوت يومه لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ، فلا يوالى مخلوقا ، ولا يستجلب منفعة من الناس ، ولا يستدفع مضرتهم . عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ما استطاع ، فيعف ويشجع ويحكم . علامة عفقه ان يقتصد فى مأرب بدنه حتى لا يحمله السرف على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته . وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره قبيحة ، ولا غضب فى غير موضعه . وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة . وعلى ان يتمسك بهذه التذكرة ، ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها . وهى خمسة عشر بابا هى :

- ١ - ايثار الخير على الشر فى الأفعال والحق على الباطل فى الاعتقادات والصدق على الكذب فى الأقوال .
- ٢ - ذكر السعادة وان تحصيلها يكون باختيار دائما . وكثرة الجهاد الدائم لاجل الحرب الدائمة بين المرء ونفسه .
- ٣ - التمسك بالشرعية ولزوم وظائفها .
- ٤ - حفظ المواعيد حتى أنجزها وأول ذلك ما بينى وبين الله عز وجل .
- ٥ - قلة الثقة بالناس . بترك الاسترسال
- ٦ - محبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك .
- ٧ - الصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل .
- ٨ - حفظ الحال التى تحصل بشيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال .
- ٩ - الاقدام على كل ما كان صوابا .
- ١٠ - الاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره .
- ١١ - ترك الخوف من الموت والفقر بعمل ما ينبغى وترك الدنية .

١٢- ترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم والانفعال لهم .

١٣- حسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان بجهة وجهة .

١٤- ذكر المرض وقت الصحة ، والههم وقت السرور ، والرضى عند الغضب ليقبل الطغى والبغى .

١٥- قوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله تعالى وصرف جميع البال اليه .

فاذا يسر الله تعالى له اصلاح نفسه بما جاهد عليه تفرغ بعد ذلك الى اصلاح غيره . وعلامة ذلك ان لا يبخل على أحد بنصيحة ولا يمنع أحدا رتبة يستحقها ولا يستبد دون الاخيار بما يتسع له . فاذا أكمل الله له ذلك ورفع عنه العوائق والموانع ، وبلغه ما فى نفسه من هذه الفضائل لبصير بها من أوليائه الفائزين وأنصاره الغالبين وعباده المؤمنين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقد استجاب له بحمده الى كل ما دعاه به ووثق بعد ذلك من جانبه الى كل ما وكله الى جوده من اعطائه مالا يحسن ان يرغب فيه ، واعادته مما لا يحسن أن يستعين منه . وهو حسبه وعليه توكل ولا قوة الا به ، .

هذا وقد امتدح الطوسى (٣) كتاب التهذيب لمسكويه فقال :

بنفسى كتابا حاز كل فضيلة

وصار لتكميل البرية ضامنا

مؤلفه قد أبرز الحق خالصا

بتأليفه بعد ما كان كامنا

ووسمه باسم الطهارة قاضيا

به حق معناه ولم يك مائنا

لقب بل المجهود لله دره

فما كان فى نصح الغلائق خانيا

هوامش

(١) دولة بني بويه : (٩٤٥ - ١٠٥٥ م) من الدويلات الكثيرة التي انقسمت اليها الدولة الاسلامية في أيام ضعفها .

(٢) اللجاج : التماذى في العناد الى الفعل المزجور عنه .

(٣) الطوسى : نصير الدين الطوسى (١٢٠١ - ١٢٧٤ م) فيلسوف فارسي له شأن كبير فى العلوم الفلسفية والرياضيات والفلك . كانت له منزلة كبيرة فى تاريخ الحياة العقلية الاسلامية عند الفرس .

رسالة الغفران
أبو العلاء المعري
١٠٢١ م

تنفرد «رسالة الغفران» بمكانة خاصة ، نقلتها من نطاق الأدب العربي الى النطاق العالمى .

وحتى القرن الثالث عشر الميلادى ، لم يكن المعروف عنها يتجاوز كلمات قصارا ذكرها مؤرخوه فى ترجمته . وقد اكتفى «القفطى» فى انباء الرواة باثباتها فى فهرست مصنفاته بين « رسائله الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة » وكذلك فعل « سبط بن الجوزى » فى مرآة الزمان فذكرها بين « المصنفات الحسان لأبى العلاء » و « أبو القاسم الكلاعى المغربى » الذى أشار اليها فى أحكام صنعة الكلام ، بين رسائله « التى لها بال » .

ولكن فى القرن التاسع عشر ، بدأ اسم رسالة الغفران يتردد فى الأوساط الأدبية بأوربا ، مقترنا بالكوميديا الالهية لدانتى ، على سبيل ملح شبیه بينهما أولا ، ثم على سبيل المقارنة المنتهية الى أن دانتى متأثر بأبى العلاء ، وقد يكون قلده وأخذ عنه !

لكن نص الرسالة لم يعرف على صورة ما ، حتى شهر يوليو عام ١٨٩٩ ، حين نشر المستشرق الانجليزى « نيكلسون » فى « المجلة الآسيوية الملكية : J.R.A.S. » انه ظفر بمخطوطات عربية ، أهمها رسالة الغفران ، كانت فى حوزة المستشرق « شكسبير » ثم قدم فى عام ١٩٠٠ وصفا للمخطوط وترجمة ملخصة للجزء الأول من الرسالة مع الأصل العربى لكثير من أشعاره وفقراته . وفى عام ١٩٠٢ نشر نيكلسون ملخص القسم الثانى مترجما مع الأصل العربى .

وكان ما نشره نيكلسون هو النص الذى رجع اليه المستشرق الأسباني « ميجويل أسين بلاسيوس » فى دراسته لرسالة الغفران مع أصول اسلامية وغيرها . وقد نشر هذه الدراسة بالاسبانية فى مدريد عام ١٩١٩

بعنوان *La Escatologia Musulmana en la Divina* وت ترجمه سندر لاند الى الانجليزية بعنوان : الاسلام والكوميديا الالهية :

«Islam and The Divin Comedy» وطبع فى لندن عام ١٩٢٦ .

وفى هذا الكتاب قرر بلاسيوس بعد دراسة واسعة متخصصة استغرقت ربع قرن : « أن أصولا اسلامية من بينها رسالة الغفران ، قد كونت أسس الكوميديا الالهية » . وقد ترجم بلاسيوس فصولا من الغفران ، قابلها على نصوص من الكوميديا الالهية .

وأحدث الكتاب دويا فى العالم الأوربي ، وأخذت رسالة الغفران من ذلك الحين ، مكانها فى دراسات المستشرقين ، وتتابعت البحوث والمقالات الخاصة بها ، تأييدا لنظرية أسين بلاسيوس أو معارضة لها . وفى عام ١٩٤٩ نشرت مكتبة الرسل بالفاتيكان فى روما كتابا للمستشرق الايطالى « تشيرونلى » عنوانه : كتاب السلم – يعنى المعراج – ومسألة المنابع العربية الاسبانية للكوميديا الالهية .

وفى هذا الكتاب يؤيد تشيرونلى نظرية بلاسيوس بنشر نصوص اسلامية ، وجدت مترجمة الى اللاتينية والفرنسية فى المكتبة الأوربية قبل دانتي ، وذيل هذه النصوص بفصل خاص عن « دانتي والاسلام » فيه كلام على تأثر دانتي بالغفران ، والمعراج وغيرهما من الآثار الاسلامية التى نقلت الى أوربا عن طريق اسبانيا .

وكان لهذه الشهرة العالمية لرسالة الغفران ، صداها فى الشرق ، وكما حدث فى أوربا ، بدأ اسم الرسالة يتردد مقترنا بكوميديا دانتي على سبيل التشبيه ، ثم على سبيل المقارنة والقول بالأخذ والاقتباس .

ففى عام ١٩٠٤ ظهرت ترجمة البستاني لاليادة هومير ، وفى مقدمتها يقول : « وان من أحسن ملاحم المولدين ، ملحمة نثرية جمع فيها صاحبها ستييت المعانى وأوغل فى التصور حتى سبق دانتي الشاعر الايطالى ، وملتن الانجليزى ، الى بعض تخيلاتهما » . ألا وهى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى .

ثم نشر جورجى زيدان كتاب تاريخ الآداب العربية ، وفيه يقول عن أبى العلاء فى الغفران : « فتخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ما شاهده هناك ، كما فعل دانتي شاعر الطليان فى الرواية الالهية ، وما فعل ملتن الانجليزى فى الفردوس المفقود ، لكن أبى العلاء سبقهما ببضعة قرون ، فلا بدع اذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه . وأقدمهما دانتي ، لم يظهر الا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين ، والايطاليون أسبق الافرنج الى ذلك » .

وقال الدكتور طه حسين فى رسالته عن أبى العلاء :

« والفرنج يشبهونها – رسالة الغفران – بكتاب دانتي الطليانى الذى سماه La comedia Divina وكتاب ملتن الانجليزى الذى سماه الجنة الضائعة » .

وقرر الأستاذ محمد كرد علي « أن أعمى المعرة كان معلما لنا بغة
إيطاليا في الشعر والخيال » (٢) ومن بعده قال الميمنى : « ... وما ملتن
الانجليزى صاحب الفردوس الغابر الا من الاتباع .. ومثله شاعر الطليان
دانتي في كتابه - الكوميديا الالهية - بيد انا أهل المشرق لم نحتفظ بمآثر
أسلافنا ولم نؤمنها من بوائق الضياع » (٣) .

صاحب الرسالة

ولكن .. ماذا عن صاحب رسالة الغفران ؟ .

انه أبو العلاء ، أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي .

ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، في ٣ من ربيع الأول ٣٦٣هـ .
وينتمى الى قبيلة تنوخ « وهي من أكثر العرب مناقب وحسبا ومن أعظمها
مفاخر وأدبا » وقد تزحت جماعة منها الى المعرة من قديم . فكان منهم بنو
سليمان ، أجداد أبي العلاء ، وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب :
« وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها من بنى سليمان
ابن داود بن المطهر » .

وبدا خطوته على الطريق المهيأ لمثله ، مرجوا لمستقبل مرموق .
بما تلقى من ميراث سلالة العريقة في الفضل والعزة والعلم والأدب .

ولكنه ابتلى بصدمة فادحة قبل أن تستقيم خطوته على الدرب : اعتل
في سنته الرابعة علة الجدرى ، فما برىء منها إلا بعد ان شوهدت وجهه
بندوب لا برء منها ، وذهبت بنور بصره فاسدلت بينه وبين الدنيا حجابا
أسود لا أمل في انحساره حتى آخر العمر .

ومن ذلك الحادث الملم ، في الطفولة الباكرة ، بدأت رحلة أبي العلاء
في هذه الدنيا وقصته معها .

ولكن لم تقل هذه الكارثة من حد عزيمة المعري ولم تشبطه عن
التطلع الى أعالي الأمور واستجلاء غوامض الفنون ، وآزره على نوال بغيته
ذكاءه المفرط وحافظته النادرة وعقله الجبار مع ذلك الطبع الذي يكاد
يسيل رقة وصفاء .

فقد قرأ القرآن على أئمة من شيوخ القراءات ، وسمع الحديث من
أبيه وجده وجدته ، وجماعة من محدثي بلده في زمانه . وتلقى علوم
العربية على أبيه ، وعلى جماعة من أصحاب « ابن خالويه » (٤) فظهر من

مخايل نجبته وفطنته ما جعل أباه يمضى به الى حلب حيث تلقى النحو
على امام العربية فى حلب : محمد بن عبد الله بن سعد النحوى ، راوية
الشاعر أبى الطيب المتنبى .

ومن عهد صباه الغض ، ظن أبو العلاء انه اهتدى الى سلاحه فى
معركة الوجود ، وعرف طريقه على الدرب : مواهبه تعوضه عن عجزه ،
ونور العلم يمنحه الضياء .

وفى اعتداد واصرار صمم على ان يتحدى محنته ويشق سبيله
لا يعوقه فقد البصر ، ويلغ المدى فى مكابرتة ، فرثى فى صباه يلعب النرد
والشطرنج ويأخذ فى فنون الجد واللهو كما يفعل لداته المبصرون !
وبدا كأن الدنيا لا تتسع له ، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه :

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم
باخفاء شمس ضوءها متكامل
يهم الليالى بعض ما أنا مضمر
ويشعل رضوى دون ما أنا حامل
وانى وان كنت الاخير زمانه
لأت بما لم تستطعه الاوائل
« سقط الزند »

وأمل له القدر حيناً ، فمضى فى شببته على غلوائه ، يبهز أهل بلده
بنادر ذكائه وسعة علمه ومواتاة شاعريته ، ويسرف فى أخذ نفسه بالتفتح
للدنيا والاقبال على الحياة مع الولع بالعلم والجد فى طلبه .

وما كان فى لطف حسه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته ، بحيث
يغيب عنه عقم هذه المكابرة فى تحدى محنته ومعاودة قدره ، وقد افلست
منه ، فى ذلك العهد ، ومضات كاشفة عن عالمه النفسى المجهد بالصراع
بين شد الطموح وعجز الوسيلة ، بين ارادة الحياة وخيبة الرجاء .

وفيما هو حائر بين اليأس والامل ، مات أبوه سنة ٣٩٥ هـ فنفذت
الطعنة الى صميم كيانه ، وفقد الشاب الضريع من كان له أبا وصديقاً
وقائدا ومرشدا . فتركته اللطمة فى مهب الريح لا يقر له قرار .

كان حين تلقى اللطمة فى الثانية والثلاثين من عمره .

وفى غربته النفسية ، اتجه تفكيره الى بغداد ، عاصمة الدنيا آنذاك ،
فشد الرحال ليجد نفسه فى دوامة الموج الهادر لمجتمع العاصمة .

لماذا ألقى بنفسه ، وهو الضريح المستطيع بغيره ، فى ذلك الخضم
النهادر ؟

وماذا لقي فى العاصمة الكبرى من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت
به الى اصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ؟

ظاهر الأمر أنه بعد أن بهر اقليم حلب بعلمه وأدبه ، أحب المقام
« بدار العلم لمكان دار الكتب بها » كما قال فى رسالته الى أهل المعرة عند
منصرفه من العراق عائدا الى بلده .

ولكن وراء هذا السبب الصريح الظاهر ، عاملا خفيا فى أعماق
وجدانه : كانت الأيام قد أنضجت وعيه لذاته ، وكشفت له عن عقم مكابرتة ،
لكنه ظل يقاوم دواعى القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما اراد
من تحدى الدنيا و « معاندة القدر » . حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم
معركته بالسفر الى بغداد ، ليلو طاقته على المضى فى المقاومة والمعاندة .

وأغلب الظن انه صفى قبل الرحلة حسابه مع طموحه ، فلم يستبق
منه الا الأمل فى المجد العلمى والجاه الأدبى . واذا كان قد ظفر فى اقليم
حلب والشام ، بشهرة بعيدة المدى ، فقد بقى أن تعترف به العاصمة .
فشد رحاله اليها يحدوه رجاء فى أن يفر من الهزيمة التى أحس بوادرها
فى أعماق وجدانه وأمل فى أن يفرض وجوده على الدنيا والناس .

وتزود للرحلة بأسلحته التى يملكها : ذكاء شبه اسطورى ، وفقه
عميق لعلوم العربية والاسلام ، وموهبة أدبية أصيلة متنوعة .

ولكن أبا العلاء صدم فى بغداد حين وجد أن معركة وجوده فى
العاصمة الكبرى تحتاج الى أسلحة أخرى لا يملكها من الدهاء والمكر
والحيلة والنفاق !

كانت رحلة حاسمة ، فصلت ما بين شطرين متميزين من حياته :
ذهب الى بغداد متفتح الأمل بعيد الطموح ، وانسحب منها بعد عام وبعض
عام ، منكسر القلب مهزوما ، فلزم بيته فى المعرة ، وقد صمم على أن يعتزل
الدنيا والناس ، وعاش رهين محبسيه - العمی والعزلة - نحو نصف قرن ،
يقاوم حبه للدنيا فى بسالة ، ويروض بشريته على أقسى ضروب الحرمان ،
حتى أراحه الموت فى عام ٤٤٩ هـ من محنة الوجود وهم المكابدة .

وبعد .. فان يكن أبو العلاء قد امتحن بعمى البصر ، فقد بقى
له نور البصيرة .

وان يكن قد عاش فى سجن موصد ، فقد أرهفت العزلة وجدانه ،
ومنحته صفاء الذهن ووضوح الرؤية ، فكان البصير الذى خبر الدنيا كما
لم يخبرها الغارقون الى أذقانهم فى خضمها ، المعتزل الذى خاض معركة
الحياة كما لم يخضها الضاربون فى غمارها .

والى آخر عمره . ظل يخوض معركته الشريفة الباسلة فى مجاهدة
شغفه بالدنيا وتعلقه بها ، وفى رفض الظلم والبغى والتضليل والاثرة
والنفاق .

اضاءة لما حول الرسالة

اننا نحتاج قبل أن نقدم رسالة الغفران ، ان نسوق قبلها اضاءة حول ظروف الزمان والمكان ، وحال أبي العلاء عندما تلقى رسالة ابن القارح وأملى رده عليها .

ورسالة الغفران أملت في أخريات الربع الأول من القرن الخامس الهجري ، فهي من آثار أبي العلاء في الشطر الثاني من حياته . أملاها في صميم عزلته بمعرة النعمان ، وقد بلغ الستين من عمره ، ومضى على عودته من بغداد مهزوما مهيض الجناح ، نحو ربع قرن من الزمان ، انطوى فيه على نفسه محزونا ، يروضها على الصبر والاحتمال ، ويغريها براحة اليأس بعد أن تعب من الدنيا .

وقد أنضجته هذه السنون الطوال ، وأرهفت العزلة حدسه ووجدانه ، وأوغل في النفاذ الى أعماق نفسه ، فأنكشف له المطوى من همومه وأشواقه وجراحه لطول ما أصغى الى نبض وجدانه ، وتمزقت حجب الوهم والمداراة ، فاذا راحة اليأس قد عزت عليه بعد ان عزت عابه قبلها نعمة الأمل ، واذا الانصراف النفسى عن الدنيا ، بعيد المنال . .

وكان هو يملئها ، شيخا قطع مراحل الصبا والشباب والكهولة . وأشرف على الشوط الأخير من رحلة الدنيا ، فاتجهت نفسه الى التأمل الطويل فى مصير الانسان .

أما لماذا أملاها ؟ فظاهر الأمر انها كتبت ردا على رسالة بعث بها اليه أديب حلبى من معاصريه . وهذا يقتضى أن نعرف الأسباب التى دفعت ابن القارح الى كتابة رسالته . و « ابن العديم » قد ذكر سببا منها ، هو ما بلغه من أن أبا العلاء قال ، لما ذكر له ابن القارح : « هذا الذى هجا أبا القاسم بن المغربى » . ونقر رساله ابن القارح فتزيد هذا الموقف بيانا ، وتقدم سببين هما :

أولهما : أن « أبا الفرج الزهرجى : كاتب نصر الدولة » كان قد كتب رسالة الى أبى العلاء وسأل ابن القارح ايصالها اليه . فسرق رجل له فيه هذه الرسالة ، فوجب الاعتذار عن ضياعها .

والثانى : ان ابن القارح سمع انه ذكر لأبى العلاء ، فلم يعرفه الا بهجائه لأبى القاسم بن الوزير المغربى . وابن القارح قد كان صنيعة آل المغربى ، وطالما غمروه بنعمتهم حين كانت الدنيا لهم . فهجاؤه أبا القاسم ، بعد أن دارت الدنيا عليهم ، ظاهرة غدر وجحود ، تنم عن لؤم النفس وشر الطبع . وقد فطن ابن القارح الى ما تبدل عليه عبارة أبى العلاء ، عن سوء رأيه فيه ، فكتب رسالته يبرر هجاءه لأبى القاسم ويعبر عن ارتياعه من أن يستشر أبو العلاء طبعه فيقول :

« بلغنى مولاى الشيخ أدام الله تأييده انه قال وقد ذكرت له : أعرفه خبرا هو الذى هجا أبا القاسم على بن الحسين المغربى ! فذلك منه - أدام الله عزه - رائع لى ، خوفا أن يستشر طبعى وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر » .

وفى ضوء هذا نفهم لم استهل أبو العلاء رده على ابن القارح ، بمقدمة سيطر عليها جو السواد - على ما سنشير اليه بعد - كما نفهم ما فى القسم الثانى من الرسالة ، من فصول ساخرة عن النفاق ، وعن توبه ابن القارح وحججه الخمس !

وتعطينا رسالة ابن القارح سببا آخر لكتابتها ، فمنها نعلم ان الرجل بعد أن جاوز السبعين من عمره ، وتعب من الرحلة والسعى والنضال ، أحب أن يريح شيخوخته بالاستقرار فى بلده « حلب » . ومن ثم حرص على أن يتصل الود بينه وبين شيخ المعرة : أديب العصر وامام العربية فى الشام . ولم يكن بين الاثنين سابق تعارف أو لقاء . فأحب ابن القارح أن يقدم نفسه الى شيخ المعرة . فى رسالة اخوانية مطولة ، يبدو فيها الحرص على الاعلان عن بضاعته من اللغة والأخبار ، ومحفوظه من الأشعار ، والتحدث عمن لقى من أعلام العصر وشيوخ العربية .

وذلك أيضا مما يفسر لنا حرص أبى العلاء على التفنن فى أماليه العربية والأدبية ، جريا على عادة أدباء عصره فى رسائلهم الاخوانية التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، وردا على ابن القارح بما يبهره ويرده الى شئ من التواضع !

على انه لم يكد يبدأ املاء جوابه ، حتى انصرف عن رسالة صاحبه ، فى رؤيا عجيبة من رؤى اليقظة ، انطلق به فيها الى عالم آخر تمثل فيه جنته وناره ، ثم آب من رؤياه ، ليستأنف الرد على ما فى رسالة ابن القارح .

الرسالة

ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري تتكون من مقدمة وقسمين رئيسيين :

المقدمة الثعبانية !!

والمقدمة في جملتها ، من الأمالي اللغوية والأدبية ، وقد ساقها أبو العلاء بأسلوب الألفاظ وهو فن بديعي ولع به أصحاب الصنعة الأدبية في عصره .

ففي مستهل الرسالة ، أراد أبو العلاء أن يعرب عما يغمر قلبه من الود لابن القارح ، فاختر أن يلغز عن ذلك بأن الله يعلم أن في مسكنه حماسة - وهي شجرة تألفها الحيات - تضر له من الود ما لا تضره أم لولدها ، سواء أكانت من ذوات السم أو من غيرهن ! ومضى فألغز عن القلب بالخصب - وهو ذكر الحيات - وبالأسود وهو الثعبان ! مفسرا للغز في كل مرة ، ومعقبا عليه بحديث لغوي وشواهد من الشعر ، في الحماسة والخصب والأسود وأبي الأسود ، وسودة وسودة والأسودين !

وتعلق د. عائشة عبد الرحمن (5) على هذه المقدمة بقولها : « لا اذكر ان أحدا من الدارسين قد التفت قبل اليوم ، الى هذه المقدمة الثعبانية السوداء ! وانما شغلنا بتفسير ألفاظها ، والاستدلال بها على براعة أبي العلاء وثراء معجمه اللغوي ، وعن فهم عالمه النفسي وهو يلقي صاحبه بمثل هذه التحية التي لا نعرف لها نظيرا في الرسائل الإخوانية .. »

والواقع أن أبا العلاء أصغى الى رسالة ابن القارح ، وهو ضيق النفس بما فيها من ملق ونفاق وخبث مشمئز من اسرافه في ذم أبي القاسم المغربي تبريرا لهجائه اياه بعد أن تنكرت له الدنيا . فلما بدأ يملئ رده ، صبر فيه عن وجدان منفعلي بهذا الإشمئزاز والضيق ، فجاء جو المقدمة

مشحونا بالحيات فى نعومتها السامة ، وفى تلويها وتسللها وتبديلها
لجلودها مع دورة الفصول ، ثم بهذا السواد الذى شارك السم والحيات
فى السيطرة على جو المقدمة :

القسم الأول

ويبدأ القسم الأول من رسالة الغفران ، بخبر عن وصول رسالة
ابن القارح ، المفتحة بتمجيد الله ، ومن هذا التمجيد ، كان المنطلق الى
العالم الآخر ، ففى قدرته تعالى أن يجعل كل حرف من كلمات ابن القارح
فى تمجيده ، معراجا من نور يعرج بالشيخ - ابن القارح - الى على
السموات . وقد غرس له بفضل هذا الكلم الطيب ، شجر فى الجنة ،
يجلس الشيخ فى ظله مع من اصطفى من ندامى الفردوس ، وكلهم من
علماء اللغة ورواة الشعر (هم : المبرد ، وابن دريد ، ويونس بن حبيب ،
والاخفش ، وثلعب ، وسيبويه ، والكسائي ، وأبو عبيدة ، والأصمعى) .
وهم بالمجلس يتذكرون ويتناشدون الأشعار ، والولدان المخلدون قيام
وقعود فى خدمتهم ، والكئوس من الفضة والذهب والأباريق من صنوف
الجوهر ، يغترفون بها الشراب من أنهار خمر الجنة وعسلها المصفى .
واذ يذكر الندامى ما قال شعراء الدنيا الفانية ، فى الخمر ونشوتها
وكئوسها وأباريقها ، يجىء ذكر الأعشى ، فيتمنون لو انه كان بينهم
يطربهم بشعره ، فلا يكادون يعربون عن هذه الامنية حتى يمثل أمامهم
« الاعشى » شابا أحور العينين ! ويعجبون لوجوده فى الجنة وقد مات
كافرا وأقر على نفسه بالفاحشة ، ويسألونه : بم غفر له ؟ فيجيب بأن
قصيدته الدالية التى نظمها فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد
شفعت له فأدخل الجنة على ألا يشرب خمرا ، لأنه كان فى طريقه الى
الرسول ، ليسلم وينشده القصيدة ، فصدمته قریش .

وينظر « ابن القارح » فى رياض الجنة فىرى قصرين منيفين ، عليهما
لافتتان باسم «عبيد بن الأبرص» و «زهير بن أبى سلمى» ، واذا يسألهما :
بم غفر لهما وقد ماتا فى الجاهلية ؟ يجيب عبيد انه نال ثواب بيته :

فلا تكتن الله ما فى نفوسكم

ليخفى ، ومهما يكتن الله يعلم

يؤخر ، فيوضع فى كتاب ، فيدخر

ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

ويسأل ابن القارح عبيد بن الأبرص عن « عدى بن زيد » فيدله عليه فيلقاه ويسأله : بم غفر له ؟ فيجيب انه كان على دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وانما التبعة على من سجد للأصنام . ويستنشده الشيخ قصيدته الصادية :

بلغ خليلي عبد هند فلا

زلت قريبا من سواد الخصوص

ويناقشه في بعض ألفاظها ، لكن عديا يزهد في هذه المناقشة اللغوية ، ويدعوه الى رحلة صيد ، فيشفق ابن القارح من ركوب الخيل ويذكر مصارع بعض من ركبوها ، فيبتسم « عدى » ضاحكا ، ويذكره بأن أهل الجنة لا يحيق بهم ضر ! ويركبان سابحين من خيل الجنة ، فيلقيان في رحلتها النابتين : الذبياني والجدى ، يتحادثان أمام قصرين من الدر ! ويطول حديث الشيخ معهما في مسائل تتعلق بشعرهما . ثم يلتئم جمع الشعراء والأدباء ، ويمر سرب من أوز الجنة ، ينتفضن فيصرن كواعب حسانا بأيديهن المزاهر وآلات الطرب ، ويسألهن الشيخ أن يصنعن لحنا بعد لحن في شعر للنابغة الذبياني ، فيأتين بالألحان المطلوبة ، ببراعة فذة ، ويفد على المجلس لبيد بن ربيعة ، ويخطر لهم غناء المغنيات بالفسطاط أو مدينة السلام ، بشعر للمخبل السعدى ، فتندفع المغنيات - من أوز الجنة - مستجيبات لما يطلبون .

ويمر « حسان بن ثابت » بالمجلس ، فيدعونه للمحادثة ويسألونه في أبياته الخمرية التي جاءت في قصيدته الهزلية ، في مدح الرسول ، ثم يفترق المجلس ويستأنف الشيخ طوافه في رياض الجنة فيلقى خمسة نفر ليس في أهل الجنة أجمل من عيونهم ! واذا هم عوران قيس : تميم ابن أبى بن مقبل ، وعمرو بن أحمر ، والشماخ ، والراعى النميرى ، وحמיד بن ثور . ويطيل مساءلتهم في شعرهم ، فيعجبون لحفظه ، وكأنه لم يشهد أهوال الحشر .

مشهد أهوال الحشر :

وهنا يروى « ابن القارح » مشهد الحشر ، وكيف شق عليه وأرهقه ، فخطر له أن يتقرب الى خزنة الفردوس بقصائده فى مدحهم ، لعلمهم يعجلون بإدخاله الجنة ! غير انهم لم يحفلوا بهذا الشعر ، وسألوه أن يفصح عن رغبته . فلما فعل ، أنكروا عليه ان يتصور ان يأذنوا له فى دخول الجنة بنير اذن من رب العزة ! وينصح له أحدهم - وقد عرف انه من أمة العرب - أن يستعين على مطلبه بنبي العرب . فمازال الشيخ يتوسل بآل البيت

حتى تحدثوا في أمره الى السيدة فاطمة الزهراء وقالوا : « هذا ولى من أوليائنا قد صحت توبته ، ولاريب أنه من أهل الجنة . قد توصل بنا اليك في أن يراح من أهوال الموقف ، فقبلت السيدة فاطمة ، رجاءهم وعهدت الى أخيها « ابراهيم » عليه السلام ، في أن يصحبه الى أبيها الرسول ، فسأل صلى الله عليه وسلم عن عمله فوجده من أهل الجنة فشفع له .

وعبر الشيخ الصراط بمعونة جارية للسيدة فاطمة حتى وصل الى باب الجنة ، لكن خازنها « رضوان » أبى أن يأذن له بالدخول وليس معه جواز ! فالتمس منه الشيخ أن يعطيه ورقة من شجرة صفصاف - على باب الجنة من داخل - ليعود بها الى الموقف فيأخذ عليها جوازا ! ورفض « رضوان » أن يخرج شيئا من الجنة بغير اذن من العلى الأعلى . .

وفى غمرة يأسه وحيرته ، التفت اليه ابراهيم عليه السلام - وكان قد سبقه الى الجنة - فرآه متخلفا عنه ، فجذبه جذبة أدخلته الفردوس . وكان مقامه بالموقف ستة أشهر فقط من شهور الدنيا . فلذلك لم تنزفه أهوال الحشر ولا نهكه تدقيق الحساب . فبقى عليه حفظه !

وبعد أن يقص الشيخ على عوران قيس ، قصة المحشر ويصف لهم لقاءه هناك بأبى على الفارسي وقد احاط به قوم من العرب يسألونه عن روايته لشعرهم ، ويحاسبونه على أخطائه أقسى حساب ، يستأنف محادثته الأدبية مع عوران قيس واحدا بعد الآخر ، الى أن يعرض لهم « لبيد ابن رببعة » فيدعوهم الى منزله بالقيسية - حى من أحياء الجنة - وهناك يرون ثلاثة بيوت ليس فى الجنة نظيرها بهاء وحسنا . ويخبرهم لبيد ، انها أبيات ثلاثة من شعره ، قالها فى الدنيا :

ان تقوى ربنا خير نفل
وباذن الله ريشى والعجل
أحمد الله فلا ند له
بيديه الخير ، ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى
ناعم البال ، ومن شاء أضل

صيرها الله تعالى أبياتا فى الجنة ، بفضلته وكرمه .

ويقيم ابن القارح مآدبة يدعو اليها كل من فى الجنة من الشعراء واللغويين والمتأدبين ، فتنحر الذبائح وتعد أشهى الأطعمة ، ويدعى من فى الجنة من مشهورى المغنين والمغنيات أمثال : الغريض ومعبود

وابن مسجح وابن سريج والموصلين ، وبصيص ودناير وعنان والجرادتين .
وبعد أن يفترق المجلس ، يخلو ابن القارح بحوريتين ، يلفته من احدهما
طيب رائحة فمها ، ومن الأخرى بياضها الناصع ! فتخبره الأولى أنها
كانت تدعى فى الدار الفانية (حملونه الحلبية) وقد طلقها زوجها – بائع
السقط – لرائحة كرهها من فيها . وتخبره الأخرى أنها (توفيق السوداء)
التي كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ، وتخرج الكتب الى النساخ .

ويزهد ابن القارح فيهما بعد الذى سمعه منهما . ويسأل احد
الملائكة عن الحور العين اللواتي لم يكن من نساء الدنيا ! فيرشده الملك الى
شجر الحور ، حيث يكسر احدى الثمار فتخرج منها حورية باهرة الجمال ،
تخبره انها كانت تمنى بلقائه قبل أن يخلق الله الدنيا ! فيسجد الشيخ
لله شكرا .

مشاهد أهل النار :

ويبدو للشيخ أن يطلع على أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة
ويسير ، فيمر فى طريقه بجنة العفاريث حيث يلقي شيخا من الجن
المؤمنين ، يسمعه قصيدتين مطولتين من عجيب نظمه ! ثم يستأنف سيره ،
فيرى أسد القاصرة الذى افترس « عتبة بن أبى لهب » بعد أن دعا الرسول
ربه أن يسلط عليه كلبا من كلابه . ومن بعد الأسد ، يقابل الذئب الذى
كلم الاسلامى ، ثم يرى فى أقصى الجنة بيتا حقيرا وفيه رجل ليس عليه
بور أهل الجنة ! يخبره أنه « الحطيئة » وصل الى الشفاعة بالصدق فى
قوله :

أبت شفتاى اليوم الا تكلمنا

بهجر فلا ادرى لمن انا قائله

أرى لى وجها قبج الله خلقه

فقبج من وجه وقبح حامله !

ويعجب الشيخ لم لم يغفر له بقوله :

ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

فيجيب الحطيئة : سبقنى الى معناه الصالحون ونظمته ولم أعمل به ،
فحرمتم الجزاء عليه !

وبعد أن يسأل عن (الزبرقان بن بدر) يخلفه ويمضى ، فاذا هو
« بالخنساء » قريبة المطلع الى النار ، تخبره انها أحبت أن تنظر الى

« صخر » فرأته كالجبل الشامخ ، والنار تضطرم فى رأسه وقد صبح
مزعمها فيه :

وان صخرا لتأتم الهداة به

كانه علم فى رأسه نار

ويلقى ابن القارح فى النار ، إبليس اللعين • ويدر بينهما حوار
عنيف ، يسأل فيه إبليس عن « بشار » فاذا هو أمامهما يسام سوء العذاب ،
لكن عذابه لم يصرف « ابن القارح » عن مساءلته فى اخبار دنياه ،
ومناقشته فى شعره ، ويفعل ذلك مع من لقى من شعراء النار : امرئ
القيس ، وعنترة العيسى ، وعلقمة بن عبده ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث
اليشكرى ، وطرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وأبى كبير الهذلى ، وصخر
الغى ، والأخطل التغلبى ، ومهلهل ، والمرقشيين ، والنسنفرى •

حتى اذا قضى من محاورتهم مأربه ، انطلق عائدا الى الجنة ، فمر فى
طريقه الى منزله بأبينا آدم حيث سأل فى الشعر المنسوب اليه ، وفى
لغة أهل الجنة ، ثم مر بروضة الحيات ، فسمع عجبا من رواية احدى
الحيات للشعر ، وفقه حية أخرى بالقراءات ، وقد كانت تسكن فى جدار
بيت أبى الحسن البصرى ثم انتقلت منه الى بيت أبى عمرو بن العلاء ثم
الى جوار حمزة بن حبيب ، ففقهت قراءة القرآن !

وعرج فى طريقه على جنة الرجز ، حيث قابل منهم : « الاغلب
العجلى ، والعجاج ورؤية وأبا النجم وحميد الأرقط وعذافر بن أوس
وأبا نخيلة » وصارحهم برأيه فى الرجز ، وقرر ان مكانهم المتواضع فى
الجنة على قدر منزلتهم الهابطة فى الشعر اذ الرجز أضعف القصيد •

وتنتهى الرحلة بوصول « ابن القارح » الى محله المشيد فى دار
الخلود •

وبانتهاء الرحلة ينتهى القسم الأول من رسالة الغفران •



القسم الثاني

وفيه يرد أبو العلاء على ما جاء في رسالة « ابن القارح » اليه ، فقرة فقرة ، مستطردا خلال رده الى آمال لغوية وأدبية ، ومتعرضا لقضايا نقدية وتاريخية هامة ، مما شغل أئمة العربية في عصره وما قبله .

وقد أطلأ أبو العلاء في هذا القسم ، الحديث عن النفاق والمنافقين ، وعن الزندقة والزناديق ، تعليقا على ما تعرض له ابن القارح من أمرهم .

وأورد أبو العلاء نصوصا من شعرهم ومرويات من أخبارهم ، ثم استطراد يتحدث عن الفرق والمذاهب : الامامية والمعتزلة والأشاعرة والشيعة والكيسانية . . وهذا الحديث الطويل عن الزندقة ، كان موضع ريبة من مؤرخي أبي العلاء المعري ، فقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء « ان إirاده لمثل هذا الشعر واستلذاذه به من امارات سوء عقيدته وقبح مذهبه » وقال الذهبي (٦) عن الغفران : « وفيها مزدكة واستخفاف » . وان كنا نرى في رسالة « ابن القارح » ما يفسر الموقف .



الرسالة

أثر فنى مبدع

كانت رحلة أبى العلاء المعرى - فى رسالة الغفران - الى العالم الآخر، هى التى شغلت الأوربيين لما رأوا من ملامح الشبه بينها وبين الكوميديا الالهية لدانتى .

وما تزال قضية تأثر دانتى بأبى العلاء موضع خلاف ، على انه مهما يكن الرأى فيها ، فالذى لا شك فيه ان لرسالة الغفران قيمتها الكبرى ، من حيث هى أثر فنى مبدع ، ولما تكشف لنا من عالمه النفسى فى تلك المرحلة من حياته : عالم أديب بشر ، ضير مقيد محروم .

فجنة أبى العلاء ، أهلها اللغويون والشعراء ، ومن يقوم على خدمتهم من الولدان المخلدين ، والمغنين والمغنيات . وأبونا آدم جىء به ليسأل فى فضايا شعرية ولغوية ، والجن المؤمنون شعراء بارعون ، والحيات يروين الشعر ، وفيهن من لها علم بالقراءات . والشعراء يغفر لهم بأبيات قالوها من الشعر ، ومنازلهم فى الجنة حسب درجتهم فى الشعر ما بين رجز وقصيد . والقيان يغنين بمختارات من الشعر ، والراقصات يرقصن على نغمه وإيقاعه . وحديث الندامى لغة وشعر ، ويتنافرون ويتخاصمون ويتخاصمون فى الجنة حول مسائل لغوية ومرويات من الشعر .

وجنة أبى العلاء جنة بشر ، عاش أكثر عمره مقيدا حبيسا يجاهد أهواء بشريته ، وأشواقها ، فلم يطق أن يتمثل جنته هادئة بالسكينة والسلام ، بل ملأها حركة وضجيجا ، ورقصا وغناء ، ونزهة وصيدا ، ويعلو الصوت فيها حتى يصير صياحا وصخبيا ، وتعنف الحركة حتى تصير عراكا !

فأبو العلاء الذى حرم على نفسه كل متع الدنيا ، حشد فى جنته كل ما خطر على باله وتمثلته بشريته المحرومة المكبوتة من صنوف المتع الحسية والملاذ المادية . وأسرف فى ذلك حتى جاء بهذه المتع مشخصة ممثلة ! واللافت هنا ان أبا العلاء يحب الا تخلو جنته من ملامح دنيانا : فالقصور عليها لافتات بأسماء الشعراء ، ودخول الجنة لا سبيل اليه بغير جواز

مكتوب ، وفى الجنة خيل لهواة الصيد ، وناقاة لمن يشتهى أن يحلب اللبن ! والشيخ يأمر أن يكون من بين طهاة مآدبته طهاة حلب ، ولا يحتاج الموعودون السعداء الى أن يعبروا عما يشتهون ، بل يكفى أحيانا أن تخطر لأحدهم الرغبة أو يهجس فى خلدته الشوق ، فيجد ما اشتهى حاضرا ماثلا !

« والجنة لن تكون جنة لأبى العلاء ، وفيها أعمى أو ذو عاهة ! بل ليس يكفيه أن يرتد الأعمى بصيرا ، والأعشى أحور ، والأعور سليم العينين ، وانما يلتمس لكل من ابتلى بعاهة فى الدنيا ، أن يعوض عنها فى الآخرة تعويضا لا يقترحه الا المبتلى المحروم .

وفى المحشر ، نرى عراقا بين أبى على الفارسي وجماعة من العرب ، لأنه أخطأ فى رواية شعر لهم . ونرى ابن القارح يحاول التقرب الى خزنة الجنة بقصائد نظمها فى مدحهم !

وكذلك الأمر فى الجحيم : « بشار » قد أعطى عينين بعد الكلمة ، وابن القارح يسأل خزنة النار عن مهلهل ، فيعرفه بأنه الذى يستشهد النحويون بقوله كذا وقوله كذا ! والحوار مع شعراء النار - والشيخ لم يلق غيرهم - فى الشعر واللغة والرواية والانتحال . وهو يواسيهم فى عذابهم ويحزن لبلواهم ويصغى الى شكواهم دون أن يجردهم من عواطف بشريتهم .

وأبو العلاء فى تصوير عالمه الآخر ، متأثر دون شك بما فى البيئة الاسلامية من وصف للحياة الأخرى ونخص بالذكر : الجنة والنار فى القرآن الكريم ، والمرويات الاسلامية عن الثواب والعقاب والشفاعة ، فى كتب الحديث والتفسير وقصة المعراج ، ثم ديوان الشعر العربى للجاهلية وصدر الاسلام ، بما فيه من وصف للمتعم والممذات وفنون اللهو والطرب والمتعة ، نقلها المعرى الى جنته . وكذلك الأساطير العربية التى عرفت فى البيئة الاسلامية عن أفاعيل الجن ومغامراتهم وشجر الحور .

لكن أبا العلاء ، صاغ عالمه الآخر صياغة فريدة لها طابعها المتميز ، فلم ينقل شيئا من هذه المرويات الا بعد أن ينفذ به الى أعماق وجدانه ، ويستجيب فيه لما تنفعل به نفسه من أشواق وهموم . وقد أضاف الى كل ما وعاه من مرويات عن الجنة والنار ، وأوصاف للممذات والعذاب مواد جديدة من صميم ذاتيته وأحلام يقظته ، فجاءت الصورة علائقية أصيلة متميزة ، وفيها جديد من الفن الأدبى لم يعرفه النثر العربى قبل أبى العلاء .

والواقع أن رسالة الغفران ما تزال ذخيرة حية خصبة من تراثنا الانسانى ، لم نظفر بعد بكل كنوزها ، ولم نجل كل أسرارها الفنية .

لولا الكوميديا ما خرجت رسالة الغفران من قبرها !!

ماذا كان يحدث لو كان الأب « ميجويل أسين بلاسيوس » قد أخفى اكتشافه وجعله سرا يدفن معه يوم مماته ؟ .. هذا الاكتشاف الذى أكد ان رائعة أوربا المعروفة بالكوميديا الالهية لشاعر العصور الوسطى « دانتي » منقولة عن أصول عربية . لو كان قد فعل ذلك .. لترتب عليه عدد من النتائج فى مقدمتها استمرار هذا السر مجهولا ، واستمرار اختفاء حقيقة وجود الجسور التى كانت تربط بين الفكر العربى والفكر الأوروبى فى العصر الوسيط ، والأكثر استمرار هذه المصادر العربية مجهولة .. الا لمن أراد التعرف على تراكيب لفظية أو قضايا فقهية أو كلاسيكيات تاريخية أو مسائل نحوية .. أو أى أمر يبعدنا عن جوهرها الحقيقى الذى يعلن أبوتها للكوميديا الالهية .

لقد كانت قبلة هائلة تلك التى ألقاها أكبر المستشرقين الاسبان « بلاسيوس » عام ١٩١٩ باعلانه ان دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) فى رائعته الكوميديا الالهية مقلد لبعض الكتب العربية التى وردت عن معراج النبى عليه الصلاة والسلام وأهمها كتاب « رسالة الغفران » وكتاب « الفتوحات المكية » .

وطبيعى أن يقابل اكتشاف « بلاسيوس » بهجوم شديد ، وبخاصة من الايطاليين الذين عز عليهم أن يفجعوا فى عملهم الأكبر ومناطق فخارهم « دانتي » وعلى الرغم من أن بلاسيوس قد رد عليهم الا أن ردوده كانت فى حاجة الى دليل قاطع يؤكد وصول هذه الكتب العربية الى فلورنسا بلغة يفهمها دانتي نفسه .

وجاء الدليل حين أصدر المستشرق الايطالى « انريكو تشيروللى » كتابا عام ١٩٤٩ نشر فيه الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة للكتابات العربية للمعراج الاسلامى ، وتلخص قصة هذه الترجمة فى أن الفونسو العاشر ملك قشتالة باسبانيا أمر بترجمة هذه الكتابات من العربية الى القشتالية . وقد قام بها الطبيب اليهودى ابراهيم الحكيم عام ١٢٦٤ أى قبل مولد دانتي بعام واحد ، بعد ذلك طلب هذا الملك من المترجم الايطالى

« بونا فنتوراداسينا » ترجمتها من القشتالية الى اللاتينية والفرنسية القديمة فى نفس السنة لاذاعتها فيما وراء الحدود الاسبانية وبذلك أيد « تشيرولى » فكرة بلاسيوس بما لا يدع مجالا للشك .

فاذا أدركنا كيف وصلت هذه الكتابات الأدبية العربية التى أوحى بها قصة المعراج الى يد دانتي . يبقى أن نعرف أوجه التشابه والتقليد بينها وبين الكوميديا الالهية . لكن قبل هذا ينبغى أن نعرف فكرة عن الكوميديا الالهية لدانتي حتى تسهل المقارنة ذلك بعد أن عرفنا رسالة الغفران من قبل .

فالكوميديا الالهية رحلة خيالية أيضا الى الدار الآخرة قام بها دانتي نفسه متخذًا دليلًا له هو الشاعر الرومانى الخالد « فرجيل » الذى عاش ومات قبل الميلاد حيث اصطحبه فى هذه الرحلة مبتدئًا بالجحيم على عكس المعرى الذى ابتدأ بالجنة وإبان ذلك يناقش دانتي صاحبه فرجيل فى جوانب كثيرة من الفكر والحياة والناس متفننا فى وصف الجنة والأعراف والجحيم ووصف فيها من النعيم والحساب والعذاب وتخيل المشاهير من الأدباء والمفكرين ممن سبقوه أو عاصروه وفى مقدمتهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وبابوات روما فى أماكن مختلفة هنا أو هناك يحادثهم ويسألهم الى ما أدى بهم الى هذه الأماكن .

ومن هنا فالعملان « رسالة الغفران » و « الكوميديا الالهية » متفقان فى البناء العام والخطوط العامة وبعض التفاصيل ، لأنها قصة رحلة خيالية من هذا العالم الفانى الى ذلك العالم الثانى . وهذا الاتفاق فى البناء والجوهر هو الذى حفز أهل الفكر والأدب أن يقرروا ان هناك شبهة بين العملين وأن أبوة الرسالة واضحة على الكوميديا الالهية .

صحيح أن الشكل يختلف فى كل منهما حيث وردت رسالة الغفران نثرًا وجاءت الكوميديا الالهية شعرا . إلا أن هذا الشكل لا يلغى حقيقة تطابقهما فى المضمون تطابقا يجعل البعض يتساءل لماذا لم يتخذ دانتي أبا العلاء المعرى صاحبًا ودليلا له ، بدلا من فرجيل فى الكوميديا الالهية لو كان قد فعل ذلك لكان أكثر أمانة !!

وصحيح أيضا أن هناك فروقا أخرى لا تخرج عن إطار الشكل أو طريقة تناول ، إلا اننا نجد تطابقا بين العملين فى أمور كثيرة فى مقدمتها :

✱ كلا الشاعرين اتخذ رسالته سبيلا الى اظهار قدرته الأدبية واللغوية ومعرفته بالتاريخ والتعبير عن فلسفته وعقيدته الدينية .

★ وكلا الشاعرين اتخذ الأشخاص الذين لقيهم هناك من البشر المعروفين في أيامه أو قبل أيامه أو من الجن •

★ وكلاهما جعل أهل الجنة جماعات جماعات ، وجعل أهل النار أفرادا أفرادا • وكلاهما أيضا استعان بأديب آخر يناقشه المعري استعان بابن القارح ودانتى استعان بفرجيل •

★ وكلاهما وقف على الأشخاص الذين لقيهم يحادثهم ويناقشهم في أمور جرت لهم في الدنيا ولقد قلد دانتى في ذلك المعري تقليدا تاما • ويدهشك أن ترى المطابقة التامة بين دانتى وأبى العلاء المعري حينما يأتیان الى قوم قد خفف الله عنهم العذاب أو بعضه •

★ ويقلد دانتى المعري حين يضع في الأعراف عند أطراف الجنة قوما سبقوا ظهور المسيحية كسقراط وأفلاطون وأرسطو ويوليوس قيصر أو قوما جاءوا بعد ظهورها •

والأعراف وهى فكرة اسلامية بحثة يقلد دانتى فيها المعري

★ وهناك مطابقة تامة بين حديث المعري على لسان صاحبه مع آدم وحديث دانتى معه فالأثنان يسألانه عن اللغة التى كان يتكلمها يوم خلقه الله •

وبعد • • فهذه اشارة سريعة الى تشابه الكوميديا الالهية لدانتى برسالة الغفران للمعري • وعلى كل • • يستطيع الأدب العالمى أن يعتبر هاتين الرسالتين من كنوزه الخالصة •

هوامش

- (١) نيكلسون : رينولد ألين نيكلسون (١٨٦٨ - ١٩٤٥ م) مستشرق انجليزى •
ظهر اهتمامه بالأدبين العربى والفارسى مما خلف من آثار • حقق كتباً كثيرة وله مؤلفات
عديدة •
- (٢) من مقدمته لترجمة جعيم دانتى بقلم أمين شعر •
- (٣) من « رسالة الملائكة » فى ذيل كتاب « أبو العلاء وما اليه » للميمنى •
- (٤) ابن خالويه : الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٩٨٠) لغوى من همدان • امل
الحديث فى جامعة بغداد وأقام بحلب متقرباً من آل حمدان • وقام على تاديب أبناء سيف
الدولة • ألف كتباً كثيرة فى اللغة والنحو •
- (٥) راجع (رسالة الغفران) تحقيق بخت الشاطيء •
- (٦) الذهبى : محمد بن أحمد الذهبى (١٢٧٤ - ١٣٤٨) مؤرخ ومحقق • ولد وتوفى
بدمشق • له نحو مائة كتاب •

الرباعيات

عمر الخيام

١٠٨٠ م .

قليل من الشعراء من فلسف الحياة ، وعقد مناهج البحث في حقائق الكون ، ومشكلات الفكر الانساني البحث التي لا تكاد تتصل بالتجارب والقواعد والمقارنات . .

وطبيعي أن تظهر هذه القلة من الشعراء بعناية النقاد ، لكثرة ما استحدثوه من أوجه الخلاف في الرأي ، فيما قالوه ، وفيما تناولوه في أشعارهم من موضوعات تتناحر من حولها الافهام .

من هؤلاء الشاعر الشرقي « عمر الخيام » الذي اختلف الناس في معرفة حقيقته : فقال عنه البعض انه زنديق ملحد ، وقال البعض الآخر انه مؤمن موحد ، واتخذ بعض الصوفيين من أشعاره أورادا يترنمون بها في أذكارهم !!

فالخيام هو الشاعر الشرقي الوحيد الذي ترجمت كل آثاره الى لغات العالم المختلفة ، وكوفيء الشاعر الانجليزى « فترجيرالد » على ترجمته الانجليزية له بدفنه في مقبرة العظماء « وستمنستر » وتقوم في بعض جامعات العالم أقسام خاصة بدراسة أدبه ا

روح العصر واثرها على فلسفة الخيام

ان كل من يتصدى لدراسة عمر الخيام وفلسفته ورباعياته عليه أن يفهم روح العصر الذى عاش فيه ويكشف عن القيم العقلية والروحية والعاطفية التى كانت سائدة في العصر الذى عاش فيه رجال من أمثال ابن سينا والغزالي وعمر الخيام وبلغوا فيه هذا المجد العلمى الممتاز .

ليس من شك ان الفرس قد تركوا أثرا قويا في الثقافة الاسلامية بوجه عام لطول احتكاك العرب بالفرس منذ أقدم الأزمنة . لقد كان الخلفاء الأمويون يباشرون سلطانهم من دمشق عاصمة الخلافة في ذلك الوقت ، وكان همهم الأكبر الاحتفاظ بالقوة العربية وبالتقالييد العربية وكان التوحيد عندهم أهم أركان العقيدة الاسلامية ، ولم يكونوا يهتموا

بالتفسير والشروح ولا بالجدل والنقاش حول العقائد والمذاهب المختلفة ،
انما كانت سياستهم الرئيسية الاحتفاظ بالسلطان السياسى للعرب ولعرب
الشمال بصفة خاصة . وكانوا ينظرون الى الفرس على أنهم جنس اقل
مرتبة من العرب ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرون بما للفرس من قوة
عقلية وروحية حتى ان الخليفة الاموى سليمان بن عبد الملك قال مرة انى
لاعجب للفرس حكموا ألف سنة ولم يحتاجوا للعرب لحظة واحدة ، بينما
حكمنا نحن مائة سنة ولم نقدر على الاستغناء عنهم لحظة واحدة .

ولما زالت الخلافة الاموية بسبب مؤازرة الفرس لمنافسى الامويين
من العباسيين ، أصبح نفوذ الفرس له القدح الملى فى أنحاء العالم الاسلامى
كله ، وقد ظلت اللغة العربية – لغة القرآن – مدة قرنين آخرين من
الزمان هى اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ولغة العلم والادارة ، بها
كتبت المصنفات والكتب والرسائل التى اضاءت بنورها العالم المعروف
لذلك الوقت ، غير أن القلم الذى كتب والعقل الذى فكر كان فى معظم
الحالات قلما وعقلا فارسيا . أما المؤلفات العربية الصميمة فكانت قلة
بالنسبة لهذا الفيض الزاخر من نتاج الفكر الفارسى . وليست هناك فئة
درست العلوم والفاسفة بشغف وحماسة واقبال أكثر من الفرس الذين
كان يزدهم بهم بلاط الخليفة فى بغداد . وتحفظ لنا كتب التاريخ أخبار
كثير من المحن والشدائد التى قابلتها هذه الفئة من رجال العلم والأدب ،
ولكنهم مع ذلك احتفظوا بسيادتهم فى ميدان الفكر والقلم زمنا طويلا .

والفرس فى تفكيرهم الدينى كأن يساورهم الشك فى كل ما يتصل
بأركان العقيدة ، ولكن دون أن يحيدوا عن مراعاة القواعد الدينية المألوفة ،
فقد رأوا أن يقيسوا كل ما فى الوجود بمقياس العقل والفهم الانسانى ،
ما جاء مطابقا لهذا العقل عدوه صحيحا وما جاء مخالفا لمفاهيمه كان باطلا
من الأباطيل ، وهم فى ذلك قد عكسوا فى تفكيرهم كل فلسفات الأمم
الأجنبية التى اتصلوا بها عن طريق التجارة ، والفتوحات وغير ذلك .

وكانت روح التشاؤم ظاهرة أخرى من مظاهر التفكير الفارسى ،
فالغناء فى أنظارهم يتربص بالحياة ، فكل حى مصيره الى الفناء ، فاذا
كانت الحياة مصيرها الى الزوال والفناء فانه من البلاءة والحمق أن يتعلق
الانسان بشىء ليس له دوام ، والأولى له أن يعيش حياته المقدرة له فى
هذا العالم الفانى سعيدا خلى البذل . وليست السعادة فى امتلاك المال
والقصور والعبيد ، انما السعادة هى ما انبعثت من داخل الانسان ، وهذه
هى السعادة النفسية التى لا تدانيها أية سعادة أخرى .

ومن الظواهر الملحوظة فى عصر الحيام ظهور طائفة من رجال الدين

همهم الأكبر مقاومة الحرية الفكرية ومناوأة الأحرار ومعارضة التجديد والاصلاح .

وهذا النوع من رجال الدين لا يخلو منه عصر من العصور ، ولكنهم كانوا كثرة في عهد الخيام ، فكانوا بلية على الناس ، اذ زجوا بأنفسهم في كل النواحي الاجتماعية والسياسية ، وأهدروا كثيرا من الدماء الزكية بفتاويهم الهزيلة التي بنيت على الحسد والحقد والنفاق ، فاذا ما تألق نجم أحد من الناس وذاع صيته لعلم أو أدب فاض عنه تصدوا لمحاربته وألصقوا به مختلف التهم والرزائل ولا يستريح لهم بال الا اذا قضوا عليه وان ارتكبوا في سبيل ذلك أكبر الآثام .

هذه صورة لعصر الخيام ، اختلطت فيها الأحداث السياسية بالأحداث الدينية والاجتماعية فكان لهذا الخليط أثره على مزاج الخيام وفلسفته .

حياته وآثاره

كانت الأمور تسير على ذلك المنوال الذي وصفناه آنفا ، عندما ولد « غياث الدين أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام » . وقد اختصر هذا الاسم الطويل فأصبح يعرف عند الجميع باسم عمر الخيام ، وقيل في تفسير اسمه ان أباه كان يشتغل بصناعة الخيام أو ان عمر ذاته كان من رجال هذه الصناعة ، غير أن هذا التفسير لا يستقيم بحال مع ما عرف من ثقافة الخيام وسعة اطلاعه ومركزه الاجتماعي ونباهة ذكر الصحاب الذين كان يجلسهم ويتردد عليهم . فلم يكن من المألوف في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه فارس بالعلوم والآداب أن يبعث أحد المشتغلين بمثل هذه الحرف الوضيعة بابنه الى المدارس ودور العلم . ولم يكن من المحتمل بحال أن يدرس هذا الابن الفلسفة والرياضيات ، وأن يصبح قبل ان يصل الى منتصف العمر من رجال الفلك المشهورين ، وأن يجالس الأمراء وعلية القوم .

والغالب أن كلمة الخيام تدل على لقب له ولأسرته ، ولعله كان اسم قبيلة صغيرة مغمورة . وتدل جميع الحقائق المعروفة على ان الخيام قد انحدر من أسرة لها بعض المكانة وكانت على قدر من الثراء .

وليس من الممكن أن نحدد على وجه الدقة تاريخ مولد عمر الخيام ، على أن المتواتر انه ولد بين عامي ١٠١٥ و ١٠٢٠ م ، وانه توفي في نيسابور عام ١١٢٣ م . واذا أخذنا بتاريخ مولده فان الخيام يكون قد عمر أكثر من مائة سنة ، وانه ظل الى آخر حياته محتفظا بقوة عقله

وتفكيره ، وانه كان يحضر مجالس العلماء والفلاسفة وكان يجادل في الدين والفلسفة .

أسفار الخيام :

لا ينكر أحد فضل الأسفار والتنقل في مختلف بقاع الأرض في تكوين خلق الانسان ومزاجه ، هذا الى جانب ما يفيد من هذه الأسفار من الاطلاع على طباع الناس وأخلاقهم ، فيزداد خبرة وحنكة .

وهناك قول مأثور عند الفرس ، وهو أن العاقل المحنك هو من رأى الدنيا .

لقد سافر الخيام كثيرا ابان عمره المديد ، وزار أنحاء العالم المتمدين في ذلك الوقت ، وأخذ يضرب في الأرض حتى بلغ بيت الله الحرام وطاف حول الكعبة ، فارتد اليه ايمانه ، واهتز قلبه بنجوى الله . . ليرجوه التوبة ويسأله المغفرة والرحمة .

ويعود من حجه انسانا غير الذى عرفته نيسابور ، لا يشغله في حياته غير التهجد والصلاة !

وقد ذكر « القفطى » (١) في سبب هذه الرحلة أنه « لما قدح أهل زمانه في دينه وأظهروا ما أسره من مكنونه خشى على دمه وأمسك عن عنان لسانه وقلمه وحج متافاة لا تقية ! » .

وقد زار الخيام أيضا مدينة « مرو » (٢) ومكث بها مدة طويلة ، وكانت مرو في ذلك الوقت قصبة (٣) السلاجقة ، كما زار بلخ وبخارى . ومن المحقق أنه ذهب الى بغداد ، وكان لا يزال للخليفة بها ظل من السيادة الدينية ، وان كان السلطان السياسى في يد الأتراك ، وليس من شك أن الخيام قد أفاد كثيرا من زيارته لبغداد ، اذ كانت في ذلك الوقت كعبة العلم والعلماء ، يؤمها الشعراء والحكماء من جميع الجهات ، وكانت حافلة بالمعاهد ومجالس العلم التى يتناظر فيها العلماء في الحكمة والفقه وشتى العلوم المعروفة آنذاك .

وفي عام ١٠٧٤ م عزم السلطان ملكشاه السلجوقى - أعظم ملوك المسلمين في ذلك الوقت - على تعديل التقويم السنوى ، فكان عمر الخيام من بين علماء الفلك السبعة الذين انتدبوا لهذا العمل فوضعوا التقويم الجلالى نسبة للسلطان جلال الدولة ملكشاه ، وكان من أعضاء هذه اللجنة

أبو مظفر الاسفرازي وميمون بن النجيب الواسطي . وقد قام الخيام نفسه بوضع الجداول الفلكية الخاصة بهذا التقويم .

وقد أعجب السلطان ملكشاه إعجابا شديدا بعمر الخيام ، فقدم له أموالا كثيرة لبناء مرصد عظيم لرصد النجوم ومراقبة حركة الأفلاك التي كان لها شأن عظيم في ذلك العهد ، غير أن السلطان مات قبل أن يتم تجهيز هذا المرصد .

هكذا كان الخيام ذائع الصيت محترم الجانب مرموق المكانة بفضل علمه وعبقريته ، ولكن يستدل مما حكاه المؤرخون الذين عنوا بترجمة حياته انه كان حاد الطبع عصبى المزاج ، بل كان أكثر من ذلك شديدا التشاؤم وهي صفة تلازم الكثيرين من أهل الفكر والفلسفة . والواقع أن العباقرة وأحرار الفكر كثيرا ما يضيّقون بالناس لما يشاهدونه من خبث النفوس ولؤم الطباع ، فهم لذلك يؤثرون العزلة وحب الانفراد أو الاقلال من الأصدقاء على قدر ما يستطيعون . والظاهر أن الخيام كان من هذه الفئة بعد ما رأى من أعمال الناس وسمع من أقوالهم ما لا يرضى عنه ، فنأى ذلك به عن مصاحبة الناس ومجاراتهم وانصرف هو الى التأمل والدرس .

ولما كان العظماء والعلماء في كل عصر يتقرب الناس اليهم ويتوددون اليهم ويحبون مجالسهم ، ولكن من حسنات الخيام انه كان عزوفا عن الشهرة ، مجبا للعزلة خصوصا بعد أن اتهمه قومه بالكفر والزندقة لما ذاع صيته في الفلسفة وفاق أقرانه فيها وشاعت آراؤه وانتشرت نظرياته حتى بلغ به الأمر أن خاف على حياته . ويروى لنا القفطي صاحب كتاب تاريخ الخبر فيقول : « ولما قدح أهل زمانه في دينه ، وأظهروا ما أسر من مكنونه ، خشى على دمه ، وأمسك عن عنان لسانه وقلمه ، وحج متافاة لا تقيه ، وأبدى أسراراً من السرائر غير نقية . ولما حصل ببغداد سعي إليه أهل طريقتة في العلم القديم فسد دونهم الباب النادم لا سد النديم ، ورجع من حجه الى بلده يروح اليه محل العبادة ويغدو ويكتم أسرارهم ولا بد أن تبدو . وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة ، به يضرب المثل في هذه الأنواع لو رزق العصمة » .

فالخيام الذي لا يعرفه الجيل الحاضر الا بالشعر ، كان راسخ القدم في الفلسفة والأدب والتاريخ حتى ان القفطي في كتابه السابق ذكره نعته بأنه امام خراسان وعلامة الزمان .

هذا ولا يكاد يوجد من بين علماء المسلمين عالم ممتاز مثل عمر الخيام ، أحاط بمعظم العلوم التي كانت معروفة في عهده ، فلقد كان

الخيام مبرزاً في الفلك ، متبحراً في الفقه ، ضليعاً في الطب ، خبيراً بقراءات القرآن . هذا الى جانب درايته الواسعة بالفلسفة وعلوم اللغة والشعر والكيمياء والعقائد الدينية والرياضيات .

وكان في هذه العلوم كلها صاحب الرأي الصائب والفكر المستقل الحر ، اذا اجتمع بأصحاب كل علم من تلك العلوم ناظرهم وتفوق عليهم وظفر منهم بالاعجاب والاكبار . والظاهر أن عمر الخيام كان يميل بطبعه الى العلم المجرد لذلك تخصص في الفلك والرياضة حتى كان فيهما واحد دهره وفريده عصره .

مؤلفاته :

لم يكن الخيام من المكثرين في عالم الكتابة والتأليف ، ولذلك فقد رماه البعض بالبخل في نشر المعرفة . والظاهر انه كانت هناك أسباب دعت الخيام الى الاقلال من التأليف ، أهمها خوفه من رجال الدين من أهل زمانه الذين كانوا يرمون كل باحث حر الفكر بالكفر والزندقة ، هذا مع وجود فئة من الجهال المتشبهين بالعلماء كانوا يستخفون بأهل العلم ويحقرون من شأنهم ، لذلك أثر الخيام أن يضم صدره على مكنون نفسه ، وان كان ذلك يؤلمه .

والخيام مع هذا الاخلال في عالم التأليف قد كتب عشرة كتب ، ثلاثة منها في العلوم الطبيعية ، وأربعة في الرياضيات ، واثنان فيما وراء الطبيعة ، والكتاب العاشر هو رباعياته والتي اشتهر بها . وفيما يلي بيان هذه المؤلفات :

١ - رسالة في الجبر والمقابلة : وهي باللغة العربية ، وقد حل في هذه الرسالة كثيراً من مسائل الجبر والهندسة التي كانت مستعصية على متقدميه ، كما كان فيه أول من عالج معادلات الدرجة الثالثة ، فأضاف بذلك ثروة جديدة الى العلم .

٢ - رسالة في شرح ما اشكل من مصادرات كتاب اقليدس .

٣ - الزيج المكشاهى الذى كان الخيام أحد مؤلفيه .

٤ - رسالة في الوجود .

٥ - رسالة في الطبيعيات .

٦ - رسالة في الكون والتكليف .

٧ - رسالة في الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة في جسم مركب منهما .

٨ - رسالة فى جواب ثلاث مسائل وفى كشف الحجاب عن ضرورة التضاد فى العالم .

٩ - رسالة فى لوازم الأمانة بحث فيها عن اختلاف المواسم والفصول والأقاليم .

هذا وقد وصف لنا الشهرزورى فى كتابه « نزهة الأرواح » وفاة الخيام فقال :

« كان عمر يقرأ فى كتاب الشفاء لابن سينا حتى اذا وصل فى قراءته الى فقرة الوحدة والكثرة وضع الكتاب الى جانبه وقام الى الصلاة ، ثم أمسك عن الطعام طول يومه حتى اذا فرغ من صلاة العشاء سجد لله سجدة طويلة قال فيها : « اللهم انى عرفتك على مبلغ امكانى فاغفر لى فان معرفتى اياك وسيلتى اليك ، ثم أسلم نفسه الأخير ، وكان ذلك عام ٥١٧ هـ - ١١٢٣ م . »

مدسة الرباعيات

الشعرية

كانت شهرة عمر الخيام ابان حياته تقوم فى نظر معاصريه على دراساته العقلية وعلى تبحره فى الرياضه والفلك كما تشهد على ذلك تأليفه القيمة فى علم الجبر والهندسة وبنائه الارصاد وترتيبه للجداول الفلكية . أما فى ميدان الشعر فكان لا يلج بابا الا فى أوقات فراغه فينظم الرباعية وتبثها بعض لواعج نفسه وخطراتها ، ثم يلقيها على أصدقائه وخلانه للترفيه والتسلية ، ففتنت الألباب لما تحويه من حكمة وفلسفة ، ولجمال صياغتها الشعرية التى تهز النفس وتلد السمع الأمر الذى جعل أنصاره يعدونه من أكابر الشعراء ويسرفون فى تبجيله .

وأغلب الظن ان الخيام قد نظم هذه الرباعيات فى أزمنة وأمكنة مختلفة ، فكانت كل رباعية صورة لنفسيته فى الوقت الذى نظم فيه الرباعية وتعبيرا عما يحيط به من مؤثرات مختلفة . ثم هو أيضا قد نظم هذه الرباعيات فى أوقات متباعدة فكان المعنى الواحد لذلك يفرغه فى قوالب شتى أو يتناوله من نواح متباينة . وقد نرى أحيانا تناقضا ظاهرا بين رباعيتين أو أكثر ، فتارة نجد مؤمنا يعمر قلبه الايمان ، ونراه تارة أخرى وقد عصف الشك به ، فجاءت رباعياته زاخرة بما يشبه الكفر والالحاد ! .

وليس من شك أن الخيام لم يكن يقصد من رباعياته أن تكون عملا أدبيا له كيان واضح ونظام معروف ، فهو لم ينظم هذه الرباعيات تحت تأثير الهام مطرد أو نتيجة جهد متصل ، بل كانت في الواقع عبارة عن لوحات فنية صغيرة وجد الخيام في تنميتها ملاذا عاطفيا بعد جهد شاق في عالم الفكر المجرد ، ولذلك فليس للرباعيات تسلسل منطقي معروف اذ هي عبارة عن تعبير فني جميل لأحاسيس ومشاعر وحالات عقلية مختلفة . ولذلك فانك تجد في الرباعيات تناقضا شادا غريبا لا يصدر الا عن النفس الحائرة المتشككة .

وقد جرى العرف في كل مجموعات الشعر الفارسي أن ترتب رباعيات عمر الخيام لا في تسلسل منطقي أو وفقا للموضوعات ، ولكن وفقا للقافية ، وذلك لأنه ليس هناك اتصال في المعنى أو المضمون العاطفي بين الرباعية والأخرى ، فلكل رباعية صورتها الذهنية الخاصة ولونها الفني الخاص بها .

وانه لمن اليسير جدا أن تفرق عنه كثير من الشعراء العرب وغيرهم من شعراء الغرب بين شعر الشباب والشعر الذي قاله شاعر في أخريات حياته ، أما في رباعيات الخيام فانه من الممكن أن نضع رباعية قالها في أواخر حياته جنبا الى جنب مع رباعية أخرى قالها وهو في عنفوان شبابه ، فلا يمكن أن نفرق بينهما .

ورباعيات الخيام كما هي موجودة ومترجمة الى مختلف اللغات مشكوك في صحة نسبها كلها الى عمر الخيام . كما ان بعض الرباعيات يختلف نصها الفارسي باختلاف الروايات .

ومما هو جدير بالذكر أن المستشرق الروسي « جوكوفسكي » قد لاحظ أن بعض رباعيات الخيام توجد في دواوين بعض شعراء الفرس ، فافترض أن هذه الرباعيات لهم دون الخيام . ولكن اتضح ان بعض هذه الرباعيات موجودة في نسخ من رباعيات الخيام أقدم عهدا من دواوين هؤلاء الشعراء ، فكان هذا دليلا على أن بعض رباعيات الخيام قد انتقلت الى بعض دواوين الشعراء كما أن بعض رباعياتهم قد انتقلت بدورها الى رباعيات الخيام ، ومن ثم أطلق عليها البعض اسم الرباعيات الحائرة أو المتنقلة لأنها تثبت من وقت لآخر بين مجموعات الرباعيات التي تنسب لعمر الخيام ، وقد تنشر أحيانا أخرى في دواوين غيره من الشعراء .

ونجد من ناحية أخرى ان عدد الرباعيات في المخطوطات الباقية حتى الآن يكثر في المخطوطات التي بعد بها العهد عن تاريخ وفاة عمر الخيام . وأقدم مخطوط عثر عليه حتى الآن يضم هذه الرباعيات هو المخطوط

المحفوظ بمكتبه بودليان باكسفورد . وقد كتبت هذه النسخة من الرباعيات عام ٨٦٥ هـ - ١٤٦٠ م أى بعد وفاة الخيام بثلاثة قرون ونصف ، وتضم ١٥٨ رباعية . وهناك مخطوط آخر فى مكتب الهند يحوى ٣٦٢ رباعية ، كما أنه به أيضا مخطوط آخر يضم ٥١٢ رباعية وتحفظ الجمعية الآسيوية بكلكتا بمخطوط يحوى ٥١٦ رباعية .

وجاء حديثا المستشرق الألماني الدكتور « فردريك روزن » الذى كرس حياته لدراسة الخيام ورباعياته واستخلص من دراساته ان هناك نحو خمسة آلاف رباعية منشورة فى مختلف النسخ والطبعات تنسب كلها الى عمر الخيام .

ومهما يكن من الأمر فان الخيام وان لم يعده النقد من بين اكابر الشعراء العالمين ، الا أن رباعياته سرعان ما انتشرت وذاعت بين الجماهير .

وقد كان « اكبر » (٤) امبراطور الهند العظيم يظهر دائما تقديره واعجابه بهذه الرباعيات ، بل كان يضع الخيام على قدم المساواة مع شاعر الفرس الاكبر حافظ الشيرازى (٥) ، وهو يذكر ان كل انشودة من أناشيد حافظ يجب ان تتلوها رباعية من رباعيات الخيام ، لأن قراءة الانشودة دون الرباعية أشبه بشرح الراح دون التنقل عليه .

لقد كانت طرافة الرباعيات وما فيها من روعة التعبير ودقة التصوير ، وافصاح عن خطرات النفس الانسانية الطليقة من ايثار التقاليد وتعبير صادق عن خوالج ونزعات الكثيرين من العلماء والمفكرين فى ذلك العصر الذى تباينت فيه الآراء والمعتقدات - باعثا للشعراء على أن ينسجوا على منواله حتى كثر ما نظم من الرباعيات على طريقة الخيام كثرة عظيمة ، واذا بالخيام يصبح امام مدرسة خاصة فى الشعر وطريقة التفكير .

وليس من شك انه كان فى عصر الخيام كثير من الشعراء المقلدين الذين يقولون الشعر وينحلونه على الغير ، ولا يبعد ان يكون هؤلاء قد نظموا رباعيات كثيرة ونسبوها الى الخيام ، لأن الانتحال لم يخل منه عصر من العصور . يضاف الى ذلك أن البعض كان ينظم الرباعيات يعبر فيها عن خوالج نفسه ولكنه كان يتنصل من تبعثها فينسبها عن قصد حسن الى عمر الخيام .

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء المقلدين والمتفلسفين ، بل كان هناك الاتقياء المؤمنون وكانت لهم رباعياتهم التى قصدوا بها الحض على الفضيلة والتمسك بأهداب الدين .

وكان للمجان وأهل اللهو رباعياتهم التى تزخر بذكر الخمر والتغنى

بمفاتيح الغيد الحسان وكانوا ينشدون هذه الرباعيات في حاناتهم ومجالس .
لهوهم على أنغام المزاهر ودق الدفوف ورنات الأقداح .

وكان أيضا للمتصوفة رباعياتهم يترنمون بها في حلقات أذكارهم ،
وفيها غزل ونسيب وشطحات ومفاجأة ، بل كانوا كثيرا ما يترنمون
برباعيات الخيام أو غيره من أهل اللهو حتى يتم بذلك أنسهم ووجدتهم .

وكان كذلك لأهل الزهد والورع رباعياتهم التي تنبئ عن عزوفهم
عن أغراض الدنيا وملذاتها الزائلة ، وتنعى على الناس تهالكهم على حطام
الدنيا وتكالبهم على الجاه والسلطان .

وقد اختلطت هذه الرباعيات كلها بعضها ببعض حتى أصبح من
العسير جدا أن نبين ما للخيام وما ليس له منها ونرد كل منها إلى صاحبها ،
ولاسيما أن أصحابها غير معروفين ولم يسجل التاريخ إلا القليل من
أسمائهم . يضاف إلى ذلك أن الخيام لم يكن أول من ابتكر هذا الأسلوب
من الشعر فقد نظم بعض الشعراء الذين تقدموا عليه ونفر من الشعراء
الذين جاؤوا بعده عددا من الرباعيات جليلة القدر عظيمة المعنى ، فقد
وجدت بعض الرباعيات المنسوبة إلى الخيام في دواوين شعراء الفرس من
أمثال سعيد أبي الخير وأفضل الكاشاني والأنورى وابن سينا وحافظ
الشيرازى وجلال الدين الرومى وغيرهم .

وكثيرا ما كان يحدث أن يدون بعض المعجبين برباعيات الخيام على
هامش نسخته المخطوطة لهذه الرباعيات بعض رباعيات أخرى منقولة عن
شاعر آخر على سبيل المقارنة ، فيأتى ناسخ بعد ذلك على شيء من الغباء
فيضيف هذه الرباعيات المنقولة إلى صلب الرباعيات الأصلية لعمر الخيام ،
وهذه كلها عوامل قد أدت إلى هذه الكثرة الهائلة من الرباعيات التي تنسب
إلى عمر الخيام .

على أن القارئ المتعمن يستطيع أن يدرك بسهولة أن هناك رباعيات
قد دست على الخيام . كما أن هذه الرباعيات التي من هذا القبيل قليلة
العدد وهي في جملتها تخالف ما عرف من مزاج الخيام وطبيعة تفكيره .
ثم نحن نستطيع أيضا عن طريق الأسلوب أن نميز بين الرباعيات الأصلية
والأخرى الدخيلة إلى حد كبير .

أسلوب الرباعيات

والصبغة الشعرية التي اختارها عمر لينظم بها رباعياته هي الرباعي
والجمع العربى رباعيات . وهذا الاسم مشتق من الكلمة العربية أربعة ،
لأن المعروف أن كل مقطوعة تتركب من أربعة مصاريع (٦) الأول والثاني

والرابع مقفى والثالث مطلق ، وقد تكون الأربعة مقفيات ، وكل رباعية مستقلة بنفسها ذات معنى قائم بذاته . وهذه الصبغة الشعرية ابتكار فارسى قديم العهد ، غير أن الذى أكثر من استخدامه وجعله شائعا بين الجماهير هو الشاعر الفارسى أبو سعيد أبو الخير الذى عاش من عام ٩٦٨م حتى عام ١٠٤٩م أى قبل عمر الخيام بقليل . والظاهر أن هذه الصبغة الشعرية قد استساغها الناس وأعجبوا بها لسبكها المحبوك وحلاوة جرسها ودقة تعبيرها ، ولذلك ظلت شائعة حتى اليوم . والمصراع الرابع هو الذى يحمل فى طياته الفكرة المراد إبرازها أو الحكمة التى ينادى بها الشاعر .

وقد استغل الخيام فى رباعياته كل الصيغ التى صيغت بها الرباعيات من قبله ، غير أن أسلوب الخيام يمتاز بمرونته غير العادية وبرقته وبجرسه الذى يلذ الآذان . وكثيرا ما يختلف المصراع الثالث من رباعيات الخيام من ناحية الوزن الشعرى عن المصاريح الثلاثة الأخرى .

ولغة الخيام سهلة بسيطة ، وكانت سهولتها البالغة فى رباعياته هى التى أكسبت هذه الرباعيات قوتها التى تبعث على الإعجاب ، فجعلت الناس فى فارس الأمراء منهم والسوقة والمثقفين والفلاحين يرددون هذه الرباعية وتبثها بعض لواعج نفسه وخطراتها ، ثم يلقيها على أصدقائه

ونحن لا نجد فى رباعيات الخيام غير هواجس نفس الخيام المنطلقة النائرة تارة ، والمطمئنة الهادئة تارة أخرى . وهو يمثل روحه أصدق تمثيل ، فهو الشاعر الذى ما عرف غير الطبيعة وما فيها من جمال وفتنة ، ونفسه وما فيها من آلام وأفراح وشجون واتراح . فهو لم يتغزل الا بالطبيعة وما أنتجت الطبيعة من حسن وجمال ، وهو لم يصف الا ما كانت تشعر به نفسه الهائجة النائرة ، وهو لم يسخر الا بما كان يتعارض وحربته ، وهو فى ذلك كله كثير الشبه بالشاعر « سوفوكليس » عند اليونان ، وفرجيل عند الرومان ، وراسين عند الفرنسيين .

وقد اختار الخيام لرباعياته ألفاظا تناسب المعنى والمقصد ، وساق رأيه مدعما بالحجج والأسانيد القوية بأربعة مصاريح فى قوة ومتانة . وانسجام مثال ذلك هذه الرباعية :

أنت يارب كريم ، أنت ذو لطف ومن

فلم تطرد العاصى عن جنة عدن ؟

ليس جودا منك أن تعطينى عن حسناتى

انما جودك أن تؤتينى عن سيئاتى

ثم انظر الى هذا المنطق القوي الذي يتجسم فى هذه الرباعية :

يقول المتقون غدا ستجى
على ما كنت فى هذى الحياة
للا اخترت الحبيبة والحميا
لاحشر هكنا بعد المات

والخيام عندما ينظم رباعية من الرباعيات يحشد فيها جمعا من الخيال والنقد والسخرية ، لذلك نجد الرباعية تخاطب النفس قبل الأذن ، فتحدث هزات عنيفة فى شعور السامع وصددمات قوية فى جوانح القارىء . ثم تترك أثرا عميقا تعقبه ضحكة طويلة أحيانا ، وأسفا بليغا أحيانا أخرى . وهو يرسل الألم والفرح والنصيحة والحكمة متنقلا بالقارىء من رأى الى رأى ، صارخا ضاحكا ، مداعبا مازحا ، وبهنا يظهر مهارته اللغوية والفكرية بأجلى مظاهرها .

فلسفة الخيام من

رباعياته

ان النظرة الأولى الى رباعيات الخيام توحى بأن الخيام كان خليعا مدمنا على الخمر متهاكما على النساء ، ولكن الواقع غير ذلك ، اذ ليس من طبيعة الأمور أن يكون شخص مثل عمر الخيام الذى كانت له الصدارة فى مجالس العلماء والفلاسفة ، والذى عرف انه كان جليسا للملوك والأمراء يكون ديدنه الخمر والنساء ولا شئ غير ذلك .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الرباعيات لا يمكن أن نعدّها صورة صادقة لفلسفة الخيام لأنها كانت خطرات عابرة ضمنها بعض ما كان يشعر به فى قرارة نفسه ، فجاءت صورة صادقة لكثير مما يشعر به المرء بوجه عام عندما يتأمل هذه الحياة ، ويرى ما بها من المتناقضات والمعميات .

ليست فلسفة الخيام مجرد خمر ولذة وسعادة وهناء ، انما هو تناول فى رباعياته بأسلوبه الساحر المرح كل الموضوعات التى تناولها الفلاسفة والمفكرون قبله ، كالموضوعات الطبيعية والرياضية والالهية العملية ، وتكلم عن المادة والزمان والجبر والقضاء والقدر والعدم والتناسخ ومصير البدن بعد الموت .

والخيام فى مسائل ما وراء الطبيعة كان من الفلاسفة اللا أدريين ، وهم الذين يعترفون بالجهل ويرون أن العقل الانسانى قاصر عن ادراك

هذه المسائل فما من أحد في رأيهم طلب الكشف عن حقيقة الموجودات
الا وعاد بالفشل . أما الحقيقة التي لا مرأ فيها في نظره فهي أن الانسان
خلق من تراب ثم مصيره بعد ذلك الى التراب :

كم سرت طفلا لتحصيل العلوم وكم
أصبحت بعد بتدريسي لها طربا
فاسمع ختام حديثي ما بلغت سوى
أنى بدئت ترابا ثم علت هبا

والخيام يكرر هذا المعنى في كثير من رباعياته ، وكان هذه الظاهرة
قد أصبحت عنده حقيقة ثابتة فأراد أن يؤكد في رباعياته ، وهو في
كل مرة يعرضها علينا في لوحة فنية جميلة تهز المشاعر وتبعث في الوقت
ذاته على التأمل والتفكير فهو يقول :

كان من قبلك في الدنيا رجال ونساء
زينوا الآفاق ، كالأنجم لاحوا وأضاءوا
سوف يغدو جسمك المختال طينا،فهوطين
كان جسما لألوف الناس من قبلك جاءوا

وعلى الرغم من أن الخيام كان من القائلين بقدم العالم ، الا انه لم
يكن من الدهريين الذين لا يعتقدون في وجود اله قادر ، بل كان على
العكس من ذلك يعتقد في اله هو المحرك والمدير لجميع الكائنات ، وأن
كل ما هو موجود قد صدر عنه صدور المعلول عن علته ، وذلك على الرغم من
قوله بقدم العالم .

وهناك رباعيات كثيرة قد أفصح فيها اعتقاده في وجود اله خالق
لكل شيء مثل :

الهي ومجرى كل حي وميت
ورب السما ذات النجوم السواطع
لئن كنت ذا سوء فانك سيلى
وما هو ذنبى ان تكن صانعى

والخيام لم يكن يعتقد في اله مبدع للكون فحسب ، بل كان يعتقد
أيضا أن هذا الاله خير محض لا يصدر عنه الشر ، بل هو اله غفور رحيم
لطيف غير منتقم ، وكان يرى أن ما من أحد يخلو من خطيئة ، وإذا كان

الله سوف يعاقب المذنب على ذنبه ، فسوف تخلص جناته من عباده ، وقد ذكر هذا المعنى فى كثير من رباعياته :

يا واسع الرحمة ذنبى عظيم
وانت بالخلق رؤوف رحيم
فان مت يا خالقى آثما
فاغمر باحسانك عظمى الرميم

وتنبه الأنام الى الأيام وتقلبات الزمان من الموضوعات المطروقة التى تناولها الشعراء والفلاسفة قبل الخيام وأكثروا منها القول ، غير أن الخيام فى تناوله لهذا الموضوع قد قربه الى القلوب والأفهام ، ورسم له أكثر من صورة فنية رائعة . وهو فى كل مرة يكشف عن ناحية جديدة منه تبعث فى نفس القارئ احساسيس ومشاعر جديدة تجعله يحلق بفكره فى أحداث العالم وتقلباته ، وتدفعه الى التأمل فى مصير الانسان ومآله . هذا الانسان الذى أعماه الغرور فأخذ يصول ويجول وكان الحياة قد كتبت له الى أبد الأبدى فمن ذلك قوله :

ايها العين انظرى الأحداث ان كنت ترين
وانظرى الآفات فى الدنيا ملان الخافقين
كم رجال ضمت الأرض ملوكا ورعايا
ووجوه اكل النمل كاقمار اللجين

فهو فى هذه الرباعية يسأل العين أن تنظر الى من كانوا ملوكا وكانوا أقمارا كالفضة المنابة ، كيف طواهم الردى وأكلت أجسامهم نمال الأرض وديدانها . وهو يقول فى رباعية أخرى :

ايها الفتون بالدنيا ، ألا كفكف جواك
أفلا فكرت فى صرف الليالى ان دهاك
ادكر آخر انفاسك ، واستجمع نهاك
وتأمل ما افاعيل الليالى بسواك

والتوبة وطلب الغفران من موضوعات الشعر التى طرقها الشعراء فى مختلف العصور . ولكن الطريقة التى اتبعها الخيام فى عرض هذا الموضوع تجعل القلب يخفق والعيون تسمع ، والعقل يشرد ويتدبر فهو يقول :

ألا ارحم يا الهى لى فؤادا
من الأشجان أسمى فى عذاب

ووجلا بن سعت للحنان قلها وكلا اسمكت قسطح الشراپ

ان الخيام فى هذه الرباعية يطلب العفو والمغفرة ، ولكنه لا يطلبها لنفسه ، انما يطلبها لغيره أى ليدية ورجليه - وان كانا من أعضائه وهذا من شأنه أن يقوى من دعائه لأن التوسل وطلب المغفرة للمرء ذاته يعد نوعا من الانانية وحب الذات ، لكنه هنا يطلب العفو لبعض أعضائه لأنها بريئة مما ارتكبت ، اذ هى لا تستطيع أن تفعل شيئا بمحض ارادتها ، انما هى مسيرة وفقا لرغبات النفس ونزواتها .

وهو يطلب العفو والمغفرة من رب غفور رحيم ، وهو يطلب ذلك بأسلوب كله منطق واستدلال عقلى ، ولا غرو فى ذلك فهو الى جانب شاعريته الممتازة ، رياضى بارع خبير بالمنطق الرياضى الذى لا يقبل الزيادة أو النقصان ، لأن الرياضة لا دخل فيها للاعتبارات الشخصية ولا مجال فيها للمجدل . وهو على هذا الأساس يطبق هذا المنطق الرياضى على مسائل الدين والقضاء والقدر ، مثال ذلك هذه الرباعية :

اننى يارب عبد مذنب فاين رضاؤك
وفؤادى كالدياجى مظلم اين ضياؤك
واذا أعطينا الجنة بالطاعة منا
كان هذا منك بيعا اين يارب عطاؤك

واذا كان الانسان بحكم المجتمع الذى يعيش فيه مضطرا الى معاشره الناس ، فعليه أن يختار من يعاشره ، فليس كل انسان خليقا بالمعاشره أو المحادثة ، انما أهل العلم والفضل هم وحدهم من تصح معاشرتهم ، ثم البعد بعد ذلك عن الجهال مهما أبدوا من حسن النية والطوية :

عاشر من الناس كبار العقول
وجانب الجهال أهل الفضول
واشرب نقيع السم من عاقل
واسكب على الأرض دواء الجهول

★★★

الرباعيات

اثر اسطورى فى الشرق والغرب

والواقع أن عمر الخيام كان من رجال العلم المتبحرين فى شتى العلوم والفنون كما تشهد بذلك مؤلفاته وأقوال معاصريه ، ولكنه كان فى الوقت

ذاته سابقا فى تفكيره على أهل عصره بسنوات كثيرة ، كما كانت أفكاره وآراؤه الجريئة التى ضمنها رباعياته موضع سخط رجال الدين والمحافظين من رجالات ذلك العهد ، ولذلك كله لم نجد أحدا من المؤرخين العرب أو الفرس المشهورين قد اهتم بشعر الخيام وحدد لنا مكانته بالنسبة لمعاصريه من الشعراء . انهم ذكروا الخيام على اعتبار انه عالم رياضى ومن رجال الفلك الذين كان لهم شأن فى اصلاح التقويم فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ، وأغفلوا أشعاره المليئة بالقدح والسخرية من المنافقين وبعض رجال الدين فى عصره . والغريب أن تكون بعض أشعاره ومؤلفاته قد أفلتت من التدمير ووصلت إلينا على الرغم من هذه الروح العدائية التى كانت تغلّ بها صدور الكثيرين من أعدائه وحاسديه .

ان الفضل فى شهرة الخيام وذيوع صيته ، يرجع من غير شك الى العلماء والشعراء الدارسين فى كل من أوروبا وأمريكا . وقد لا نكون مبالغين اذا قلنا انه لولا اهتمام الغربيين بالخيام لكان النسيان قد احتوى هذا الشاعر فى جوفه كما حدث لكثير غيره من أهل العلم والفن .

على أنه من الخطأ أن نقول ان الغربيين كانوا أول من كشف عن روعة الرباعيات وجمالها الشعرى ، فقد رأينا كيف ان الامبراطور « أكبر » قد أفصح عن إعجابه واكباره لرباعيات الخيام وذلك قبل ان يعرف الأوروبيون والأمريكيون الخيام بسنوات طويلة .

والواقع انه قد ظهرت فى المشرق من وقت لآخر طبقات مختلفة من رباعيات الخيام التى أصبحت أشبه بأثر أسطورى . ولعل أقدم هذه الطبقات ما صدر عام ١٧٨٧ م غير أن أقدم مخطوط لهذه الرباعيات وهو الذى كتب عام ١٤٦٠ م ، وكذلك المخطوط العربى لكتاب الجبر والمقابلة الذى وضعه الخيام قد انتقلا الى أوروبا قبل ذلك بزمن طويل .

ولعل أقدم اشارة ذكرها عالم أوربى عن الخيام هى تلك التى ذكرها الدكتور « توماس هايد » أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد عام ١٧٠٠م وذلك فى كتابه الذى وصفه باللغة اللاتينية عن تاريخ أديان الفرس .

وجاء بعده المستشرق النمساوى « يوسف فون هامر برجستال » فوضع كتابا فى تاريخ الآداب الفارسية ، وترجم فيه شعرا بعض رباعيات الخيام الى اللغة الألمانية ، وقال عنه انه واحد من أشهر شعراء الفرس وحيد بابيه فى النزعة الدينية الواضحة فى أشعاره .

وفى عام ١٨٥١ م نشر الدكتور « وبكه » Woepcke

أستاذ الرياضيات بجامعة بون نص كتاب الجبر والمقابلة لعمر الخيام.
مع ترجمته الفرنسية وقال عن الخيام انه أعظم الرياضيين .

وترجم المستشرق « جارش دى تاسى » فى عام ١٨٥٧ م عشر
رباعيات من رباعيات الخيام الى اللغة الفرنسية ونشرها فى المجلة الآسيوية
التي تصدر بباريس .

وفى عام ١٨٥٨ م نشر « ادوارد كوديل » الأستاذ بجامعة كلكتا
بحثا مستفيضا عن الخيام فى مجلة كلكتا ، وترجم فى هذا البحث ثلاثين
رباعية من شعر الخيام نقلها الى الانجليزية شعرا مرسل .

وظهرت فى عام ١٨٥٩ م الترجمة الشهيرة لرباعيات الخيام وهى
الترجمة التي قام بها « ادوارد فترزجالد » الانجليزى ، فكانت فاتحة
عهد للدراسة الخيام ورباعياته .

هذا وقد ترجم المستشرق الانجليزى « ادوارد هيرون » الرباعيات
الى الانجليزية نثرا عام ١٨٩٨ م وهناك الى جانب ذلك ترجمات أخرى
للرباعيات الى اللغة الانجليزية ، ولكنها لم تبلغ شأوا ترجمة « فترزجالد » .
من حيث الروعة والجمال الشعرى .

وكان أول من نقل رباعيات الخيام الى اللغة العربية نظما هو الشاعر
« وديع البستاني » فقد نقل من هذه الرباعيات ثمانين رباعية ، فكان له
فضل فى لفت أنظار الناطقين بالضاد الى رباعيات الخيام ثم جاء بعده
الأديب محمد السباعى فترجم أكثر من مائة رباعية الى العربية .

وفى عام ١٩٢٤ أصدر الشاعر أحمد رامى ترجمة لرباعيات الخيام
نقلا عن الفارسية . وهو يقول فى مقدمة ترجمته انه قيد نفسه بالأصل
تقييدا وصل به الى اثبات القوافى العربية التي وضعها الخيام فى كثير
من رباعياته . والشاعر أحمد رامى لم يترجم فى الوقت ذاته كل رباعيات
الخيام ، وانما اختار منها ١٧٥ رباعية تمثل للقارىء نفسية الخيام
وفلسفته وتغنييه عن قراءة الرباعيات كاملة ، لانه هو الآخر قد هالته كثرة
المعاني التي كررها الخيام فى أكثر من رباعية . وقد استهل ترجمته بهذه
الرباعية :

سمعت صوتا هاتفا فى السحر
نادى من القبر غفاة البشر
هبوا املاوا كأس الطلى قبل أن
تفعم كأس العمر كف القدر

ومن ترجمته :

لُبست ثوب العيش لم استشر
وحررت فيه بين شتى الفكر
وسوف انضوه برغمي ولم
ادرك لماذا جئت - أين المفر

وهذه الترجمة تفوق بكثير أى ترجمة عربية للرباعيات من حيث الصياغة الشعرية ومطابقتها للأصل الفارسي ، فجاءت صورة واضحة من فلسفة الخيام وتعكس فى ثناياها رقة الخيام ودقة مشاعره وأحاسيسه ، ولاغرو فى ذلك فهى ترجمة شاعر غنائى مطبوع درس الفارسية دراسة جبلة ، ثم قرأ هذه الرباعيات فى لغتها الأصلية ، واجتهد أن يعيش فى الجو الذى عاش فيه الخيام ثم قام بعد ذلك بترجمتها الى العربية فجاءت تحفة فنية رائعة .

● نادى عمر الخيام بلندن :

وقد شكلت فى لندن جمعية باسم « نادى عمر الخيام » أسسها سنة ١٨٩٢ م بعض أصحاب الجرائد الكبرى ونخبة من الفضلاء والكتاب . ومن مظاهر تعلق أعضاء هذا النادى واعجابهم بعمر الخيام وبمترجم رباعياته الى الانجليزية « ادوارد فتزجرالد » أن كلفوا أحد أعضاء هذا النادى وهو « المستر وليم سمبسون » بالسفر الى نيسابور موطن الخيام واحضار بعض عقد من شجر الورد النامى فوق مقبرة الخيام . وقد عولجت هذه العقد بعناية بحدائق كيو بلندن ، فأخرجت بنورها شجرة من الورد غرست الى جانب مقبرة « فتزجرالد » ووضع الى جانبها شاهد عليه هذه العبارة :

« استنبت شجرة الورد هذه فى حدائق كيو من عقد أحضرها الرحالة الفنان وليم سمبسون من مقبرة عمر الخيام بنيسابور وزرعها نقر من المعجبين بادوارد فتزجرالد باسم عمر الخيام - ٧ أكتوبر سنة ١٨٩٣ » .

● نادى عمر الخيام بأمریکا :

وقد ظهر هذا النادى فى عالم الوجود عام ١٩٠٠ . ونشر أعضاء هذا النادى فى عام ١٩٢١ كتابا بعنوان « عشرون سنة من حياة نادى عمر الخيام » . وهذا الكتاب محلى بلوحات جميلة ويحوى سجلا هاما عن مدى أعمال ونشاط هذا النادى .

هوامش

- (١) القفطى : على بن يوسف القفطى (١١٦٧ - ١٢٤٨) • أديب ومؤرخ مصرى •
ولد فى قفط بمصر • وسكن حلب ، وتولى بها القضاء ثم الوزارة •
- (٢) مرو : مدينة قديمة بصحراء تركمانستان • كانت تدعى (مرجيانا) يوم كانت
عاصمة إحدى المقاطعات الشمالية لفارس القديمة •
- (٣) قصبة : أعظم مدن البلاد •
- (٤) أكبر : (١٥٤٢ - ١٦٠٥) اسمه الأصل جلال الدين • ولقب بالأكبر لما قام
به من جلائل الأعمال فى أثناء مدة حكمه (١٥٥٦ - ١٦٠٥) •
- (٥) الشيرازى : (١٣٢٠ - ١٣٨٩) شاعر غنائى إيرانى • سمي حافظا لأنه كان
يحفظ القرآن الكريم •
- (٦) المصراع : نصف البيت فى الشعر •

الأحياء
أبو حامد الغزالي
١١٠٠ م

كان « الغزالي » واحدا من المفكرين البارزين في العالم الاسلامي ،
خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي . . وكان فكره يمتاز
بالجدة والابتكار . . وهو - فوق ذلك ، يعد فيلسوفا فريدا في عصره . .
فقد كان يؤمن بأن « العقل » لا يستطيع ان يحيط بكل الأشياء بل هو
يعجز عن ادراك الحقيقة ، وإن الذوق وحده القادر على ذلك الإدراك .
فقد قذف الله الى قلب فيلسوفنا نور الحقيقة فانزاجت عنه الظنون
وعاد الى حال من الطمأنينة والهدوء .

انه « أبو حامد بن محمد الغزالي » الملقب « بحجة الاسلام » الذي
ولد عام ٤٥٠ هـ في « طوس » وهي بلدة من أعمال « خراسان » .

نشأة الغزالي

كان والد الغزالي غزالا يعيش من غزل الصوف ، فلما دنا أجله ،
وولده محمد وأحمد لا يزالان صغيرين ، وصى بهما صديقا له من المتصوفة
فرباهما أحسن تربية . وما أن بدأ « محمد الغزالي » دراسته حتى ظهرت
عليه آثار النبوغ والذكاء ، فلم تقنعه أدلة الفقهاء ولا أرضته علومهم ،
فرحل الى « نيسابور » ، واتصل بامام الحرمين (١) ، ودرس عليه علم
الكلام ثم تعلم الجدل والمنطق واطلع على الآراء والمذاهب على اختلاف
أنواعها .

ولما مات امام الحرمين سنة ٤٧٨ هـ تعرف الغزالي الى الوزير نظام
الملك فسماه أستاذا في المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٨٤ هـ ، وهناك
في بغداد أخذ نجمه يتألق وصيته ينتشر ، لسعة علمه وفصاحة لسانه ،
فاقبل عليه طلاب العلم من كل حذب وصوب . وعلت منزلته عند الولاة
فتعلقوا به ، وانكبوا عليه ، وبلغوه كما يقول جاهها عريضا ، وشأنا خاليا
من التكدير ، وأمنا صافيا بعيدا عن منازعة الخصوم .

ورأى الغزالي وهو يدرس في بغداد ان يقرأ الفلسفة من غير استعانة
بأستاذ ، فاقبل عليها في أوقات فراغه وحذقها وألف فيها كتابا يسماه

« مقاصد الفلاسفة » توطئة لنقدها وإبطالها في كتاب آخر جاء من بعد ذلك سماه « تهافت الفلاسفة » .

الغزالي يعتزل الناس

ومن أن الغزالي كان يقصد من تأليف هذين الكتابين إلى إرضاء نسوكة الفكرية وشفاء اضطرابه الباطني ، فان اضطرابه النفسي بلغ به حدا أورثه شكاً في جدوى عمله . لاحظ نفسه فوجدها منغمسة في العلائق . وفكر في نيته في التدريس فوجدها غير خالصة لوجه الله . ولم يزل يتردد بين الانكباب على العمل ، والاعراض عنه ، حتى اعتقل لسانه عن التدريس ، وأحسن بعجزه عن مقاومة ما أصابه من حزن وقلق ، فكان لا ينساغ له طعام ولا تنهض له لقمة . وتعدى ذلك إلى ضعف قواه حتى قطع الأطباء طعمهم من علاجه ، فعزم على ترك التدريس ، والاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب . وخرج من بغداد سنة ٤٨٨ هـ يقصد الحج إلى بيت الله الحرام ، وهو ينوي أن لا يعود إلى العراق أبداً . فبقي مدة عشر سنوات يتنقل في زى الفقراء بين دمشق والقدس ومصر والاسكندرية والحجاز ، يقضى أوقاته كلها في العبادة معتكفا زاهداً ، يجاهد نفسه ويقهرها ، ويجول في البلدان ويزور المساجد ويأوى إلى القفار وينزوى في المغارات ، ويتعرض لمختلف المشاق والمحن .

فانكشف له في هذه الخلوات أمور روحية كثيرة ، رأى معها أنه لا ينبغي له أن يلزم الكسل والاستراحة في وقت بلغ فيه الانحلال الديني والخلقي درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد . وتساءل : أفيجوز لمثله أن يرى الخطر المحقق بالدين ولا يعمل على درئه ؟ .

لقد أخذ يشعر عندئذ بأنه صاحب رسالة ، وإن عليه أن يصلح الناس كما أصلح نفسه . فلما عاد إلى وطنه بعد أن كان أبعد الخلق رغبة في الرجوع إليه ، أمره السلطان بالنهوض إلى « نيسابور » لمعاودة نشر العلم ، فشاور في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فأشاروا بترك العزلة والخروج من الزاوية . وانضاف إلى ذلك يقول منامات من الصالحين تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، فلبى دعوة السلطان ، وذهب إلى نيسابور للقيام بهذه المهمة سنة ٤٩٩ هـ . وعاد إلى نشر العلم ، والعمل على إحياء دين الله قال : « وأنا أعلم أنني وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت . فان الرجوع عود إلى ما كان . وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعمل ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني . وأنا أبغى أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري الأصل إلى مرادى أم أخترم دون غرضي ، (المنقذ من الضلال) . .

ولم يعيش الغزالي بعد خروجه من عزلته الا ست سنين ، انقطع خلالها الى نشر دعوته الدينية بالتدريس والوعظ والارشاد ، ثم مات وهو مشغول بلبخاري ومسلم سنة ٥٠٥ هـ .

مؤلفات الغزالي

لم يترك الغزالي التأليف حتى في سنوات الخلوة التي قضاها في التنقل والعبادة ، فبلغت مؤلفاته - على قصر حياته واضطرابها - عددا ضخما يدل على المجهود العظيم الذي بذله لنشر دعوته . وأكثر مؤلفات الغزالي تدور حول موضوع واحد هو الفكرة الدينية . ومن خصائصها وحدة الموضوع ، ووحدة الفكرة ، وقوة التعبير ، ودقة الاسلوب ، والبعد عن الصناعة اللفظية ، والصراحة في القول . يشعر القارئ في كل جملة من جملة بأن هناك حياة تتدفق ، وقلبا يخفق ، وفكرا يجول ، وإرادة تملئ .

وللغزالي أكثر من مائتي كتاب ومقالة ورسالة ، منها المطبوع ، ومنها المخطوط ، ومنها المفقود ، والمفقود منها أكثر من المطبوع . وهي تتناول موضوعات مختلفة كالصوف ، والعقائد ، والفقه ، والأصول ، والفلسفة والمنطق . وأهم هذه الكتب في نظرنا هي : كتاب « احياء علوم الدين » الذي يمكن ان يسمى الموسوعة الدينية الجامعة وكتاب « تهافت الفلاسفة » ، وكتاب « المنقذ من الضلال » ، وكتاب « القسطاس المستقيم » ، وكتاب « ميزان العمل » ، وكتاب « المستظهرين » وكتاب « الجوامع العوام عن علم الكلام » ، وكتاب « مشكاة الأنوار » ، وكتاب « الاقتصاد في الاعتماد » وكتاب « معيار العلم » وكتاب « كيمياء السعادة » .

بيد اننا اذا تصفحنا مؤلفات الامام الغزالي - سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف في أثنائها - فاننا نجد ان أهمها في نظر الباحث الذي يريد ان يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة ، وهي فضلا عن ذلك ، تعتبر في نظرنا أهم كتبه على الإطلاق .

ولو لم يؤلف الامام الغزالي غيرها لبقى هو الغزالي العملاق ، الصوفي ، الفيلسوف ، بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئا . . . ولكنه لو لم يؤلفها لما كان هو الامام الغزالي صاحب الأثر الخالد على الدهر .

١ - أما أحدهما : فانه كتاب المنتقد من الضلال .

وهو كتاب لا غنى عنه للباحث في تطور حياة الغزالي الفكرية .
ففيه يقص الامام حياته الفكرية ، في تطورها من الدراسة المستفيضة الى
الشك ، ثم الى اليقين .

٢ - وأما ثانيها فانه : كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به ، فان الامام الغزالي حينما
سمى كتابه : تهافت الفلاسفة - كما يقول « أزين بلاسيوس » - كان
يريد ان يمثل لنا : ان العقل الانساني يبحث عن الحقيقة ، ويريد الوصول
اليها ، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فاذا أبصر شعاعا ، يشبه
نور الحقيقة ، انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ .
مخدوعا بأقيسة منطقية خاطئة ، فيهلك كما يهلك البعوض .

فكان الغزالي يريد أن يقول : ان الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا
اليها بلا اعمال روية ، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدي .

٣ - أما ثالث الكتب فانه : الاحياء .

وهو أهمها ، وأهم كتب الامام الغزالي عامة ، ولقد قال فيه الامام
النووي « كاد الاحياء أن يكون قرآنا » .

ولقد ألفه الامام الغزالي في أوائل الفترة التي اصطحب فيها مع العزلة
أما فيما يتعلق بالبواعث التي من أجلها ألف الامام « كتاب الاحياء » .
وأما فيما يتعلق بالهدف الذي من أجله ألف كتاب الاحياء ، وأما
فيما يتعلق بجوهر موضوعه فان ذلك كله يتلخص في كلمة واحدة هي :
الاخلاص . ولقد روى ابن الجوزي أن بعض أصحاب أبي حامد سأل
قبيل الموت قائلا : أوصني ، فقال له : « عليك بالاخلاص » ولم يزل
يكررها حتى الموت .

عليك بالاخلاص !! لقد تلفت أبو حامد يوما الى نفسه ، فوجد انه
متجرد من الاخلاص ، وان كل همه ، انما هو الشهرة والصيت والجاه ،
والمنزلة عند الناس وعند الحكام . . وانتفض أبو حامد انتفاضته التي
وضع بها نفسه في محيط الاخلاص .

وتلفت أبو حامد - بعد ذلك - فيما حوله ، فوجد أن الناس صم ،
بكم ، عمي ، عن قوله تعالى « ألا لله الدين الخالص » ، وعن قوله تعالى
« وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، « فادعوا الله مخلصين
له الدين » وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدعو الى الاخلاص في الدين .

والى اخلاص الدين لله وحده وهى فى دعوتها الى الاخلاص انما تدعو الى التوحيد .

ووجد ان الشيطان قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين فى نظر علمائه - فضلا عن غيرهم - فتوى حكومة ، أو جدلا للمباهاة والغلبة والافحام ، أو سجعا مزخرفا يتوسل به الواعظ الى استدراج العوام .

لما رأى أبو حامد ذلك ألف كتابه النفيس .

وألفه ليستعيد الاخلاص الى القلوب ، ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح من اتخاذ الاخلاص أساسا وشعرا . وما من شك فى ان اخلاص الدين لله وحده هو التوحيد ، وما من شك فى ان التوحيد هو جوهر الدين الاسلامى ، وهو طابعه ، وهو هدفه وغايته .

وألف الامام الغزالى كتابه اذن ليبين فيه الاخلاص أسسا ونتائج ، وأسبابا وغايات .

وقد اعتز الغزالى بكتابه هذا وذكر من طلائعه انه يمتاز عما كتبه غيره فى هذا المجال بخمسة أمور هى :

- ١ - حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه
- ٢ - ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه .
- ٣ - ايجاز ما طولوه ، وضبط ما فرقوه
- ٤ - حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه
- ٥ - تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الافهام

ولعل من حق الغزالى ان يفخر بعلمه وبضاعته ، وكيف لا وهذا هو العقد يتحدث فى كتابه « أنا » عما كتبه وعما لم يكتبه ، وعما يريد ان يكتبه فيقول فيما يقول :

« لقد ألفت عن ابن سينا وعن ابن رشد ، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية فى المشرق والمغرب ، وبقي كساب عن الغزالى الفيلسوف الذى يصارع الفلاسفة ، والفقيه الذى يؤدب الفقهاء ، والمتصوف الذى يكشف عن عالم الخفاء ، كما يكشف عن عالم الشهادة .

« وليس فى المشرق والمغرب من هو أرجح فكرا ، وأصفى عقلا ، وأقوى دماغا ، من هذا الامام الجليل ، ولولا اتساع الأفق الذى تدفعنا

اليه الكتابة عنه ، لبدأت بترجمته ، ونقده قبل ابن سينا وابن رشد
وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب ، .

أقسام الكتاب

وقد رتب الامام الغزالي كتابه أقساما ، والأقسام كتباً ، والكتب
أبواباً ، والأبواب فقرات ٠٠٠ كل ذلك ليسهل تناوله .

فأما أقسام الكتاب فهي أربعة :

١ - قسم العبادات :

يذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها ، وأسرار معانيها كل
ما يحتاج العالم العامل الى معرفته من وجوه الاخلاص فيها ، واقامتها على
الأسس التي يحبها الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

٢ - قسم العادات :

يذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق ، وأغوارها ، ودقائق
سننها ، وخفايا الورع في مجاريها ، وذلك مما لا يستغنى عنه متدين .

٣ - قسم المهلكات :

وهي الأخلاق المذمومة التي ورد القرآن بتطهير القلب منها : يعرف
بها ، ويذكر أسبابها وما ينشأ عنها من مضار ، ثم يذكر طرق العلاج منها .

٤ - قسم المنجيات :

يذكر فيه كل خلق محمود ويشرح الوسائل التي بها يكتسب ،
والثمار التي تجنى من التخلق به .

وهو في كل هذه الأقسام يبتدىء كل موضوع يعالجه بذكر
الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية والآثار عن الصحابة والتابعين ،
وأخبار الصالحين .

ويعلل الغزالي تقسيم كتابه الى الأقسام الأربعة السابقة بقوله :

« وانما حملني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران :

أحدهما - وهو الباعث الأصلي - ان هذا الترتيب في التحقيق
والتفهم كضروري ، لأن العلم الذي يتوجه به الى الآخرة ينقسم الى علم

المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وأعنى بعلم المكاشفة ما يطلب منه كشف العلوم فقط وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به .

والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط ، دون علم المكاشفة ، التى لا رخصة فى ايداعها الكتب ، وان كانت هى غاية مقصد الطالبين ، ومطمع نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق اليه ، ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق ألا وهى علم الطريق والارشاد اليه .

وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه الا بالرمز والايماء على سبيل التمثيل والاجمال ، علما منهم بقصور افهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء ورثة الأنبياء ، لما لهم سبيل الى العنول عن نهم التأسى والاقتداء .

ثم ان علم المعاملة ينقسم الى علم ظاهر ، أعنى العلم بأعمال الجوارح ، والى علم باطن ، أعنى العلم بأعمال القلوب ، والجارى على الجوارح أما عادة واما عبادة ، والوارد على القلوب التى هى بحكم الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت ، اما محمود واما مذموم ، فبالواجب انقسم هذا العلم الى شطرين ، ظاهر وباطن ، والشطر الظاهر المنطق بالجوارح . انقسم الى عادة وعبادة . والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم الى مذموم ومحمود . فكان المجموع أربعة أقسام ، ولا يشذ نظر فى علم المعاملة عن هذه الأقسام .

الباعث الثانى : انى رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة فى الفقه الذى صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى ، المتدرع به الى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته فى المناقشات وهو مرتب على أربعة أرباع ، والمتزيبى بزي المحبوب محبوب ، فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تلطفا فى استدراج القلوب .

كتاب العلم

ويفتح الغزالي كتابه « بكتاب العلم » فيسير فيه على حسب طريقته المحددة (شواهد الآيات ، والأخبار ، والآثار) و (شواهد الشرع والعقل) .

لقد « شهد الله ، انه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » .

فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى بالملائكة ، وثلت بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفا ، وفضلا وجلاء ونبلا .

ويقول صلوات الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ومعلوم
أنه لا رتبة فوق النبوة ، ولا شرف فوق شرف الورثة لتلك الرتبة .
وقال الأحنف رحمه الله : « كاد العلماء أن يكونوا أربابا » .

والعلم الذى يريد به الامام الغزالي انما هو علم الدين والدنيا ،
ولا يحرم الامام الغزالي منه الا ما يضر المجتمع ، كعلم السحر مثلا : فاذا
أدى العلم الى ضرر ما ، اما لصاحبه أو لغيره كان مذموما .

والهدف من العلم على كل حال زيادة الهداية وغرس الاخلاص فان
« من ازداد علما ولم يزد هدى ، لم يزد من الله الا بعدا » .

كتاب قواعد العقائد

ولا بد للاخلاص من معرفة العقائد الصحيحة ولذلك يشنى الامام
الغزالي بكتاب : « قواعد العقائد » ، وقواعد العقائد تدور حول :

١ - الله وصفاته والاساس فيه ، انه ليس كمثله شئ وانه متصف
بكل صفات الكمال : كالحياء والقدرة ، والعلم الشامل ، والارادة الكاملة
وغير ذلك من صفات الجلال والجمال .

٢ - وانه سبحانه بعث محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، برسالة الى
كافة العرب والعجم ، فنسخ بشريعه الشرائع الا ما قرره منها ، ومنع
كمال الايمان بشهادة التوحيد ، وهو قول : لا اله الا الله ما لم تقترن
بشهادة الرسول ، وهو قولك محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه
فى جميع ما أخبر به من أمور الدنيا والآخرة .

وسواء كنا بصدد معرفة وجوده تعالى ، أو معرفة صفاته ، أو معرفة
أحوال الآخرة ، أو معرفة صدق الرسول صلوات الله عليه ، فان أول
ما يستضاء به من الأنوار ، ويسلك من طريق الاعتبار ، ما أرشد اليه
القرآن ، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان ، ومن القرآن ارشاد واستدلال
واضح على كل ذلك .

ويتهى الانسان للاخلاص بالطهارة ، والطهارة ظاهرية وباطنية ،
وقد أطال الامام الغزالي فى الطهارة الباطنية ، أما الطهارة الظاهرية فمنها
الوضوء .

والوضوء على الوضوء نور على نور ، بيد أن الوضوء انما شرع من أجل الصلاة ، والصلاة : انما هي الباب الذى يدخل الانسان منه الى الله سبحانه وتعالى : يناجيه ، وينغمس فى رحابه ، ويستنير بنوره ، وهي من أجل ذلك كانت عماد الدين ، وعصام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات ، وكانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، وانها لتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي كذلك بشرط الخضوع وحضور القلب .

ويقرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة فى غير ما موضح « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقد جعلها الله تزكية ، وبفضلها تزكى من عباد الله من تزكى ، وقد شدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ومعنى الانفاق فى سبيل الله : اخراج حق الزكاة ، والزكاة نوع من تجريد الانسان عن جزء من المادة بعد امتلاكه ، وذلك من أجل الله .

والصوم باب العبادة وباب الاخلاص ، فاذا ما صام الانسان ايمانا واحتسابا ، باهى الله به ملائكته ، وكانت كل حركاته عبادة حتى نومه .

ويقسم الصوم الى ثلاث درجات : صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وصوم الخصوص وهو كف الجوارح عن الآثام ، وصوم خصوص الخصوص : وهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية .

ويكفى فى فضل الحج ما رواه الشيخان البخارى ومسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

والقرآن كتاب الاسلام المنزل ، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من تمسك به هدى ، ومن عمل به فقد فاز ، ولقد قال صلوات الله عليه : « أهل القرآن أهل الله وخاصته » . والقرآن : رسائل أتت من قبل ربنا بعهوده . نتدبرها فى الصلوات ، ونقف عليها فى الخلوات ، وننفذها فى الطاعات والسنن المتبعات ، وهو شفاء ورحمة للمؤمنين ، وتلاوته اذن مطلوبة جلاء للقلوب ، وشفاء لما فى الصدور ، وغرسا للاخلاص ، وتثبيتا للتوحيد .

قسم : العادات

وبعد أن ينتهى الامام الغزالى من ربيع العبادات يبدأ فى ربيع العادات ، فيبين فيه آداب الأكل وآداب النكاح ، ثم يبين آداب الكسب والمعاش ،

ويتحدث عن فضيلة العمل ، وعن الآثار الكثيرة : قرآنية ونبوية ، في فضل العمل وفي استقالة العمال والتجارة ، فمن الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهم في طلب المعيشة ، والتاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء .

ويخلص من ذلك الى كتاب جليل نفيس وهو « كتاب الحلال والحرام » . والحلال كله طيب ولكن بعضه أطيب من بعض ، والحرام كله خبيث ، ولكن بعضه أخبث من بعض . ويفصل الامام كل ذلك لينتهي الى « كتاب آداب الألفة والاخوة والصحبة . . . » وأساسه حسن الخلق ، والتأسي فيه بالرسول الذي يقول الله له : « وانك لعلی خلق عظيم » . وقد بعث صلوات الله عليه ليتم مكارم الأخلاق ، فاذا ما كان حسن الخلق كانت الاخوة ، وفائدة الاخوة كما يريد لها الدين عظيمة . ولقد قال صلوات الله عليه في الثناء على الاخوة في الدين : « من أراد الله به خيرا رزقه خليلا صالحا ، ان نسي ذكره وان ذكر أعانه » ومن أروع ما قاله صلوات الله عليه في ذلك : « مثل الأخوين ، اذا التقيا : مثل اليدين : تغسل احدهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان قط الا أفاد الله احدهما من صاحبه خيرا » .

ثم يتحدث عن العزلة والاختلاط بين أنصار كل منهما وخصومه . ليرى ان كلام الشافعي رحمه الله في هذا الموضوع هو فصل الخطاب . اذ قال : « يا يونس ، الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط » فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة . ويختلف ذلك بالأحوال . وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل هذا هو الحق الصراح . وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر . وانما هو اخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له في الحال .

والسفر للعظة والاعتبار من أعظم ما يفيد الانسان في جانبه الروحي ، ولكن السفر قد يكون بسير القلب عن أسفل السافلين الى ملكوت السموات ، وهو أشرف من السفر بظاهر البدن ويجمع السفرين ويبحث عليهما قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » .

ويختتم الغزالي ربيع العادات : « آداب المعيشة وأخلاق النبوة » فيبين ما كان عليه الرسول عليه السلام من خلق . كما في القرآن ويشرح في استفاضة ما يوضح قول الله تعالى لرسوله « وانك لعلی خلق عظيم » .

قسم : المهلكات

ويبندى ربع المهلكات بكتاب من أنفس الكتب ، لا غنى عنه قط ، لمن يريد أن يعالج التصوف عمليا ، أو أن يقتنع بحقيقته نظريا ، ذلك هو كتاب « شرح عجائب القلب » وأهميته ترجع الى أن القلب هو العالم بالله ، وهو المتقرب الى الله ، وهو العامل لله ، وهو الساعى الى الله ، وهو المكاشف بما عند الله ولديه ، فاذا تساءلت : ما معنى القلب الذى له هذه المنزلة ؟ فانه : « هو لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان ، وهو المخاطب والمعاتب والمطالب » .

ويتلو ذلك كتاب « رياض النفس وتهذيب الأخلاق » ومن هذا العنوان وحده نفهم ان الامام الغزالي مزج بين رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ، والخلق الحسن : انما هو صفة سيد المرسلين ، وأفضل أعمال الصديقين ، وهو على التحقيق شطر الدين ، وثمره مجاهدة المتقين ، ورياضة المتعبدين . ولقد كان صلوات الله عليه يقول : « ان أحبكم الى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا » .

وأعظم المهلكات ، لابن آدم ، شهوة البطن فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذل والافتقار ، اذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلتا منها ، فبدت لهما سوءاتهما .

واذا كان الأمر كذلك فلا بد من كسر هذه الشهوة ، ومما يساعد على كسرها ، ألا يأكل الانسان الا حلالا ، وألا يجعل الأكل هدفا وغاية . والأفضل بالاضافة الى الطبع المعتدل ، أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ، ولا يحس بألم الجوع ، بل ينسى بطنه فلا يؤثر فيه الجوع أصلا ، فان مقصود الأكل بقاء الحياة ، وقوة العبادة ، وثقل المعدة يمنع من العبادة ، وألم الجوع أيضا يشعل القلب ويمنع منها .

ثم يتحدث الامام عن « آفات اللسان » . وما من شك في أن اللسان من نعم الله العظيمة . ولطائف صنعه الغريبة ، ولكن الناس تساهلوا في الاحتراز عن آفاته وغوائله ، وهي كثيرة ، وما من شك في أن من أسباب النجاة ما نصح به الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله « أمسك عليك لسانك » .

والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والاستهزاء ، والسخرية : كل ذلك من آفات اللسان والمثل العربى يقول : « مقتل الرجل بين فكيه » . والطريقة المثلى ألا يتحدث الرجل بما يغضب الله .

ومن الآفات التي تفسد على الناس أمورهم « الغضب » . وقد روى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مرني بعمل وأقلل ، فقال له ، صلوات الله عليه : « لا تغضب » فأعاد الرجل السؤال ، فقال له : « لا تغضب » . ومما يزيل الغضب الجلوس إذا كان الإنسان قائماً ، والاضطجاع إذا كان جالساً ، ومما يزيل الغضب الوضوء والغتسال ، ومنها السجود . « ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن وجد ذلك شيئاً فليصق خده بالأرض » . وهذه إشارة إلى السجود .

وحب الدنيا رأس كل خطيئة ، ولا يزال ابن آدم يجرى وراءها في جشع وفي تكالب فتستعبده إلى أن يهلك ، والمؤمن يستعبد الدنيا ، فتذل له ، فيتخذها مطية للآخرة .

ومحب الدنيا بخيل ، لأنه متكالب عليها ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول : أنا أنزلنا المال ، لأقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من ذهب ، لأحب أن يكون له ثان ، ولو كان له الثاني ، لأحب أن يكون له ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

أما المقياس الصحيح ، فهو قوله تعالى : « ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون » .

وحب الجاه ، والرياء ، والكبر ، والعجب ، والغرورة كلها من الآفات التي يجب أن يتخلى عنها المؤمن ، إذا أراد أن يخلص لله نيته وقصده .

قسم : المنجيات

أما إذا وصلنا إلى ربع المنجيات ، فقد وصلنا إلى درة التاج وإلى النور الهادي وإلى صفاء الصفاء .

ويبتدىء الغزالي هذا القسم ، أول ما يبتدىء « بالتوبة » : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب ، وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول اقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاستصفاء والاجتباء للمقربين .

ووجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الايمان صدره : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً » .

أما وجوب التوبة على الفور ، فلا يستتراب فيه لمعرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الايمان وهو واجب على الفور . ومهما يكن من شيء .
ف « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

والايمان : « نصفان » . نصف صبر ، ونصف شكر ، لقد وردت بذلك الآثار ، وشهدت به الأخبار ، وقد وصف الله الصابرين وأضاف أكثر الدرجات والخيرات الى الصبر ، وجعلها ثمرة له فقال تعالى : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال صلوات الله عليه : « الصبر نصف الايمان » ، وقال : « الصبر كنز من كنوز الجنة » .

ونعم الله على المرء لا تحصى ، وواجب الانسان بهذه النعم هو الشكر ، والشكر نفسه سبب فى زيادة النعم ، يقول تعالى : « لئن شكرتم لازيدنكم » .

والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كثود .

والتوكل : منزل من منازل الدين ، ومقام من مقامات المؤمنين ، بل هو من معالى درجات المقربين ، وهو ثمرة من ثمار التوحيد فمن وحد الله حق توحيده توكل عليه . « أليس الله بكاف عبده » .

أما محبة الله . فانها الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، ومن ثمارها الشوق والأنس والرضا ، وليس قبل المحبة مقام ، الا وهو مقدمة من مقدماتها « كالتوبة ، والصبر ، والزهد وغيرها » .
فهي واسطة العقد ، ودرة القلادة « والذين آمنوا أشد حبا لله » .
« لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » .

وقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الايمان وأنوار القرآن ان لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكت الا العالمون ، والعالمون كلهم هلكت الا العاملون ، والعالمون كلهم هلكت الا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ، فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير اخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ، ومع العصيان سواء ، والاخلاص من غير صدق وتحقيق هباء .

ومن راقب الله فاز ، ومن حاسب نفسه نجا .

وقد وردت السنة بأن تفكر ساعة خير من عبادة سنة ، وكثر الحث فى كتاب الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ، ولا يخفى ان الفكر هو مفتاح الأنوار ، ومبدأ الاستبصار ، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى ، وأثنى على المتفكرين ، فقال تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا » ويقول : « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب » وقد روى ان الرسول صلى الله عليه وسلم : بكى حينما نزلت هذه الآية وقال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .



أثر الأحياء في العالم الإسلامي

هذا هو مفهوم الإيمان عند « حجة الإسلام » كما ضمنه كتابه الأحياء . . هذا الكتاب الذي من أمضى القول ان نقول بأن نصيبه كان الرفض في حياة مؤلفه ثم الاحراق !!

ثم مرت الأيام وأصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين عن الإيمان الصحيح بما أحدثه من تغيير في الفكر الإسلامي ورفع لفهم الدين والإيمان الى مستوى روحاني عاد بالإسلام الى أصوله الأولى ومنابعه الصافية مما جعل لصاحبه مكانته التي لا تجحد في تاريخ الفكر الانساني .

أما أثر هذا الكتاب في العالم الإسلامي ، فقد كان ضخما ، لقد شرح واختصر عدة مرات ، وانتقده الكثيرون ، ودافع عنه الكثيرون ، وترجم الكثير منه الى الانجليزية والفرنسية والاسبانية وغير ذلك من اللغات الحية : شرقية وغربية .

ومخطوطاته التي بمكتبات العالم لا تكاد تحصى ، وقد طبع في القاهرة وحدها ما يقرب من عشرين طبعة ، وطبع في الهند وفي تركيا وفي ايران .

ولا يزال الكتاب للآن في العالم الإسلامي مصدر الهام ونور ، ودراسة تختلف نتائجها لاختلاف نزعات الدارسين .

ولا يزال في مصر جماعات تعقد حلقات اسبوعية تخصصها لقراءة كتاب الأحياء والتعبد بشرح ما فيه من حكم ومواعظ .

أما تقدير العلماء لهذا الكتاب ، فتصوره الآراء التالية :

يكاد الناقدون يجمعون على كلمة : « أبو المظفر » سبط أبي الفرج

ابن الجوزى فى قوله : « ووضعه على مذاهب الصوفية . وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » .

ولهذه الأحاديث التى لم تصح أذاع بها كثيرون من أعداء الامام الغزالى ، ولكن ها هو ذا المولى أبو الخير يقول :

« أما الأحاديث التى لم تصح فلا ينكر عليه ايرادها لجوازها فى الترغيب والترهيب » .

والواقع ان الامام الغزالى لم يأت بهذه الأحاديث التى لم تصح لاثبات حكم ، أو للاستدلال على مبدأ ، ذلك انه يذكر الآيات القرآنية التى يثبت بها ما يؤدى اليه من أحكام وقواعد ، وهى على هذا الوضع كافية فى الاثبات والاستدلال ، ثم يأتى بعد ذلك بالأحاديث وبأقوال الصحابة والتابعين .

واذا كان كذلك فاننا حينما نستبعد الأحاديث الضعيفة من الاحياء فان كل المبادئ والقواعد والعظات والعبر التى أتى بها الامام الغزالى فى هذا الكتاب ، تحتفظ بقيمتها من ناحية الاثبات والاستدلال .

ويتبين من هذا انه لا قيمة لهذا الاعتراض لا شكلا ولا موضوعا .

على انه قد قام العالم الثبت الحجة الحافظ العراقى (٢) الذى قال فيه شيخه : « ان ذهنه لا يقبل الخطأ » بتخريج أحاديث هذا الكتاب ، فأصبحت السنة واضحة وأصبح الطريق أبلج .

يقول الحافظ العراقى عن كتاب الاحياء : انه من أجل كتب الاسلام فى معرفة الحلال والحرام جمع فيه بين ظواهر الأحكام ، ونزع الى سرائر دقت عن الافهام ، ولم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل ، ولم يتبحر فى اللجة بحيث يتعذر الرجوع الى الساحل ، بل مزج فيه علمى الظاهر والباطن ، ومزج معانيها فى أحسن المواطن ، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه ، وسلك فيه من النمط أوسطه مقتديا بقول على كرم الله وجهه : « خير هذه الأمة النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع اليهم الغالى » .

وقال الزبيدى (٣) شارح الاحياء : « وأنا لا أعرف له نظيرا فى الكتب التى صنفها الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر » .

وقال ابن السبكي : « وهو من الكتب التى ينبغى للمسلمين الاعتناء بها واشاعتها ، ليهتدى بها كثير من الخلق ، وقل ما ينظر فيه الا ويتعظ به فى الحال » .

وقال الشيخ عبد القادر العيدروس في كتابه « تعريف الاحياء
بفضائل الاحياء » (اعلم ان فضائل الاحياء لا تحصى ، بل كل فضيلة له ،
باعتبار حيثياتها لا تستقصى » .

وكان عبد الله العيدروس رضى الله عنه يكاد يحفظه ، وروى عنه
انه قال : « مكثت أطلع كتاب الاحياء ، كل فصل وحرف منه وأعاوده
وأندبره فيظهر لى منه فى كل يوم علوم وأسرار عظيمة ، ومفاهيم غزيرة ،
غير التى قبلها ولم يسبقه أحد ولم يلحقه أحد » ، ومن كلامه أيضا :
« عليكم يا اخوانى بمتابعة الكتاب والسنة أعنى الشريعة المشروحة فى
الكتب الغزالية خصوصا ، كتاب ذكر الموت ، وكتاب الزهد ، وكتاب
التوبة ، وكتاب رياضة النفس » . وقد ألزم الشيخ عبد الله العيدروس
أخاه قراءة الاحياء فقرأه عليه مدة حياته خمسا وعشرين مرة .

ونختم هذه التقديرات برأى اعتقد انه فيصل الحق فى موضوع
« كتاب الاحياء » وهو رأى العالم الجليل الأستاذ الشيخ محمد الخضر
حسين شيخ الأزهر الأسبق ، وهو عالم لا يتهم بعصبية ، والآراء مجمعة
على انه من العلماء الذين حاولوا جاهدين ان يكون كل ما يصدر عنهم
انما يراد به وجه الله ، يقول : « اذا وجد العلماء فى كتاب الاحياء مأخذ
معدودة ، فانه من صنع بشر غير معصوم من الزلل ، وكفى كتاب الاحياء
فضلا وسمو منزلة ان تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد ، وان يظفر
منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما يظفرون به من كتاب غيره » ومن
يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

هوامش

(١) امام الحرمين : هو أبو المعالي الجويني (١٠٢٨ - ١٠٨٥ م) له عدة مؤلفات أهمها في أصول الفقه (البرهان) و (الورقات) • وفي علم الكلام (الشامل) و (الارشاد) •

(٢) الحافظ العراقي : هو العالم زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم ابن الحسين العراقي الذي تخصص في علم الحديث (٧٢٥ هـ - ٨٠٦ هـ) •

(٣) الزبيدي : محمد بن الحسن (٩٢٨ - ٩٨٩ هـ) لغوي • ولد ومات بإشبيلية ودرس بها وبقرطبة • ألف كتابا قيمة منها (الأبنية) و (الواضع في النحو) و (لحن العامة) و (مختصر المعين) و (طبقات النحويين واللفويين) •

الفتوحات المكية

محيى الدين بن عربي

١٢٣٨ م

ينفرد كتاب الفتوحات المكية من بين كتب ابن عربي العديدة بأنه ألصق هذه الكتب كلها بمؤلفه ، فهو الى جانب مادته الغزيرة فى العلوم الانسانية والاسلامية وعلوم الأوائل ، مرآة تنعكس عليها سيرة المؤلف الشخصية وحياته الروحية ، كما تنعكس عليها ثقافته الواسعة التى استمدتها اما مباشرة من العلماء والصوفية الذين تتلمذ عليهم أو صحبهم أو لقيهم عرضا فى أسفاره أو راسلهم فى الأندلس أو المغرب أو المشرق العربى ، واما من الكتب التى عثر عليها فى البلاد التى زارها • ولا تجد مؤلفا آخر غير « الفتوحات » يمدك بشتى التفاصيل عن كل هذا ، كما يلقى الضوء على ما خفى من معالم شخصية ابن عربي ومغامراته الروحية وتجاربه الصوفية •

ويتصل الكتاب من ناحية أخرى اتصالا وثيقا بأكبر عدد من مؤلفات ابن عربي ، لا من حيث ذكر اسمائها وحسب ، بل من حيث ما يذكر عن موضوعاتها والظروف التى لا بدت تأليفها ، وتاريخ ومكان ذلك التأليف ، والحكم عليها فى أغلب الأحيان •

ولما كان كتاب « الفتوحات » آخر وأوسع كتاب ألفه وعالج منه شتى الموضوعات والمسائل التى عالجها على انفراد فى كتبه الأخرى ، كان منها بمثابة الخلاصة العامة والثمرة الناضجة لكل ما كتب • وعلى كل من يتصدى للكتابة عن « الفتوحات » ان يمهّد لذلك بالكلام عن مؤلف « الفتوحات » وعن مؤلفاته الأخرى لانعكاس كل من هذين الأمرين على الآخر •

سيرة ابن عربي

هى سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفذاذ ، الذين تركوا نروة ضخمة من الآثار والآراء ، ضمنها عددا لا يكاد يحصى من كتبه التى عدت عليها عوادي الزمان ، فما ضاع يعد أضعافا مضاعفة لما بقى منها •

هى سيرة الصوفى المرسى العظيم « محيى الدين بن عربى » الذى عاش فى الفترة التى تجمع بين منتصف القرنين السادس والسابع الهجريين ، هذه الفترة التى كانت زاخرة بالأدب والتصوف ، فى بيئة من أخصب بلاد العالم الاسلامى رقة وذوقا وأدبا وتصوفا ، هى بيئة الأندلس ، التى على رباها نشأ عاهل التصوف العظيم ، ثم خطت قلماء تذرع البلاد شرقا وغربا ، بحثا عن المعرفة ، وارتبادا للحكمة .

هى سيرة « ابن عربى » الذى سطع نجمه فى افق الثقافة الاسلامية الصوفية حيا وميتا ، ووجد من الأنصار والخصوم من يناصرون ويناثون ، وشغل بأرائه وأفكاره العقول والأذهان ، وأثار ثائرة قوم واعجاب آخرين ، وظلت كتبه الى ذلك الوقت منبعا فياضا وكنزا دفيننا يهرع اليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة .

هو الشيخ ابو بكر محمد بن على الملقب بمحيى الدين بن عربى المرسى الحاتمى الصوفى الفقيه الطاهرى . الذى ولد فى مرسية فى الجنوب الشرقى من الأندلس يوم الاثنين ١٧ من رمضان سنة ٥٦٠ هـ ، وهو من سلالة عربية صميمية ومن أسرة عرفت فى الأندلس بالتقوى والورع ، وكان بعض أفرادها من الصوفية ، تلقى مبادئ العلوم الدينية فى مدينة لشبونة ثم فى اشبيلية التى كانت من أكبر مراكز التصوف فى الأندلس فى عهده ، وقضى فيها نحوا من ثلاثين سنة ، وتلقى العلوم عن مشيختها الذين كان لهم أثر غير قليل فى توجيهه فى الطريق الصوفى . وهو يذكر هؤلاء المشايخ فى كتبه فى كثير من التقدير والاكبار . والظاهر انهم كانوا من بسطاء الزهاد الذين قصروا همهم على الناحية العلمية من الطريق الصوفى ولم يكن لهم كبير حظ فى التصوف النظرى ، ومع ان ابن عربى اتخذ من اشبيلية مقرا له هذه الفترة الطويلة من حياته ، فانه كان يرتحل عنها الى بلاد أخرى فى الأندلس ، زائرا متجولا مرتادا للعلماء ، ثم يعود اليها . زار « قرطبة » وهو شاب ولقى بها الفيلسوف « ابن رشد » الذى كان قاضى المدينة اذ ذاك . وفى سنة ٥٩٨ هـ هجر الأندلس وبلاد المغرب جميعا ، وذهب الى المشرق ليقضى فريضة الحج ، ولكنه لم يعد منه . وأغلب الظن أن رحلته الى المشرق كانت فرارا من الأندلس والمغرب وجوهما الصاحب دينيا وسياسيا ، وما كان يسود هذا الجو من تزمّت من جانب فقهاء المالكية واضطهاد للمفكرين الأحرار من جانب أصحاب الحكم .

ولقد زادت همة « ابن عربى » فى طلب العلوم وكانت له عزيمة لانعرف الكلل ، وتكبد فى سبيل تحصيله كثيرا من المشاق ، وكان كالنحلة دائب الانتقال من روض الى روض ، حتى جمع فى ذلك ذخيرة شهد له بها القاصى والدانى ، وسيأتى بيان عن ذلك بعد .

فقد زار مصر سنة ٦٠٣ هـ ولم تطب اقامته بها لان أهل مصر لم يحسنوا وفادته ، فقد كان سببا في اثاره نائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل ، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قيض الله له من كان سببا في انقاذه من هذه الفتنة التي أوشكت أن تعصف به . ولما رحل عن مصر زار كثيرا من بلاد المشرق كبيت المقدس ومكة وجهات أخرى من الحجاز وبغداد وبعض مدن بلاد الروم ، ثم استقر به المقام في دمشق التي أقام بها الى أن توفي ليلة الجمعة ٢٨ ربيع الآخر سنة ٦٣٨ هـ ودفن في جبل قاسيون .

مكانته العلمية وشهادة العلماء

تلك هي سيرة ذلك البطل الذي أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما دلالتها العظيمة :

أما اللقب الاول فهو « الشيخ الأكبر » وهذا اللقب لم يطلق عليه الا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقومات القيادة الروحية ، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون حوله بالمشات في كل مكان يحل فيه ، يتحلقون حوله ويستمعون الى محاضراته ، وينصتون الى آرائه وأذواقه في شعره ونثره ، فيجدون في ذلك بلسمًا شافيا لجراحهم ، وبعثا قويا لموات نفوسهم ، وحفزا صادقا لهممهم ، وارواء لظمأ أرواحهم . وكانوا هم عند حسن ظنه بما أفادوا من تعاليمه وساروا على طريقه واستجابوا لنصائحه ، فشفيت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وارتوت أرواحهم وانطلقوا يحلقون في فضاء الروح .

ولقد وضع « الشيخ الأكبر » مناهج تتناول الصوفى في جميع مراحل طريقه من لدن انبعاث الرغبة في نفسه ، ثم مضيه مريدا سالكا حتى تتكشف أمامه الطريق ، فيتمكن من الوصول الى غايته بنجاح .

كما وضع مناهج للمشيوخ أنفسهم يستأنسون بها في ارشادهم ، كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحترموا قوته وبحفظوا له حقه وبذلك يزهر غرسه ويدنو ثمره .

وكان هو - نفسه - سلوكا وتصرفا وقولا وعملا وآدابا وأخلاقا - في الذروة العليا من الكمال الانساني الذي بلغ به مراتب أهل الفضل وجعل شيوخ عصره يجلسونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة .

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب « الشيخ الأكبر » .

أما اللقب الثانى فهو «سلطان العارفين» وهو لقب يكاد يكون متلازما مع اللقب السابق ، فلم يستحق ابن عربى لقب « الشيخ الأكبر » الا بعد أن تبوأ عرش المعرفة ، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره ، واستطاع أن يشير الى حقائق تاهت فى الطريق اليها العقول ، وتفرقت العزائم ، وأدلى بمعان رائعة وحكم بالغة ، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته .

ولقد شهد بذلك أعظم الصوفيين فى عصره ، ومنهم أبو مدين فى المغرب ، والسهروردى فى بغداد ، وابن الفارض فى مصر .

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب « سلطان العارفين » .

وقال عنه السهروردى : انه بحر الحقائق .

وأدرك ابن الفارض روعة « الفتوحات المكية » فقال : انها خير شرح لنائيته المشهورة « نظم السلوك » .

وهذه التقديرات اذ دلت على شىء فانما تدل على ما وصل اليه الشيخ الأكبر من تألق ومقدرة .

ومن أجل ذلك أطلق عليه « سلطان العارفين » وهو جدير بهذا اللقب ، لانه لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى هذا الطريق الصوفى الغاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات الا وأدلى فيها ببيان واف ، وعبارات رائعة نظما ونثرا . واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة وفهما وأداء .

هذه سيرة الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى سلطان العارفين .

تراث ابن عربى

وضع ابن عربى مائتين وواحدا وخمسين مؤلفا ما بين كتاب ورسالة حسبما ورد فى مذكرة كتبها سنة ٦٣٢ هـ ، أو خمسمائة كتاب على حد قول عبد الرحمن حامى (١) فى «نفحات الأنس» أو أربعمائة كما يقول الشعرانى فى « اليواقيت والجواهر » . وقد ذكر له بروكلمان (٢) نحو من مائة وخمسين مؤلفا لاتزال باقية ما بين مطبوع ومخطوط .

ومن الصعب تصنيف هذه المؤلفات على أى أساس علمى من أسس التصنيف : فمن المتعذر مثلا ترتيبها ترتيبا زمنيا لاننا لا نعرف تاريخ أكثر من عشرة منها .

ومع ذلك فان من اليسير أن نميز بين المؤلفات التي كتبها في الأندلس والمغرب ، وتلك التي كتبها في المشرق - وبخاصة في مكة ودمشق - وهذه تشمل أكثر مؤلفاته وأنضجها : ومنها النصوص والفتوحات .

ومن الصعب أيضا - ان لم يكن من المستحيل - ان نضع تصنيفا علميا دقيقا لمؤلفات ابن عربي على أساس مادتها لاننا لم نطلع عليها كلها بعد ، ولا نخال أن أحدا قد درس جميع هذه المؤلفات ووقف على مادتها ، وعناوين الكتب والرسائل وحدها غير كافية في هذا التصنيف ، بل لابد من الاطلاع عليها أولا وبحثها وتحليلها تحليلًا علميًا . ولابد ثانيا من الاستئناس بما ذكره المؤلف نفسه ، ومن ذلك الكثير في كتابه «الفتوحات» الذي يشير فيه الى عدد كبير من كتبه ويعلق عليها وعلى الظروف التي احاطت بتأليفها ، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نضع التصنيف العام التالي .

يمكن تصنيف مؤلفات ابن عربي في سبع مجموعات على النحو الآتي :

المجموعة الأولى : كتب التصوف : وهي ثلاثة أنواع :

١ - نظرية ٢ - عملية ٣ - تعليمية
المجموعة الثانية : كتب الحديث ، ومعظمها مختصرات لكتب أخرى كصحيح البخاري أو مسلم .

المجموعة الثالثة : كتب التفسير ، وأهمها تفسيره الصوفي الذي بلغ فيه الى سورة الكهف وتوفى ولم يكمله .

المجموعة الرابعة : في السيرة النبوية .

المجموعة الخامسة : في الأدب - بما في ذلك الشعر الصوفي .

المجموعة السادسة : في العلوم الطبيعية : كالفلك وعلم التنجيم .

المجموعة السابعة : في علوم الأسرار .

ومع احاطة ابن عربي التامة بالتراث الفكري الاسلامي الذي كان معروفا الى عهده لم يشغل نفسه بالتأليف في الفلسفة الا من حيث ما يجد صلة بينها وبين بعض مسائل التصوف ، ولا بعلم الكلام الا عرضا عندما يناقش مسألة كلامية يرى فيها رأيا مخالفا أو موافقا لروح مذهبه . ولكن شغله الشاغل كان التأليف في التصوف الذي وقف كل علمه على خدمته .

وقد اشتغل بالتأليف في التصوف منذ دخوله في الطريق الصوفي، وسار في التأليف فيه على نهج تدريجي : يكتب أولا الكتب أو الرسائل

القصيرة حول موضوعات خاصة مثل كتاب « التدبيرات الالهية » الذى وضعه فى المملكة الانسانية وكتاب « مواقع النجوم » الذى وضعه فى ارشاد السالك فى الطريق الصوفى ، ورسالة « الخلوة » التى وضعها فيما يجب على المرید فى خلوته ، وكتاب « عنقاء مغرب » الذى وضعه فى الولاية ورسائل أخرى قصيرة .

كان هذا فى الشطر الأول من حياته وهو الشطر الذى قضاه فى الأندلس وبلاد المغرب وقضى وقتا منه ببلاد المشرق . أما الشطر الثانى من حياته وهو الذى قضى معظمه بدمشق ومكة ، فقد ظهر فيه انتاجه الناضج الخصب فى ميدان التصوف بوجه خاص مثل كتابه « نصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » .

وقد ألف ابن عربى كتابه « الفتوحات المكية » خلال ثمان وثلاثين سنة : بدأه بمكة سنة ٥٩٨ هـ عندما ذهب اليها قاصدا الحج وانتهى منه سنة ٦٣٦ هـ . وما هى ذى عبارته الواردة فى نسخة الفتوحات التى كتبها بخط يده ولا تزال محفوظة بمدينة قونية :

« انتهى الباب بحمد الله بانتهاء الكتاب على ما أمكن من الإيجاز والاختصار على يد منشئه : وهو النسخة الثانية من الكتاب بخط يدي ، وكان الفراغ من هذا الباب الذى هو خاتمة كتاب الفتوحات بكرة يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين وستمائة ، وكتبه منشئه بخطه محمد بن على بن محمد بن عربى الحاتمي الطائي وفقه الله . هذه النسخة سبعة وثلاثون مجلدا ، وفيها زيادات على النسخة الأولى التى وقفتها على ولدى محمد الكبير الذى أمه فاطمة بنت يونس ابن يوسف أمير الحرمين وفقه الله وعلى عقبه وعلى المسلمين بعد ذلك شرقا وغربا : برا وبحرا » .



تحليل الفتوحات

أكبر مؤلفات ابن عربى على الإطلاق وأهمها كذلك ، أشار اليه ابن عربى نفسه فى فهرست مؤلفاته بقوله : « كتاب الفتوحات المكية » وهو كتاب كبير فى مجلدات مما فتح به على فى مكة ، يحتوى على خمسمائة باب وستين بابا فى أسرار عظيمة من مراتب العلوم والمعارف والسلوك والمنازل والمنازلات والأقطاب وشبه هذا الفن . وهو مطبوع فى مصر طبعين احدهما طبعة بولاق سنة ١٢٩٣ فى أربعة أجزاء تحتوى ثمانية مجلدات : وهى النسخة التى نشير اليها فى هذا الكتاب .

أما تسميته بالفتوحات المكية فلأنه - على حد قول المؤلف - مما فتح الله به عليه أثناء زيارته لمكة سنة ٥٨٩ هـ . بقوله : « كنت نويت الحج والعمرة ، فلما وصلت أم القرى « مكة » أقام الله سبحانه وتعالى في خاطري أن أعرف الولي بفنون من المعارف حصلها في غيبتى ، وكان الأغلب منها ما فتح الله سبحانه وتعالى به عند طوافي بيته المكرم » .

وليست هذه أول مرة يدعى فيها ابن عربى أنه مؤلف ملهم . وأنه يصدر فيما يكتب عن أملاء الهى لا عن تقليد للغير أو تفكير شخصى . يقول فى الباب ٣٦٥ : « وأعلم أن جميع ما أتكلّم به فى مجالسى وتصانيفى إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فأننى أعطيت مفاتيح الفهم فيه والامداد منه . كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى ومناجاته بكلامه » .

ويقول فى الباب ٣٦٦ : « أن جميع ما أكتب فى تأليفى ليس عن روية ، وإنما هو نفث فى روعى على يد ملك الإلهام » . ويقول فى الباب ٣٧٣ : « جميع ما كتبت وأكتبه فى هذا الكتاب (الفتوحات) إنما هو من أملاء الهى والقاء ربانى ، أو نفث روحانى فى روح كيانى . كل ذلك بحكم الارث للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال » . ويقول فى فهرست مؤلفاته : « وما قصدت فى كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف ، وإنما كان يرد على من الحق موارد تكاد تحرقنى ، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها ، فخرجت مخرج التأليف - لا من حيث القصد . ومنها ما ألفته عن أمر الهى أمرنى به الحق فى نوم أو مكاشفة » .

وهكذا يمضى ابن عربى فى دعواه أنه مؤلف ملهم ، وإن ما خطه فى كثير من كتبه إنما هو أملاء الهى وصل إليه أحيانا أثناء اليقظة وأحيانا أثناء النوم وآونة فى حالة بين النوم واليقظة .

ولا يحاول ابن عربى أن يخدع نفسه أو يخدع الناس عندما يتشبهت بهذه الدعوى ، وفى دعواه نعمة تنم عن الصديق بأنه كان بالفعل يقع أحيانا تحت تأثير قوة خارقة لا يستطيع مقاومتها ولا ملاحقتها فيما تملى عليه يدل على ذلك قوله « أنه كان يرد على من الحق موارد تكاد تحرقنى » . فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد » . أما مصدر هذه « الموارد المحرقة » . فيسميه ابن عربى علوم الإلهام أو علوم الوراثة أو علم الباطن أو علوم حضرة القرآن . وقد يسميه علم النفس الحديث « العقل الباطن » . وفى اعتقادنا أننا إن لم نفترض خضوعه لمثل هذه القوة الخارقة يصعب علينا تفسير كثير من الظواهر المتصلة بتأليفه ، ومن ذلك :

أولاً : صدور هذا العدد الضخم من المؤلفات عنه .

ثانيا : خلا الكثير من مؤلفاته - لاسيما الفتوحات - من أى نظام أو ترتيب أو ترابط تأليفى . فان مادة هذه الكتاب لا يمكن وصفها بأكثر من انها فيض متدفق من المعلومات ، يسيل على السجية ولا يخضع لضابط من الضوابط التى يخضع لها التأليف العادى .

ثالثا : قوله انه أثناء كتابته « الفتوحات » كان يملئ ثلاث كراسات كل يوم أينما كان ومهما كانت شراغله الأخرى .

رابعا : قوله عن كتاب « مفتاح أقفال الالهام والتوحيد وايضاح أشكال اعلام المزيه » انه استيقظ يوما قبيل الفجر فأيقظ الرجلين اللذين كانا ينسخان له واملئ عليهما الكتاب فى كراستين ، فما طلعت الشمس حتى انتهى من الكتاب ! .



اقسام الكتاب

يكاد يكون من المستحيل وصف كتاب الفتوحات من حيث مادته بأكثر من أنه موسوعة ضخمة فى العلوم الدينية والتصوف وعلوم الأوائل خالية تماما من وحدة التأليف والغرض ، لا يصدر فيها صاحبها عن روية أو تفكير وانما يسجل كل فكرة تخطر بباله وكل تجربة تضطرب فى نفسه تسجيلا تلقائيا هو وليد اللحظة التى يتم فيها . ولذلك يسود الكتاب التفكك والاضطراب كما يسرده الاستطراد وتداخل المسائل بعضها فى بعض . ويعترف ابن عربى نفسه بهذا حيث يقول : « اعلم أن ترتيب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا نظر فكر ، وانما الحق تعالى يملئ علينا على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره . وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده » .

والكتاب لا يدور حول موضوع واحد ولا مادة علمية واحدة ، وانما هو عرض شامل للثقافة الاسلامية والعلوم الدينية والفلسفية النظرية منها والعملية .

والكتاب ضخم يحتوى على أربعة أجزاء ضخمة ، وكل جزء يحتوى على مجلدات ، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات الى ستة أقسام هي :

- ١ - القسم الأول : المعارف ٠٠٠ ويحتوى على ثلاثة وسبعين بابا .
- ٢ - القسم الثانى : المعاملات ٠٠٠ ويحتوى على ستة عشر ومائة باب .
- ٣ - القسم الثالث : الأحوال ٠٠٠ ويحتوى على ثمانين بابا .

- ٤ - القسم الرابع : المنازل ٠٠٠ ويحتوى على أربعة عشر ومائة باب .
٥ - القسم الخامس : المنازل ٠٠٠ ويحتوى على ثمانية وسبعين بابا .
٦ - القسم السادس : المقامات ٠٠٠ ويحتوى على تسعة وتسعين بابا .
مجملة أبوابه ستون وخمسمائة باب ، تتناول شتى العلوم والمعارف الصوفية ، كما تتناول غيرها من العلوم ، والمعارف الأخرى التى يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك .

وللشعرانى فيه وصف جامع يشير فيه الى هذا الشمول حيث يقول :
« واعلم يا أخى أننى طالعت من كتب القوم ما لا أحصيه ، وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية - لا سيما ما تكلم فيه عن أسرار الشريعة وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أقوالهم : فان نظر فيه مجتهد فى الشريعة ازداد علما الى علمه واطلع على أسرار وجوه الاستنباط وعلى تعليقات صحيحة لم تكن عنده ، وان نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أو شارح للأحاديث النبوية فكذلك ، أو متكلم فكذلك ، أو محدث فكذلك ، أو لغوى فكذلك ، أو مقرر فكذلك ، أو معبر للمنامات فكذلك ، أو عالم للطبيعة وصناعة الطب فكذلك . أو عالم بالهندسة فكذلك ، أو نحوى فكذلك ، أو منطقى فكذلك ، أو صوفى فكذلك ، أو عالم بعلم حضرات الاسماء الالهية فكذلك ، أو عالم بعلم الحروف فكذلك . فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم وغيرها علوما لم تخطر لهم قط على بال . وقد اشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها فى كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » .

وهذا وصف صادق لهذا الكتاب الضخم .

والناظرون فى هذا المنجم الفنى الحافل يستخلصون الكثير مما أودع فيه من ثمين العناصر ، كل بحسب منزعه ومسربه . ولكن الذى يعنينا هنا بوجه خاص هو تصوف ابن عربى وفلسفته ، وهما أثمن عناصر الكتاب .

وتحتوى فلسفة ابن عربى فى كتابه عن العناصر الرئيسية الآتية :

أولا : مذهب كامل فى طبيعة الوجود والصلة بين الحق والخلق ، ومعنى التنزيه والتشبيه ، والوحدة والكثرة ، والذات والصفات والأسماء ، وبيان ان الوجود الخارجى مظهر الأسماء الالهية ومجاليها .

ثانيا : نظرية فى « الكلمة » الالهية ، وظهور « الكلمة » بمظهر الحقيقة المحمدية والانسان الكامل .

ثالثاً : نظرية كاملة فى طبيعة المعرفة .

رابعاً : نظرية فى طبيعة النفس الانسانية .

خامساً : نظرية فى الأديان واتفاقها جميعاً فى وحدة المعبود الواحد .

سادساً : نظرية فى الحياة الخلقية ومعنى المسئولية والجزاء والخير والشر ، وصلة ذلك بالعناية الالهية .

سابعاً : نظرية فى الحياة الأخروية ومعنى الجحيم والنعيم .

ثامناً : نظرية فى الجمال وطبيعته وصلة الجمال بالحب .

لكل هذه المسائل - وهى فى صميم الفلسفة والتصوف - مصدرها فى الفتوحات المكية على سبيل التصريح أو التلميح والاشارة ، مختلطة كاختلاط التبر بالعناصر الأخرى بمسائل غير فلسفية وغير صوفية وما على الباحث الدؤوب الا أن ينقب عنها ويستخلصها .

فهو اذ يتكلم مثلاً عن الصلاة وحركات العبد فيها يستطرد الى ذكر الحق والخلق والصلة بينهما وواجب الوجود لذاته وصلته بالممكن ، ومعنى ان واجب الوجود غنى عن العالمين ان الممكنات مفترقة اليه ثم يعود الى الصلاة وحركاتها ، ثم يخرج منها الى ذكر دليل الحق على نفسه ومعنى دلالة الممكنات عليه ، وهو اذ يناقش مسألة الناسى للصلاة يخوض فى موضوع المعرفة والعارف ويستعمل كلمة « الناسى » استعمالاً صوفياً فيقول انه « العارف » بأنه ما فى الوجود الا الله وصفاته وأفعاله .

وفى أثناء كلامه عن « الهرولة » فى الحج وانه ثلاث مرات يفيض فى معنى التثليث وانه أساس ظهور كل ما يظهر من الحركات المادية منها والعقلية ، وأن أصل التثليث الوحدة يقول : « فوعزة من له العزة والجلال والكبرياء ، ما ثم الا الله الواجب الوجود الواحد بذاته الكثير بأسمائه وأحكامه » .

لذلك قلنا فى النوات بأنها

وان لم تكن لله بالله ساجدة

ومهما يكن الموضوع الذى يعالجه فى « الفتوحات » فهو يعرج فيه على التصوف دائماً وعلى فكرته فى وحدة الوجود بوجه خاص أو على فكرة متصلة بها . ولا يمل الكلام فى هذه المسألة والافاضة فيها لمناسبة أو لغير مناسبة .

ولا يظفر القارىء « للفتوحات المكية » بمذهب فلسفى واضح متماسك مرتب على نحو ما يظفر بذلك من قراءة كتب الفلاسفة ، بل اننا لا نتوقع

له الظفر بهذا : لأن ابن عربي صوفي أولا وفيلسوف ثانيا ، وهو يخضع للوجدان والعاطفة والخيال أكثر من خضوعه للمنطق والتناسق الفكرى . وهو يطالب قراءه بمشاركته فى أذواقه ومواجبه أكثر مما يطالبهم بمشاركته فى تفكيره ، ويلجأ الى الرمز والاشارة فى مواطن يستعصى فهمها وتستغلق معانيها . وهذا هو سر اختلاف الناس فى أمره .

وعلى الرغم من انه لا يبدو للنظرة العابرة أن لهذا الصوفي مذهباً فلسفياً متسقاً ، فان النظرة الفاحصة والتفكير العميق فى أقواله ، والتحليل والربط بينها ، تشهد شهادة قاطعة بوجود مذهب متكامل مترابط مبثوثة أجزاءه بين أشتات من التفاصيل التى لا ترتبط به ارتباطاً منطقياً والظاهر أنه كان على وعى تام بهذا المذهب ، ولكنه كان يدرك خطورة الجهر به فى صورة كاملة .

لذلك أذاعه مشتتا بين ثنايا التفاصيل فى مسائل الفقه والكلام والحديث والتفسير وغيرها . وكان هذا التشتيت عن عمد لكيلا يثير حفيظة المفكرين عليه . بل انه يصرح بذلك بقوله فى عقيدة الخواص (وهو من غير شك عقيدته فى وحدة الوجود) : « فما أفردتها على التعيين عما فيها من الغموض : ولكن جئت بها مبددة فى أبواب هذا الكتاب (أى الفتوحات) مستوفاة مبينة ، لكنها – كما ذكرنا – متفرقة . فمن رزقه الله الفهم فيها يعرف أمرها ويميزها عن غيرها ، فانها العلم الحق والقول الصدق » .

وحدة الوجود عند ابن عربي

والمسألة الأساسية التى يدور حولها كل تفكير ابن عربي وحياته الصوفية ويؤمن بها ايماناً راسخاً هى مسألة وحدة الوجود . وعن هذه المسألة الميتافيزيقية تفرعت كل شعاب مذهب فى المعرفة والنفس والأديان والأخلاق ، وقضية وحدة الوجود عنده قضية بديهية لا تقبل الشك ولا الدليل ، اذ « الحق » وهو الظاهر فى عين الوجود هو عين الدليل على نفسه . ولكنها قضية قابلة للتحقيق عن طريق التجربة الصوفية التى يدرك منها الصوفي الفانى عن نفسه وعن كل ما سوى الله ، وحدته الذاتية مع الحق .

ولا ينكر وحدة الوجود عند ابن عربي الا مكابر أو جاهل ، فانه يصرح بها فى مواضع تربو على الحصر فى « الفتوحات » ، وبلغة لا تقبل الشك أو التأويل من ذلك قوله « فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها » .

فما نظرت عيني الا غير وجهه

ولا سمعت أذني خلاف كلامه

ويقول « وقد ثبت عند المحققين انه ما في الوجود الا الله ، ونحن وان كنا موجودين فانما وجودنا به : ومن كان وجوده بغيره فهو في حكم العدم » .

« الحقيقة الوجودية واحدة لا ثنائية فيها ولا تعدد : اذا نظرت اليها من وجه قلت هي الحق ، واذا نظرت اليها من وجه آخر قلت هي الخلق . وهي واحدة في ذاتها ، كثيرة بأسمائها وصفاتها » .

« وهذه الأسماء والصفات هي المجالي الوجودية التي تتجلى فيها الذات الواحدة . والحقيقة الوجودية من حيث ذاتها واحدة ، قديمة ، منزهة ، غير معلومة . ولكنها من حيث ظهورها على مسرح الوجود الخارجي ، متعددة ، حادثة ، زمانية ، مشبهة ، معلومة . ومن هنا ظهر التناقض ووصف الحق نفسه بالاضداد كقوله : هو الأول والآخر والظاهر والباطن . » ولولا ظهور الحق في أعيان الخلق ما كانت صفاته وأسماءه ، ولما عرفناه ، لاننا انما نعرفه عن طريق هذه الأسماء والصفات المتجلية في الكون » .

ولكن ثنائية الحق والخلق من أحكام العقل والنظر والحس ، لا الذوق والكشف . فهي ثنائية موهومة زائفة : لأن العقل لا يقوى على ادراك الوحدة الشاملة ولا يستطيع الا أن يدرك المتعدد والمتكثر » .

وليست وحدة الوجود عند ابن عربي وحدة مادية يضحي فيها بفكرة الألوهية ، بل العكس هو الصحيح وهو أن الوجود الحقيقي هو وجود الله وحده ، ووجود الخلق بالنسبة اليه كوجود الظل لصاحب الظل ، وصورة المرآة بالنسبة لصاحب الصورة . فالخلق شبح زائل وظل للوجود الحقيقي .

وللحق عند ابن عربي معنيان : الحق في ذاته والحق كما نعرفه ونعبده . والحق في ذاته منزّه عن كل وصف وكل معرفة : وليس بينه وبين خلقه مناسبة البتة . أما الحق المعروف لنا فله نسب الى ما نعرفه من صفات العالم : فهو خالق لوجود المخلوق ومعبود لوجود العابد ، واله لوجود المألوه وقادر لوجود المقدور وهكذا . أما الحق في ذاته فلا نعرف عنه الا انه موجود ليس له مثل ولا ضد ولا يتصور في الذهن ولا يناله الوهم والخيال ولا يطلب في مطلب من المطالب الأربعة : « ما » ، « هل » ، « كيف » ، « لم » . واذا كان الشبيه لا يدرك الا الشبيه ، وليس في

الحق شيء يشبه الخلق ، وليس من الله في أحد شيء ، استحالة على الإنسان أن يدرك الحق في ذاته . هذا هو التنزيه في فلسفة ابن عربي وهو نفي المماثلة بين الحق والخلق .

أما ما ورد من الآيات والأحاديث التي توهم التشبيه ، فيرى انه لا يجوز أخذها بظاهرها ولا يجوز تأويلها . والرأى عنده هو الأخذ بهذه الآيات ، والأحاديث على وجه من وجوه التنزيه مما تسمح به طبيعة اللغة واستعمالاتها . فاذا ورد خبر بنسبة « الأصبع » الى الله كما في الحديث « قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن » فهمت كلمة « الأصبع » بمعنى النعمة لا بمعنى اصبع اليد : واللغة تبيح ذلك .

وقس على ذلك ألفاظ التشبيه الأخرى مثل الاستواء على العرش ، والوجه واليدين وغير ذلك .

وتستوى فكرة الوحدة على قلب ابن عربي فيفسر بها كل شيء في عالم الوجود والاعتقاد وعالم الجمال والأخلاق . فأما في عالم الوجود فهو ما شرحناه . وأما في عالم الاعتقاد - وهو الأديان - فيرى أن المعبود واحد مطلق في جميع الأديان مهما تعددت صورته وأشكاله لانه هو المتجلى في هذه الصور والأشكال ، وأن العارف الكامل هو الذي يعرف المعبود في كل صورة يتجلى فيها ، وغير العارف هو الذي لا يعرفه الا في صورة معتقده وينكره في معتقده غيره . ولهذا دعا ابن عربي الى القول بوحدة الأديان واعتبارها كلها طرقا موصلة الى معبود واحد لا يعبد غيره على الحقيقة . وفي ذلك يقول :

عقد الخلائق في الاله عقائدا

-- وأنا اعتقدت جميع ما عقده

لما بدا صورا لهم متحولا

قالوا بما شهدوا وما جحدوه

قد أعدل الشرع الموحد وحده

والمشركون شقوا وان عبده

★★★

أثر الفتوحات في العالم الشرقي

والعالم الغربي

لا شك أن كتاب « فصوص الحكمة » أعظم مؤلفات ابن عربي كلها فدرا من ناحية النضج التأليفى والمذهبي ومن أعماقها وأبعدها أثرا في

نشر مذهبه الفلسفى الصوفى . ولكنه محصور فى دائرة لا يكاد يتعداها
وهى دائرة هذا المذهب . أما كتاب « الفتوحات المكية » ، فخصم لا ساحل
نه ودائرة معارف اسلامية لا نظير لها فى المكتبة العربية ، ولذلك كان أثره
فى العالم الاسلامى - بل فى العالم المسيحى واليهودى - أشمل وأعم .
ولا نظن أن كتابا آخر من كتب ابن عربى كان له مثل هذا التأثير فى
الخاصة والعامة ، وفى المشتغلين بالتصوف أو المعنيين بالعلوم الاسلامية
الأخرى . فقد كتبه ابن عربى وهو ملم الماما تاما بالتراث العقلى والروحى
الاسلامى فى ابان نضجه ، وأخذ من هذا التراث ما أخذ وفهمه على النحو
الذى أراد وفسره ووجهه الوجهة التى ترضى نزعتة ومذهبه . ثم اضى
على ذلك كله صبغة قوية من تفكيره وتجاربه الروحية ، وخرج على العالم
بهذا المصنف العجيب الذى أصبح منذ عهد مرجعها هاما للعلماء والصوفية
ودارسى التصوف ، ومصدر وحى فى انتاج كثير من العباقرة فى شرق
العالم الاسلامى وغربه .

وقد خلف ابن عربى فى كتاب « الفتوحات » ثروة طائلة من
المصطلحات الفلسفية الصوفية استمدتها من كل مصدر عرفه كالقرآن
والحديث وعلم الكلام والفقه والتصوف السابق عليه ، وفلسفة أفلاطون
وأرسطو . . . ، كما استخدم مصطلحات شاعت فى أوساط الاسماعيلية
الباطنية والقرامطة واخوان الصفا . ولكن مهما يكن المصدر الذى أخذ منه ،
فانه صبغ هذه المصطلحات كلها بصبغته الخاصة وأعطى لكل مصطلح
معنى جديدا يتمشى مع روح مذهبه وما من صوفى أتى بعد ابن عربى
- عربيا كان أم فارسيا أم تركيا - شاعرا كان أو غير شاعر - الا استعمل
لغته وكتب بوحى منهما ، سواء شاركه فى فلسفته فى وحدة الوجود
أم لم يشاركه .

على أن أثر كتاب « الفتوحات المكية » ليس قاصرا على معجم
المصطلحات فيه ، بل يتعدى ذلك الى مادته وما فيها من شتى فنون
التفكير . وليس ما خلفه شعراء الفرس من شعر صوفى رائع كشعر العراقى
وعبد الرحمن جامى ومحمود شبسترى ، بل وجلال الدين الرومى (٣) ،
وما كتبه مؤلفوهم فى التصوف من أمثال عبد الرازق القاشاى وعبد الكريم
الجبلى الا صدى لتلك المعانى التى ابتكرها صاحب الفتوحات وورثتها
العبقرية الفارسية فأبدعت فى صياغتها وتصويرها .

بل ان أثر كتاب « الفتوحات المكية » لم يقف عند حدود العالم
الاسلامى ، شرقه وغربه ، بل تعدى تلك الحدود الى الأوساط المسيحية
واليهودية فى أوربا : فقد تأثر به كل من « ريمون لول » و « ديمون مارتن »

اللذين يرددان أقوال ابن عربي والغزالي وابن رشد في وصف الجنة ويدفعان عن جنة المسلمين تهمة المذبة والشهوانية .

كذلك تأثر بالفتوحات شاعر المسيحية وفيلسوفها الأكبر « دانتي » في كثير مما قاله في وصف الجحيم والنعيم كما هو واضح من الدراسات المستفيضة التي قام بها العلامة « آسين بلاثيوس » الأسباني في كتابه « علوم الآخرة الإسلامية وأثرها في الكوميديا الإلهية » الذي وضع له ملخصا ترجم إلى اللغة الإنجليزية بعنوان « الإسلام والكوميديا الإلهية » . فقد قارن هذا المستشرق بين كوميديا دانتي بأجزائها الثلاثة : الجحيم والمطهر والنعيم ، وبين التصورات الإسلامية الواردة عنها في فتوحات ابن عربي ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري وقصص المعراج النبوي ، وقطع بوجود صلة بين دانتي وهذه المصادر الإسلامية .

ومن المحتمل أيضا أن يكون لمذهب ابن عربي في « الفتوحات » وغيره أثر غير قليل في فلسفة اسبينوزا عن طريق ما كان شائعا في عصره في الأوساط الفلسفية اليهودية من تعاليم الشيخ ابن عربي وأفكاره . فانه مع اختلاف الرجلين في المنزع والمنهج ، نجدتهما يتفقان اتفاقا يكاد يكون تاما في تصورهما لوحدة الوجود على الرغم من ثنائيته التي يقول بها العقل وكثرته التي يقول بها الحس ، ولا يمكن أن يعتبر هذا التشابه التام بين مذهبي الفيلسوفين من قبيل المصادفة البحتة أو توارد الخواطر .

وليس في الامكان أن نتبع الأثر الذي خلفه كتاب « الفتوحات » المكية « في الأفراد والجماعات وفي مختلف الأوساط الصوفية وغير الصوفية ، الإسلامية وغير الإسلامية ، ولكننا نقول في النهاية ان كتاب « الفتوحات » قد خلف طابعا لا يمكن ازالته في الثقافة الإسلامية وغيرها ، وظل مصدر علم واشعاع وإيحاء مدة تربو على سبعة قرون ، وانه بذلك استحق أن يحل مكان الصدارة لا بين الانتاج الفكري الإسلامي وحده بل الانتاج العالمي .

هوامش

- (١) عبد الرحمن جامي : (١٤١٤ - ١٤٩٢ م) شاعر فارسي من شعراء الصوفية .
تولى رئاسة الطريقة النقشبندية .
- (٢) بروكلمان ، كارل : (١٨٦٨ - ١٩٥٦ م) مستشرق ألماني حقق عددا من النصوص العربية - من أهم أعماله (تاريخ الأدب العربي) و (تاريخ الشعوب الإسلامية) .
- (٣) جلال الدين الرومي : (١٢٠٧ - ١٢٧٣ م) : شاعر فارسي من أكبر شعراء الصوفية . له مريدون كثيرون تتألف منهم طريقتة المعروفة بالمولودية .

علم الأخلاق

إسبينوزا

١٦٧٧ م

كان مصير « اسبينوزا spinoza » فذا في تاريخ الفلسفة .
فقد انبت عن اليهود لأنه من العقليين ، وانبت عن العالم لأنه من اليهود ! .
ولم يشهد التاريخ انسانا عاش في مثل عزلته ووحدته . علي ان هذه
العزلة كان لابد منها لاقامة صرح فلسفته الفذة .

فقد ولد اسبينوزا في ٢٤ نوفمبر ١٦٣٢ بمدينة امستردام
بهولندا ، لأبوين يهوديين من أسرة تنتمي الى أصل اسباني برتغالي هاجرت
الى هولندا هربا من اضطهاد محاكم التفتيش . وقد تلقى العلم في المدرسة
اليهودية الرئيسية بامستردام ، ولكن دراسته تميزت عن دراسة بقية
أبناء الطائفة اليهودية بوجود عناصر من الثقافة اللاتينية حرص أبوه علي ان
يتلقاها الابن علي أيدي معلم خاص اطلع اسبينوزا - بفضلله أيضا - علي
أعمال علماء الطبيعة المحدثين .

كان أبوه من التجار الناجحين ، يرجو لابنه أن يكون رجلا ناجحا
من رجال الدين ، ولكن باروخ - وهو اسم عبري معناه المبارك - كان أشد
كلفا بالحقيقة منه بالنجاح . وأدى به بحثه عن الحق الى مسالك وعرة ،
تبعد عن الدين ، وتبعد غاية البعد عن عالم المال والعقائد . لقد وقف في
طفولته أمام قبر « اريل اكستا » ذلك اليهودي المتشكك الذي نبذه
بنو جلدته علنا لأنه ألحد ، فوضع لحياته حدا ، متأثرا بما لحقه من خزي
أمام الملا . فيخلف ذلك المشهد في نفس اسبينوزا أعماق الأثر . .
فيتساءل ماذا يفرق الناس شيئا في الفكر ، فيصب بعضهم العذاب علي
بعض من أثر هذه الفرقة ؟ . وفي هذا اليوم بالذات كرس الصبي اليهودي
نفسه لحياة البحث ، دون أن يدري معنى ذلك حق الدراية .

فلما كبر توفر علي دراسة التوراة والتلمود . وشعر القدامى وعلم
المحدثين . وتوفر بنوع خاص علي تعمق ما ساد عصره من الآراء الفلسفية
العظيمة . فسلط ضوء عقله الناقد المحلل علي الميتافيزيقا الخلقية التي
شاهدها الفلاسفة اليهود من أمثال فيلو وابن ميمون ، ليفي بن جرسون
وابن جبرول وحسداي . وسلطه كذلك علي الأخلاق الميتافيزيقية

للفلاسفة من غير اليهود ، كأفلاطون وأرسطو وأبيفور وجيودانو
برنو وديكارت . وشاء أن يوسع آفاق بحثه في فلسفة غير اليهود فدرس
اللاتينية على الأستاذ الهولندي « فان دي اندي » وهو فقيه لغوي لامع ،
وهو متشكك ثائر .

وقد اصطدم اسبينوزا بالطائفة اليهودية التي أقزعتها جرأتها في
المسائل الدينية وتحديه لتراثها الروحي ، وحاولت استمالة إليها ،
أو على الأقل منعه من انتقادها جهرا ، ثم جربت سلاح الارهاب ، ولما لم
يفلح معه هذا كله ، أصدرت في عام ١٦٥٦ قرارها بطرده من الطائفة
وتوقيع عقوبة التحريم على « التجديف الشنيع الذي يمارسه ويعلمه » .
ولم يكثرث اسبينوزا بهذه العقوبة بل يبدو انه رحب بها ، بدليل انه
بادر الى تغيير اسمه العبري « باروخ » الى مقابلة اللاتيني « بنديكتوس » .
ومن الجدير بالذكر ان اسبينوزا بعد طرده من الطائفة اليهودية لم يحاول
ان ينضم الى طائفة أخرى ، ومعنى ذلك انه ظل منذ ذلك الحين حتى
وفاته دون ان يكون منتشيا من الوجهة الرسمية الى أية عقيدة ، ولا شك ان
تلك كانت حالة فريدة بين جميع فلاسفة العصر الحديث .

وكان من أثر قرار الطرد والحرمان أن تبرأ منه أبوه . ولما مات
الأب بعد ذلك ، أرادت أخته ان تحرمه حقه في تراث أبيه ، ودافع
اسبينوزا عن حقه أمام القضاء ، وحكم له ، ثم نزل عن ميراثه لأخته .
فهو لا يبغي المال ، وإنما اقرار العدل . فما اتفه صالحه الشخصى في
مسرحة الحياة التي يحاول الظهور على غوامضها .

وسعى لتحقيق هذه الغاية آوى الى حجرة علوية في « أو تراك » من
ضواحي امستردام واحترف صقل العدسات ليصيب عيشه ، واشتغل
بالفلسفة ، وجعل منها رسالة حياته . وكان هذا يتفق مع تقاليد أسلافه .
فالمعلمون العبرانيون الأوائل كانوا يؤثرون ان يتعلم المرء حرفة يدوية من
حيث هي ضرورة من ضروريات التوفر على حياة العلم . فعندهم ان العلم
أسمى من أن يتكسب به . وكانوا يقولون : « اشغل يديك ببضاعة الأرض ،
ورأسك ببضاعة السماء » . وكان كهؤلاء المدرسين القدامى يذهب مذهب
علية القوم فى الايمان بهواية الرياضة . . ولكن هوايته كانت رياضة
العقل لا رياضة العضل .

لذلك عاش فى حجرته فى أعلى المنزل ، يصقل العدسات ، ويهب
فراغه للتفكير ، ويكتب عن سر الله ومعنى الحياة . ولما بلغ الثامنة
والعشرين انتقل الى « رينسبرج » القريبة من « ليون » . واعتكف فيها ،

كانه دودة القز في الشرقة • فهو قلما يخرج لغير النزهة أو شراء طعامه •

تراث اسبينوزا

كانت حياة اسبينوزا قصيرة اذ لم يتجاوز به العمر اربعا وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، ولكنه ألم في حياته القصيرة تلك بعلوم ومعارف شتى ، ووقف على كتب دينية وفلسفية وعلمية عدة ، وعكف على دراسة هذا كله اما نقدا وتحليلا لبعضها ، واما تفسيريا وتاويلا لبعضها الآخر •

على ان حياته على قصرها كانت حياة خصبة غنية بما أنتجه ابانها من الكتب والرسائل وما خلفه من الخطابات التي دارت على كثير من المسائل ، وكلها مرآة لما عرفه وأخذ عنه وتأثر به من كتب وعقائد ومذاهب سابقة عليه أو معاصرة له من ناحية ، وصورة معبرة أصدق تعبير عن أفكاره وأنظاره ومذاهبه التي ابتكرها هو من ناحية أخرى •

وها نحن أولاء نسلك تلك السبيل مع فيلسوف هولندا الفذ ، فنلم على قدر ما يتسع له المقام بما خلفه اسبينوزا من آثار فلسفية انطوت على كثير من الأفكار الانسانية ، مجملين في عرض هذه الآثار بصفة عامة ، ومفصلين في الحديث عن كتاب « علم الأخلاق » بصفة خاصة فهو أجمع كتب اسبينوزا لشتات مذهبه وأصديق مرآة لعقله وقلبه :

١ - (مبادئ فلسفة رينييه ديكارت ، مبرهنة بالطريقة الهندسية) سنة ١٦٦٣ وقد شفع اسبينوزا هذه الرسالة برسالة أخرى في (الأفكار الميتافيزيقية) •

وتعد رسالته في مبادئ فلسفة ديكارت أول ما كتبته فيلسوفنا واحد رسائله التي نشرها ابان حياته •

٢ - (الرسالة اللاهوتية - السياسية) ١٦٧٠ م

وقد انتقد فيها التفسير المألوف للكتاب المقدس ، ثم رفض الايمان بالاله كما يصفه العهد القديم وآمن باله أوسع رحمة في عهد جديد من لدنه • والعهد الجديد لاسبينوزا هو كتابه الشهير في الأخلاق •

٣ - (رسالة في الله وفي الانسان) سنة ١٦٦٠ م •

عرض فيها اسبينوزا فلسفته الخاصة . ويمكن ان تعد هذه الرسالة بمثابة المسودة لكتاب « علم الأخلاق » .

٤ - (رسالة في اصلاح العقل) .

وقد تركها اسبينوزا دون ان يتمها ، ولكنها نشرت على ما هي عليه بعد وفاته ، وهي من قبيل المدخل الى المنهج من ناحية ، والى التعرف على قيمة المعرفة من ناحية أخرى .

٥ - (الرسالة السياسية) سنة ١٦٧٥ - سنة ١٦٧٧ م .

كتبها في أواخر حياته ولم يتمها . وهذه الرسالة كتاب عام في السياسة العقلية ، فيها وسع الفيلسوف نطاق المبادئ التي وضعها في رسالته اللاهوتية السياسية .

٦ - (الخطابات) .

وقد ترك اسبينوزا طائفة صالحة منها كتبها الى مراسليه من أصحاب الشخصيات العلمية البارزة الذين كان من أشهرهم « مبير » ناشر آثار اسبينوزا و « أولدنبرج » سكرتير الجمعية الملكية للعلوم بلندن .

٧ - (علم الأخلاق على النهج الهندسى) .

وهو أهم كتب اسبينوزا وأصدقها تصويرا لمذهبه ومنهجه ، وقد اشتغل بأعداده وتأليفه وتنقيحه طوال سنين عدة من حياته ، ولكنه لم يجرؤ على نشره ابان حياته خشية الفتنة ، فنشر الكتاب بعد مماته . وهو كذلك من أغرب ما خطت يد انسان من كتب . فهو لاتينى فى لغته ، هندسى فى نظامه ، اغريقى فى مثاليته ، ايطالى فى مادته (فهو يقوم على وحدة الوجود التى يقول بها جيوردانو برونو) فرنسى فى أساسه (فهو يرتكز على نظرية ديكارت الآلية) عبرانى فى عقيدته (فهو يقول ان عقيدتى فى أساسها هى نفس عقيدة الأنبياء العبرانيين الأوائل) .

هذه هى جملة المصنفات التى يتألف منها التراث الفلسفى والدينى والسياسى للفيلسوف الهولندى اسبينوزا ، ونحن اذا تدبرنا ما خلفه ذلك الفيلسوف من آثاره الفلسفية والدينية والسياسية تلك ، ألفينا طابع الجدل يكاد أن يطبعها جميعا ، جدل على الكيفية التى يمكن أن تقوم بها الأخلاق مع نظام الضرورة الكلية ، على ما يضير اليه اللاهوت والدين مع هذا اللون الجديد الذى يقدمه اسبينوزا لتأويل الكتب المقدسة ، ذلك

بأن اسبينوزا لا ينكر الكتب المقدسة على الإطلاق ، ولكنه يؤولها على طريقته التي استحدثها • فهل شهد العالم انسانا بلغ فى عالميته هذا الحد ؟

وهكذا نأتى الى الكتاب الذى صب فيه اسبينوزا عصارة حياته ونفسه التى انزوى بها عن الناس • وأعنى كتاب « علم الأخلاق » •

اجزاء الكتاب

يعد كتاب اسبينوزا فى « علم الأخلاق » أهم كتبه وأدلها على منهجه ، وأجمعها لكل نواحي مذهبه ، فضلا عن انه يوضح ويفصل كثيرا من أفكاره وأنظاره التى وردت غامضة أو مجملة أو مشارا اليها فى كتبه ورسائله الأخرى •

وفى هذا الكتاب يصطنع اسبينوزا منهج الرياضيين فى الهندسة ، وبسرف فى اصطناع هذا المنهج ، حتى لقد جاء كتابه أشبه بكتب علماء الهندسة منه بكتب الفلاسفة ، وليس أدل على هذا من أن الكتاب كله ليس الا طائفة من التعريفات والبديهيات والمسلمات والمطالب والبراهين والنتائج ، وما الى ذلك مما يصطنعه علماء الهندسة فى كتبهم ورسائلهم ، وفى حل معضلاتهم ومسائلهم •

واصطناع اسبينوزا للمنهج الهندسى على هذا الوجه لم يكن بدعا فى العصر الذى عاش فيه هذا الفيلسوف ، اذ كان ينظر فى ذلك العصر الى المنهج الرياضى على انه نموذج ينبغي ان يحتذى فى العلوم كلها : فهو بنز Hobbes الفيلسوف الانجليزى الذى عنى اسبينوزا بدراسته عناية خاصة ، قد رد المنطق كله الى الحساب العددي ، وديكارت الفيلسوف الفرنسى الذى اتخذ منه اسبينوزا فى أول عهده بالتفكير الفلسفى قدوته حتى لقد كان مؤثرا فيه ، متأثرا به ، مقبلا على فلسفته وعلى عرض مبادئها فى أولى رسائله ، قد قدم مثلا واضحا لتطبيق المنهج الرياضى والصورة الهندسية على جزء من أجزاء ميتافيزيقاه • وهذه الصورة الهندسية هى التى أثرها اسبينوزا ليعرض فيها أولا مبادئ فلسفة ديكارت ، ثم يعرض فيها بعد ذلك أفكاره هو وأنظاره فى فلسفته الخاصة • ولعل مذهب اسبينوزا كان أطوع للصورة الهندسية من مذهب الفلاسفة التجريبيين ، ومن مذهب بعض الفلاسفة العقلين ، لأن مذهب اسبينوزا ينهى التجربة ويريد أن يستنبط كل شيء من فكرة أولى مستمدة من العقل •

ذلك هو منهج اسبينوزا فى كتابه « علم الأخلاق » .

ويتألف الكتاب من خمسة أجزاء :

الجزء الأول : فى الله

الجزء الثانى : فى طبيعة النفس وأصلها

الجزء الثالث : فى أصل الانفعالات وطبيعتها

الجزء الرابع : فى عبودية الانسان أو فى قوة الانفعالات

الجزء الخامس : فى قوة العقل أو فى حرية الانسان

ويلاحظ هنا ان موضوع الجزءين الرابع والخامس هو علم الأخلاق، ولكن اسبينوزا أطلق اسم « علم الأخلاق » على الكتاب كله ، لأن العمل عنده هو غاية النظر من ناحية ، ولأن منزعه الرئيسى انما كان منزعا أخلاقيا من ناحية أخرى . وان مثله فى هذا المنزع كمثلى الرواقين (١) اذ كان النظر عندهم سبيلا الى العمل أو كان العمل فى فلسفتهم غاية النظر .

ولكى تتبين لنا القيمة الكبرى التى لهذا الكتاب فى ذاته . والخطر العظيم الذى له فى الفكر الانسانى يحسن ان نقف معه وقفة عند كل جزء من أجزائه ، بحيث تتضح معالمه الرئيسية وخصائصه الجوهرية ، وموضوعاته الميتافيزيقية والنفسية والأخلاقية :

الجزء الأول

فى الله

أفرد اسبينوزا الجزء الأول من كتاب « علم الأخلاق » للحديث عن الله ، ذاته وصفاته وتجلياته وعما يتصل بهذا كله فى الانسان والعالم . واستهل هذا الجزء ، كما استهل غيره من الأجزاء الأخرى بطائفة من الحدود أو التعريفات والبديهيّات والمسلمات التى قدمها بسبيل البرهنة عليها وكل أولئك قوام للأسلوب الهندسى الذى ساد الكتاب كله ، على نحو ما سبقت الإشارة الى ذلك آنفا .

ولعل أهم الحدود أو التعريفات التى فى مستهل هذا الجزء ، هو هذا التعريف الذى له خطره فى تاريخ الفلسفة الحديثة بصفة عامة .

وفي فلسفة اسبينوزا بصفة خاصة ، وفي ميتافيزيقاه بصفة اخص ، وأعنى به تعريف الجوهر الذى يحده اسبينوزا بقوله : « أعنى بالجوهر هذا الذى يوجد فى ذاته ، أو بعبارة أخرى هو هذا الذى ليس تصدره مفتقرا الى تصور شيء آخر عنه يجب ان يكون وجوده » . ثم يتحدث اسبينوزا عن الله باعتباره جوهرًا متأحدًا ولا متناهيًا وضروريًا أو واجب الوجود بذاته ، كما يتحدث عن الموجودات التى تملأ أرجاء الكون على انها أحوال أو أشكال أو صور أو هيئات لهذا الجوهر الأوحى أو الله ، كما يبرهن على وجود الله باعتباره جوهرًا واجب الوجود بذاته ، ولا متناهيًا فى ذاته ومتأحدًا مع ذاته ، وله عدد لا متناه من الصفات اللا متناهية . وهاهنا يبين اسبينوزا أن اللا متناهى على أنواع ، كما ان لفظ اللا متناهى يستعمل فى الاصطلاح بمعنى يدل على انه صفة ذاتية للشيء المتصف به تارة ، وبمعنى يدل على انه وصف عددي للشيء ، وقد تكثرت أفرادها فهى لا متناهية فى عددها لا فى ذاتها .

أما من حيث تطبيق هذا المعنى الاصطلاحى أو ذاك على الجوهر الذى هو الله عند اسبينوزا ، فان الفيلسوف الهولندى يستعمل كما يبدو لفظ اللامتناهى بالمعنيين ، اذ للجوهر الالهى عنده صفات لا متناهية فى ذاتها ولا متناهية فى عددها ، الا اننا لانعرف من هذه الصفات التى هى كذلك غير صفتين جوهريتين هما فى متناول عقولنا ، وهاتان الصفتان الجوهريتان هما الفكر من ناحية والامتداد من ناحية أخرى .

واذا كان ذلك كذلك ، فان اسبينوزا يرى ان الله من حيث هو جوهر ، فهو مفكر من ناحية ، وممتد من ناحية أخرى ، وهو وان كان ممتدًا الا انه لا جسمانى . وعنده ان الله من حيث هو مفكر ، فان فكره لا محدود ، وان موضوعه هو الوجود اللا محدود ، أو الكائن اللا متعين . واذن فليس لله عقل بالمعنى المألوف ، ولا له فهم على الوجه المعروف ، لأن الفهم على هذا الوجه ، والعقل بذاك المعنى ، انما هما اسمان يطلقان على ملكة أو وظيفة من ملكات الفكر الانسانى المحدود ووظائفه ، وهذا أو ذاك ليس من طبيعة الذات الالهية اللامتناهية فى كل شيء بصفة عامة ، وفى صفتيهما الجوهريتين وهما الفكر والامتداد المطلقان عن كل حد أو قيد أو تعين بصفة خاصة ، ومثل هذا يقوله اسبينوزا عن الارادة : فكما ان الله ليس له عقل أو فهم بالمعنى الانسانى المعروف أو المألوف ، فهو ليس له ارادة أيضا بهذا المعنى أو ذاك ، لأن الله ليس له موضوع محدود أو معين تتعلق به ارادة مقيدة بهذا الموضوع المحدود المعين .

« وإذا كان الله في ذاته ، وهو الطبيعة الطابعة كما يسميه اسبينوزا ، ليس له عقل ولا ارادة ، الا أن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالله منظورا اليه في سياق النظام الضروري لطبيعته ، وهذا يعنى بعبارة أخرى ان الفكر بالفعل والشعور ليس لهما مكان الا من خلال الفيض الضروري لصفات الله ، أو يعنى بعبارة أوضح ان الطبيعة الطابعة هي العالم أو الله باعتباره جوهرًا أو مبدأ بخلاف الطبيعة المطبوعة وهي العالم أو الله ، ولكن من حيث هو مجلى أو ظاهر . وينتهى اسبينوزا الى ان الطبيعة الطابعة هي الجوهر بصفاته على حين ان الطبيعة المطبوعة هي جملة الأحوال أو الأشكال أو الصور أو الهئات التي للجوهر .

واسبينوزا الذي يعد الفكر والامتداد صفتين جوهريتين لذات الله ، ينظر كذلك الى الحرية على انها عين ذات الله ، أو عين فعاليته اللامتناهية في نفوذها الى كل صور الوجود الممكنة حتى تبلغ ذروة اللامتناهي وفقا لقوانين ضرورية ، ولا ينظر الى الحرية على انها صفة من صفات الله ، اذ الحرية عنده هي ان يفعل الكائن بمقتضى قوانين طبيعته الذاتية وحدها، وذلك على الوجه الذي نتبينه معه في تعريفه للحرية حيث يقول : « يقال لهذا الشيء انه حر اذا كان موجودا بحسب الضرورة النابعة من محض طبيعته ، وكانت ذاته وحدها هي التي تسيره في أفعاله . ويقال لهذا الشيء انه ضروري أو مضطر مجبر اذا كان شيء آخر هو الذي يسيره في وجوده وأفعاله ، وذلك بنسبة ثابتة وشرط معين » .

وكان اسبينوزا في فهمه للحرية على هذا الوجه ، يربط الله والانسان بروابط الضرورة ، كما يرى أن كل ما يفعله الله انما يصدر عن طبيعته ضرورة على هذا الوجه الذي هو عليه ، وذلك على نحو ما هو في المثلث اذ يقال عنه ان جملة زواياه مساوية لزائيتين قائمتين ، فان المساواة بين جملة زوايا المثلث وبين الزائيتين القائمتين انما تنشأ من طبيعة المثلث ، ومن هنا لا يمكن ان يكون كل ما في العالم على وجه آخر ، ولا على نظام آخر ، لأن كل شيء قد عينته وحدته الطبيعة الالهية ، سواء في الانسان أو في العالم ، واذن فالفرق بين الضروري الواجب الوجود بذاته وبين الحادث الممكن الوجود بذاته الواجب الوجود بغيره ، ليس له وجود في الحقيقة ، وانما هو آت من جهلنا بماهية الأشياء وبنظامها الكلي .

والعالم الذي يصدر ضرورة عن ذات الله ، ينبغي ان يكون له أعلى درجة من درجات الكمال الممكن ، على حين ان الله ذاته ينبغي ان يكون له أعلى الدرجات من الكمال المطلق .

فاذا عرفنا كل ما تقدم ، فقد انتهينا مع اسبينوزا من الجزء الاول من الكتاب .

الجزء الثانى

فى طبيعة النفس وأصلها

اذا كان اسبينوزا قد عرض فى الجزء الاول للطبيعة الطابعة على انها هى الله ، فهو هنا فى الجزء الثانى يعرض للطبيعة المطبوعة على انها هى الانسان ، ولهذا نراه ينبهنا بادىء ذى بدء الى انه لا يزمع ان يفسر الطبيعة المطبوعة بأسرها أى كل الأشياء التى لاحصر لها ولا يتناهى عددها ، والتى تفيض ضرورة من صفات الله ، وانما هو يتناول بهذا التفسير ما عساه ان يوصلنا الى معرفة النفس الانسانية وطبيعتها ، وكل ما تمتلئ به من ملكات وأفكار على انها هيئات أو أحوال لله من حيث هو جوهر مفكر ، كما ان كل الأجسام انما هى هيئات أو أحوال لله من حيث هو جوهر ممتد ، ومن هنا لم يشغل العلم الطبيعى الا حيزا ضئيلا عند اسبينوزا بالقياس الى ما يشغله هذا العلم عند ديكرت .

واذا كان ذلك كذلك فكيف ولدت الطبيعة الطابعة الطبيعة المطبوعة ؟ وكيف تولدت الأشياء المتناهية من أحضان الشيء اللامتناهى ؟ الحق ان هذه المسألة أو تلك لا وجود لاحدهما أو لكليهما عند اسبينوزا الذى لا ينكر فكرة الخلق فحسب ، بل ينكر فكرة التوليد أيا ما كان أيضا : ذلك بأنه يرى ان الصفات الالهية بكل مالها من هيئات انما توجد منذ الأزل ، مثلها فى هذا كمثّل الجوهر الالهى اذ هو يوجد منذ الأزل بكل ماله من صفات . اذ ان الأشياء الجزئية أو الفردية من حيث هى مكونة بواسطة هذه الهيئات ، فهى مساوقة لله الذى له هذه الصفات التى تفيض منها هذه الهيئات ، واذا كان الله سابقا عليها ، فليس هذا السبق فى الزمان ، ولكنه فى الطبيعة والرتبة ، لأنه لايمكن ان يتصور ان الله كان من غير عالم ، كما لايمكن ان يتصور انه كان بدون صفات وهيئات .

وينبنى على هذه المقدمات كلها ان كلا من النفس الانسانية والجسم الانسانى هيئة لصفة من صفات الجوهر الالهى ، أعنى ان النفس الانسانية هيئة لصفة الفكر الالهى ، وان الجسم الانسانى من ناحية أخرى ، على ان بينهما تبادلا أو توازنا ، كما نظر الى الصلة بين الأفكار فيما بينهما من جهة ، والى الصلة بين الأشياء فيما بينهما من جهة أخرى ، على أن بينهما مثل هذا التبادل أو التوازى الذى بين النفس والجسم ، وكما نظر بعد

هذا كله الى الانسان على انه هيئة مركبة من الفكر والامتداد الالهيين .
ويمكن أن يقال بعبارة أخرى من عبارات اسبينوزا نفسه أن النفس فكرة
أو سلسلة من الأفكار للفكر الالهي ، وأن الجسم فكرة للنفس ، والنفس
فكرة للجسم تقابل كل منهما الأخرى أو تتوازي كل منهما مع الأخرى .
وكل أولئك ينتهي باسبينوزا الى ان ثمة اتساقا سابقا بين النفس
والجسم ، وان هذا الاتساق تحكمه الضرورة التي هي شرط لا بد منه
عند هذا الفيلسوف لكل ما يصدر عن الطبيعة الالهية . وهنا ينتهي اسبينوزا
أيضا الى ان هذه الصلة الضرورية بين النفس والجسم ، أو بين كل جسم
وبين فكرته ، انما تؤدي الى ان لكل جسم نفسا ، وأن الطبيعة بأسرها
حية ، وهذا يعنى أيضا ان كل الكائنات التي فى الكون حية ، ولكن على
درجات متفاوتة .

وبعد نظرية النفس وصلتها بالجسم ، وقف اسبينوزا فى الجزء
الثانى من الكتاب عند الهيئات المختلفة التى تتألف منها النفس الانسانية ،
مبتدئا بالمعرفة ، وها هنا ننتقل مع هذا الكتاب من علم الوجود
« الانطولوجيا » الى علم النفس « البسيكولوجيا » الذى يختلف عند
اسبينوزا عما هو عليه عند جمهرة الفلاسفة الذين عرضوا لعلم النفس :
ذلك ان فيلسوفنا انما يستقى كل عناصر علمه فى النفس من طبيعة الله
وصفاته ، بحيث لا يعول على استمداد شئ من المشاهدة الباطنية أو الشعور
الانسانى الذى تقوم به وتدور عليه هذه المشاهدة الباطنية ، اذ ان النفس
كما يتصورها اسبينوزا ليس لها ملكات ، وانما كل ما لها هيئات ،
ويترتب على هذا ان العقل والارادة انما هى مجرد ألفاظ لا معنى لها ،
أو هى محض تجريدات لا غناء فيها ، وان هيئات الفكر هى وحدها التى
لها حقيقة وجودية ما .

الجزء الثالث

فى اصل الانفعالات وطبيعتها

استهل اسبينوزا الجزء الثالث من كتابه بتمهيد قدمه لأصل
الانفعالات وطبيعتها ، فصرح فى هذا التمهيد بادىء ذى بدء بانه سيصطنع
فى هذه الدراسة نفس المنهج الذى اصطنعه فى دراسة الله والنفس
الانسانية ، أى انه سيدرس انفعالات الناس ورذائلهم وحمقاتهم على
نحو ما تدرس الخطوط والسطوح والأحجام ، لأن تلك الأشياء ليست
أقل حظا من الخصائص الطبيعية من هذه ، ولا هى أقل فى خضوعها

لقوانين الكون العامة من بقية الأشياء . وما هنا نرى اسبينوزا يعيب على الفلاسفة الذين عرضوا من قبله للانفعالات ، انهم جعلوا من الانسان دولة فى داخل الدولة ، ونظروا اليه على انه من القدرة على قهر الانفعالات بحيث يصبح من شأن الانسان وهو هذا الكائن الوهمى ان يخل بنظام الكون ، فضلا عن انه فى نظرهم كأنه ليس جزءا من هذا الكون ، وفى رأى اسبينوزا انه مهما كان من جمال وروعة فيما كتبه أولئك الفلاسفة عن الهيئة التى تكون عليها الحياة المثل ، الا أن أحدا منهم لم يحدد الطبيعة الصحيحة للانفعالات ، ولا ما لهذه الانفعالات من سلطان على النفس ، ولا ما لهذه النفس من سلطان على تلك الانفعالات ، ومن ثم كانت شكوانا مما عليه حالنا ، وكانت كراهية الناس وازدراؤهم ، وكان فوق هذا وذاك هذا الذم الرائع فى بلاغته الذى وجه الى النفس الانسانية على انها قاصرة عاجزة ، كان هناك رزيلة ما فى الطبيعة ، وكما لو لم يكن كل شىء داخلا سواء بسواء فى النظام الكلى للكون ، ولا راجعا فى ايجاده الى قوانين ضرورية .

وبعد هذا التمهيد أخذ اسبينوزا فى عرض تعريفاته وبديياته ومسلماته ومطالبه وبراهينه ونتائجه التى هى جماع العناصر التى تتألف منها دراسته لأصل الانفعالات وطبيعتها : فهو قد عرف الانفعال بأنه يعنى به تغيرات الجسم التى بها تزيد أو تنقص قوة الفعل فى الجسم ، فاما أن تكون عونا ، واما أن تكون عائقا ، كما يعنى به فى الوقت نفسه أيضا الأفكار المتعلقة بهذه التغيرات .

أما أصل الانفعال فان اسبينوزا قد استطاع ان يصل اليه ، فاذا أصل الانفعالات جميعا عنده ، ليس فى الجسم ، ولا فى الأعراض الخارجية ، بل هو فى جوهر النفس عينه ، وبهذا امتاز اسبينوزا عن ديكرت . أما ما هو هذا الأصل أو المصدر الذى تصدر عنه وترد اليه كل الانفعالات ، فهو عند اسبينوزا الطلب أو النزوع أو الرغبة . وهذا يتبين اذا لاحظنا معه أن فى النفس الانسانية همة أساسية وجوهرية تظل دائبة بها الى غير حد على وجودها الذى هو عين جوهرها . وانه اذا كانت النفس هيئة صادرة عن القوة الالهية المتناهية ، فهى لا تنقطع عن ان تفعل فعلها فتبذل همها أبدا حتى تحفظ وجودها وتنميه على الدوام ضد كل الانفعالات .

والانفعالات عند اسبينوزا - أنواع : منها انفعالات أولية ، ومنها انفعالات ثانوية : فاما الانفعالات الأولية فهي الطلب ، والفرح والحزن ، وهذه الانفعالات الثلاثة هي التي تتولد منها كل الانفعالات الأخرى .

وأما الانفعالات الثانوية فهي ألوان متنوعة للانفعالات الأولية ، أو هي تنوعات لها ومشتقات منها ، الأمر الذي يمكن ان نتبينه في وضوح وجلاء إذا وقفنا مع اسبينوزا عند بعض الأمثلة التي تظهرنا على ان كل الانفعالات انما ترجع الى أصول أولية هي انفعالات الطلب والفرح والحزن : فالحب والكراهية ليسا انفعالين أوليين ، ولكنهما انفعالان مشتقان من انفعالي الفرح والحزن . بمعنى انك اذا أضفت الى كل من الفرح والحزن معرفة العلل التي تولدهما ، فقد حصل لك عندئذ انفعال الحب وانفعال الكراهية .

ولا يقف اسبينوزا عند هذا الحد من تصنيف الانفعالات وتعريفها . بل هو قد وقف أيضا عند تحليل التعاطف وتعليله وقفة لعله كان فيها أسبق من آدم سميث الى وضع قوانين التعاطف ودراستها دراسة دقيقة : فلهذا يصوغ اسبينوزا مبدأ التعاطف على الوجه التالي : « اننا نجد في أن نفعل كل الأشياء التي يخيّل لنا ان الناس ينظرون اليها بفرح ، واننا نكره الأشياء التي نعرف انها تستلزم كراهيتهم » . وههنا أيضا يلاحظ اسبينوزا ان مجال التعاطف أوسع من هذا نطاقا ، وذلك اذ يقول ان كل شيء تماثل طبيعته طبيعتنا انما يجعلنا نستشعر له الى حد ما تأثيرا شبيها بذلك التأثير الذي نرى اننا نستشعره فيه ، ومن هنا كان الجهد الذي نبذله لكي يحب الآخرون ما نحب ، ويكرهوا ما نكره ، ومن هنا أيضا لم يكن الفرح بزوال الشيء المكروه ليمضي دون ان تشوبه شائبة من حزن .

الجزء الرابع

في عبودية الانسان

او في قوى الانفعالات

بعد ان فرغ اسبينوزا من دراسة الانفعالات من حيث هي في ذاتها على الوجه الذي رأينا معه في الجزء الثالث من كتابه « علم الأخلاق » ، نراه في الجزء الرابع والخامس يعرض لهذه الانفعالات من حيث علاقاتها

بِسَعَادَةِ الْإِنْسَانِ وَكَمَالِهِ : فَعَلَامَ تُشْتَمَلُ عِبُودِيَّةُ الْإِنْسَانِ وَحُرِيَّتُهُ بِالنَّسَبَةِ إِلَى الْإِنْفَعَالَاتِ ؟ وَمَا هُوَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ؟ وَمَا هِيَ الْإِنْفَعَالَاتُ الْمُحْمُودَةُ وَالْإِنْفَعَالَاتُ الْمَذْمُومَةُ ؟ وَمَا هِيَ سَبِيلُ الْوُصُولِ إِلَى السَّعَادَةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَإِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ ؟ كُلُّ أُولَئِكَ مَوْضُوعَاتُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْجُزْءَانِ الْآخِرَانِ مِنْ كِتَابِ « عِلْمُ الْأَخْلَاقِ » ، وَهُمَا اللَّذَانِ يُورَدُ الْمُؤَلَّفُ أَحَدُهُمَا بِعَنْوَانِ « عِبُودِيَّةُ الْإِنْسَانِ » وَيُورَدُ الْآخَرُ بِعَنْوَانِ « حُرِيَّةُ الْإِنْسَانِ » ، وَكِلَاهُمَا مَرَّةً صَادِقَةٌ يَتَجَلَّى عَلَى صَفْحَتِهَا الْمَذْهَبُ الْأَخْلَاقِيُّ لِسَبِينُوزَا .

وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَا يَظْهَرُ نَا عَلَيْهِ اسْبِينُوزَا هُوَ سُلْطَانُ الْإِنْسَانِ بِعَقْلِهِ عَلَى الْإِنْفَعَالَاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَسُلْطَانُ الْإِنْفَعَالَاتِ عَلَى الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ ، وَعَلَى الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تَتَنَاهَى فِي اسْتِعْلَانِهَا عَلَيْنَا ، وَهِيَ قُوَّةُ الْعِلْلِ الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي تُولَدُ فِيْنَا هَذِهِ الْإِنْفَعَالَاتِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى . أَمَّا كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ، فَهَذَا مَا نَتَبَيَّنُهُ مَعَ اسْبِينُوزَا هُنَا أَوَّلًا فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ جُزْءًا بَسِيطًا مِنَ الطَّبِيعَةِ مُفْتَقِرًا إِلَى كُلِّ الْأَجْزَاءِ الْآخَرَى ، فَانَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا عِلَّةً جُزْئِيَّةً غَيْرَ تَامَةٍ لِلتَّغْيِرَاتِ الَّتِي تُعْرَضُ لَهُ . وَلَكِنْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ خَلُوهًا مِنْ كُلِّ طَلَبٍ أَوْ رَغْبَةٍ حَتَّى يَكُونَ فَارِغًا مِنْ كُلِّ إِنْفَعَالٍ ، فَلَا يَبْدُ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَفْكَارُهُ كُلُّهَا تَامَةً ، وَمِنْ أَنْ يَكُونَ هُوَ لَا مُتَنَاهِيًا مِثْلَ اللَّهِ حَتَّى يَكُونَ حُرًّا كَذَلِكَ . وَلَكِنْ الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُقَهَّورٌ ضَرُورَةً بِالْإِنْفَعَالَاتِ ، وَإِنَّهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ كَذَلِكَ فَهُوَ إِنَّمَا يَتَّبِعُ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ لِلطَّبِيعَةِ عَلَى قَدَرِ مَا يَتَطَلَّبُهَا النِّظَامُ الْكُلِّيُّ لِلْأَشْيَاءِ . عَلَى أَنَّ الْإِنْفَعَالَاتِ ، وَإِنْ كَانَتْ قَاهِرَةً لِلْإِنْسَانِ مِنْ وَجْهِ ، إِلَّا أَنَّهَا مُقَهَّورَةٌ مِنْ وَجْهِ آخَرَ : يَقْهَرُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَلَا يَنْقَهَرُ أَحَدُهُمَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْإِنْفَعَالُ الْقَاهِرُ لَهُ أَقْوَى مِنْهُ . وَلَا تَكْفِي مَعْرِفَةُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِمَنْعِ أَيِّ إِنْفَعَالٍ مِنَ الْوُقُوعِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ إِنْفَعَالًا مُتَوَلِّدًا مِنَ الشُّعُورِ بِالْفَرَحِ أَوْ الْحُزَنِ . وَالصَّرَاحُ الَّذِي يَنْتَهِي بِهَذَا الْإِنْفَعَالُ إِلَى الْقَهْرِ ، وَبِذَلِكَ الْإِنْفَعَالُ إِلَى الْإِنْقَهَارِ ، إِنَّمَا هُوَ فِي رَأْيِ اسْبِينُوزَا صِرَاحٌ بَيْنَ قَوْتَيْنِ مُقَدُورَتَيْنِ حَيْثُ تُسْتَعْلَى ضَرُورَةً أَحَدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فِي هَذَا الصَّرَاحِ فَإِذَا أَحَدَاهُمَا قَاهِرَةً ، وَالْآخَرَى مُقَهَّورَةً .

وَيُحْصَى اسْبِينُوزَا بَعْدَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ أَوْ الظُّرُوفِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَزِيدَ أَوْ تَنْقُصَ فِي قُوَّةِ الْإِنْفَعَالِ .

وَيَرَى اسْبِينُوزَا أَنَّ لِكُلِّ نَتِيجَةٍ الْعَقْلُ ، فَلَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَقِفَ مِنْ أَنْفُسِنَا مَوْقِفَ الْحَرْبِ لِأَنْفُسِنَا ، لِأَنَّ الْعَقْلَ لَا يَأْمُرُنَا بِشَيْءٍ غَيْرِ مَلَائِمٍ لِطَبِيعَتِنَا : فَحُبْنَا لِأَنْفُسِنَا ، وَسَعِينَا وَرَاءَ مَا هُوَ نَافِعٌ حَقًّا ، وَبَذَلْنَا مَا نَبْذُلُ مِنْ جَهْدٍ حَتَّى نَحْفَظَ وَجُودَنَا عَلَيْنَا مَا دَامَ لَنَا هَذَا الْوُجُودُ ، وَالْجَدُّ فِي طَلَبِ

الخير والنفرة من الشر على الجملة ، كل أولئك يأمرنا به العقل . ويعرف اسبينوزا الخير على نحو ما يعرفه « هوبس » (٢) بأنه كل ما نعرف يقينا انه لابد من أن يكون نافعا لنا ، كما يعرف الشر بأنه هو الذى يحول دون الخير . وبعبارة أخرى يقال مع اسبينوزا ان خير الانسان هو كل ما ينفع فى الحالين سواء . انه يأخذ نفسه بأن تخلص نفسه الى اسداء الفضل معه أيضا ان شر الانسان هو كل ما يضاد حفظ وجوده عليه ، أو هو كل ما ينقص من قدرته على الفعل .

والعقل لا يلزم الانسان بأن يحفظ وجوده عليه فحسب ، بل هو يلزمه أيضا ألا يجافظ على نفسه الا من أجل نفسه ، وان يصطنع فى هذه المحافظة كل الوسائل الممكنة : فكلما عمل الانسان على حفظ وجوده وانماؤه ، كان انسانا أفضل مما كان ، لأنه أصبح وله من القدرة والكمال حفظ أوفر مما كان له ، وكلما أهمل الانسان عنايته بحفظ بقائه ، كان نصيبه من العجز أكثر : لأنه لا يستطيع ان يقصر فى هذه العناية الا اذا كان للانفعالات ولفعل الأسباب الخارجية عليه سلطة وقهر . وترجع أفضلية الانسان فى حالة الأولى عنه فى حالة الثانية ، الى ما يعتقده اسبينوزا من ان الجهد الذى تدأب النفس على بذله فى حفظ الوجود على صاحبها هو الفضيلة الأولى والعليا التى لا يمكن أن تتصور فضيلة أخرى قبلها أو أعلى منها .

ومهما يكن من أمر الطابع الابيقورى الذى يبدو على مذهب اسبينوزا الأخلاقى ، فان الذى لاشك فيه هو هذه الآية الكبرى التى تتجلى فيها نتيجه العليا وهى هذه النتيجة القائمة على مبدأ محافظة الانسان على نفسه من أجل نفسه ووحدة الخير مع مصلحته الخاصة . أما هذه الآية الكبرى فانها تتمثل فى التأمل فى الله وفى حبه : ذلك بأن الانسان من حيث هو فكرة الله ومن حيث ان الفكر هو جوهره ، وانه لابد له من ان يأخذ نفسه بقواعد العقل ، فقد ترتب على هذا كله أن يكون الفكر هو ما ينبغى ان يحب فيه ، وان يكون هذا الفكر هو ما ينبغى ان تعمل كل جهوده على حفظه وانماؤه .

فاذا عرفنا هذا كله فى وضوح وجلاء ، فهنا نحن أولاء نصل مع كتاب اسبينوزا الى نهاية الجزء الرابع ، حيث يعطينا صورة رائعة للانسان الحر مطابقة لمبادئه : فمن هذه الصورة نتبين ان هذا الذى ينقاد للانفعالات انما هو الانسان الضعيف الشقى المسترق ، وان هذا الذى ينصت الى صوت العقل انما هو الانسان القوى ، الانسان السعيد ، الانسان الحر : أولهما يفعل سواء أراد أو لم يرد دون ان يعرف ما يفعل ، وثانيهما لا يطاوع

الا نفسه ، ولا يفعل شيئا الا أن يكون عارفا بما هو خير وأفضل حتى يفعله في الحياة ، وعالما بما يتطلبه هو نفسه أكثر مما يكون عالما بما يتطلبه غيره . ان الانسان الحر ، أو الانسان الذى يحيا على مقتضى العقل ، انما يكون بمنجاة من القلق والخوف ، ولا يتفكر فى شيء أقل مما لا يتفكر فى الموت ، لانه لا يتفكر الا فى ان يحيا ، وان يعمل ، وان يحافظ على وجوده ، وفقا لقاعدة مصلحته الخاصة ، اذ الحكمة هى - كما يقول اسبينوزا معارضا لأفلاطون - هى تأمل للحياة لا للموت . ان هذا الانسان الحر حقا يعرف كيف يتعاقب فيه الاقدام والخوف سواء بسواء ، كما انه يعرف كيف يتجنب أو يتلمس مواطن الصراع بروح حضورها لديه فى الحالين سواء . انه يأخذ نفسه بأن تخلص نفسه الى أسداء الفضل وأداء الخير الى الجاهل حتى يكون بمأمن من بعضهم ، ولا يكون مذعنا لرغباتهم الجامحة . انه يعمل بايمان راسخ دائما . حتى يحفظ وجوده . انه لا يلجأ الى الغدر لانه لا يطاوع الا العقل الذى لا يدل على الغدر أبدا ، ولو كان العقل دليلا على الغدر ، وكان الانسان متبعا للعقل ، لترتب على ذلك ان يكون الانسان دليلا لغيره على طريق الغدر ، وهذا محال : لأن ذلك انما يعنى ان الانسان لا يستطيع أن يوحد قوى أشباهه ، ولا أن يوجه جهودهم الى الخير الا عن طريق الغدر ، وانه لا يكون عندئذ ثمة شيء حق هو شركة بينه وبينهم ، وان هذا الانسان الحر لهو هذا الذى يشعر فى حياته الاجتماعية فى ظل القانون العام بأنه أكثر حرية مما لو كان فى حياته الفردية منعزلا عن غيره لا يصدع الا بأمر نفسه ، وههنا فى حياة اجتماعية كذلك لا يكون الانسان الشاعر بحريته على هذا الوجه مطاوعا للقانون عن خوف ، ولكن عن ذات عقل ، وههنا أيضا تراه فى دأبه على حفظ وجوده على مقتضى العقل لا يعمل الا وفقا للقاعدة العامة وتبعا للمنفعة العامة .

وينتهى هذا كله باسبينوزا الى نهاية قوامها حياة عقلية آمنة من ناحية ، وحياة روحية وادعة من ناحية أخرى ، وهما هاتان الحياتان اللتان تجسدهما النفس الانسانية فى ظل الحرية قائمة على دعائم من فكرته الرئيسية وهى ان كل شيء انما يلزم عن ضرورة الطبيعة الالهية ، وتلك فكرة تجدد النفس بين أحضانها سكينتها وطمانينتها ، اذ ما عسى ان يطمح اليه العقل ، أو تصبو اليه الروح الا ان يكون ما يلائم النظام الضرورى للأشياء ! وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات اسبينوزا نفسه أن خير جزء فينا ينبغى أن يكون موافقا للطبيعة ، واذا كان ذلك ، فقد ترتب عليه ان الغاية القصوى التى يرى اسبينوزا ان مذهب الأخلاقى ينتهى الى تحقيقها انما هى أمن النفس الذى تحصل عليه هذه النفس بتأمل ما هو

ضروري أزلى وأبدى ، وبمعرفة الوحدة الذاتية التي بين أنفسنا الجزئية وبين الضرورة الكلية للأشياء التي ليست في حقيقتها إلا هيئات للطبيعة الإلهية

الجزء الخامس

في قوة العقل

أو في حرية الانسان

لعل أول ما يلاحظه المتأمل في الجزء الخامس من كتاب « اسبينوزا » « علم الأخلاق » ، هو انه يفصل في هذا الجزء ما أجمله أو أشار اليه في الأجزاء الأربعة بصفة عامة وفي الجزء الرابع بصفة خاصة : فهو يبسط القول في الابانة في الجزء الخامس هذا عن الحقيقة والأمن والسعادة وأين النفس الانسانية من هذا كله ، أو أين هذا كله من النفس الانسانية . كما يتحدث مسهباً في استكناه حب الانسان لنفسه من ناحية ، وحب الانسان لغيره منظوياً على حبه لنفسه ، وعلى مبدأ محافظة الانسان على نفسه من ناحية أخرى ، وهو يعرض بعد هذا كله لوحدة حب الانسان لله ، وحب الله للانسان ، وللانفعالات المحمودة والانفعالات المرذولة كما يصور الانسان وقد تحرر من ربة الانفعالات ، ويتعمق في ما ينبغي ان يتوفر فيه من شروط تكفل له الخلود أو الحياة فيما هو أزلى ومع ما هو أبدى .

يرى اسبينوزا ان المعرفة وحدها لا الحرية هي التي تجعل للنفس بعض السلطان على الانفعالات ، وان العقل وحده هو القوة التي يتصرف بها الانسان تصرفاً يمكنه من كبح جماح انفعالاته . ومعنى هذا انه على قدر معرفتنا بالانفعال يكون حظ النفس من هذا الانفعال ، أى انه كلما كانت معرفتنا بالانفعال على وجه أحسن كانت النفس فاعلة لا منفعة .

أى اننا بمعرفتنا لأنفسنا معرفة مطردة في وضوحها نستطيع ان نتمكن من الاقلال من شأن الانفعالات ، وهذا هو ما ينبغي ان نصبو اليه ، ونعمل عليه ، بحيث تستحيل أفكارنا غير التامة الى أفكار تامة ، وهناك تتحول النفس عن الانفعال الذي يعمل عملها فيها الى الشيء نفسه الذي ينبغي على النفس ان تعمل الفكر فيه بحيث تدركه في وضوح وتميز ، وهناك ستجد عند هذا الشيء سكينتها الكاملة . ويتبين تفاوت الانفعالات في القوة والضعف بتفاوت المعارف والأفكار في التمام والنقص .

إذا لاحظنا مع اسبينوزا انه كثير ما يشتد بنا انفعال الحزن لفقدان شيء ما قد اقتنعنا بأنه ليس ثمة لدينا وسيلة ما للمحافظة عليه ، وانه قليلا ما يكون حظنا من هذا الانفعال ، وذلك بالقياس الى كل ما ندركه ونحكم عليه بأنه طبيعي وضروري .

ومعنى هذا كله ان كلا من المنطق وعلم النفس لدى اسبينوزا ، انما يقوم على قاعدة أساسية واحدة : هي تلك التي يعمل بها الانسان على تحويل أفكاره غير التامة الملبسة الى أفكار تامة حقا .

على ان مبدأ محافظة الانسان على نفسه ودأبه على حفظ وجوده على نفسه من أجل نفسه ، ليس عند اسبينوزا مصدرا يستخلص منه حب الله فحسب ، وانما هو يستخلص منه كذلك حب غيره من الناس : لأن الانسان بسيره في الطريق الذي يؤدي الى الخير الأسمى انما يعمل في نفس الوقت لخير الآخرين كما يعمل لخير نفسه ، ولأن الخير الحق انما هو قسمة أو شركة بين كل أفراد الانسان ، ولأن هذا الحب أو ذاك ليس من شأن أحدهما أو كليهما أن يثير الغيرة والحسد في نفس أى انسان ، أو يؤدي الى التقاطع والتنازع بين أى فردين من أفراد الانسان ، بل هو يسلم الى التراحم والتحاب واتحاد القوى على وجه أشد وأقوى مما كان ، بحيث لو قد تواصل وتحاب وتراحم فردان ، لكان منهما فرد واحد هو أقوى ضعفين مما لو كان كل منهما منفردا ، ومن هنا لم يكن أنفع للانسان من الانسان الذي يسير على مقتضى العقل ، وفي حدود قوانين الطبيعة الانسانية التي تلائم بالضرورة طبيعة كل انسان .

وآية هذا كله التي تدل دلالة واضحة على طبيعة الحبين الالهى والانسانى ، هي أن اسبينوزا يرى ان الحب العقلى النابع من النفس الانسانية الى الذات الالهية ، انما يصدر عن الحب العقلى الفائض من ذات الله لذات الله ، لأن الله من حيث هو محب لذاته ، انما يحب كذلك الناس الذين هم هيات لذاته ، ولأن حب النفس لله ، انما هو جزء من عين حب الله اللامتناهى لكماله اللامتناهى ، وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات اسبينوزا ان حب الله للانسان ، وحب الانسان لله ليسا في الحقيقة الا حبا واحدا .

وهكذا نرى مع اسبينوزا كيف ينتهى مذهب الأخلاقى فى هذا الكتاب القيم الى نهاية مشرقة وغاية متألقة أخص خصائصها هذه الصبغة

الروحية التي اشرقت وتالفت بها جوانب عقله وقلبه وروحه ، فاذا هو
يحيا ، ويريد غيره ان يحيا ، حياة عقلية كاملة من ناحية ، وحياة روحية
فاضلة من ناحية أخرى ، كلتا الحياتين هما اللتان تكفلان لمن يحياهما
الحياة السعيدة الراضية الباقية سواء في هذا العالم ، وفي العالم الآخر ،
حيث تتفيا النفس ظلال الحق والخير والوجود ، وتستضيء بأنوار الأزل
والأبد والخلود .

تأثير الكتاب في تنشئة

الاستنارة في فرنسا والعالم

ان لاسبينوزا نصيبا يكاد يكون خفيا في تنشئة الاستنارة في فرنسا ، فان زعماء هذه الثورة العنيفة استخدموا نقد اسبينوزا للكتاب المقدس سلاحا في حربهم ضد الكنيسة ، وأعجبوا بمذهب الجبرية عنده ، و « بأخلاقه » القائمة على المذهب الطبيعي ، وبرفضه للتدابير في الطبيعة ، ولكن حيرتهم مصطلحاته الدينية ، والتصوف أو المذهب الباطني البارز في كتاب « علم الأخلاق » وقد تخيل رد الفعل في فولتير أو ديدرو ، وفي هلفيشيوس أو دي هولباخ ، لعبارات مثل « أن الحب الروحي العقلي لله هو نفس الحب الذي يحب به الله نفسه » .

وكانت الروح الألمانية أكثر استجابة لهذا الجانب من فكر اسبينوزا . واستنادا الى حديث رواه « فردريك جاكوبي » (١٧٨٠) لم يعترف لسنج بانه لم يكن طوال سني نضجه متأثرا باسبينوزا فحسب ، بل كذلك انه « لا فلسفة الا فلسفة اسبينوزا » ان التعادل بين الطبيعة والله ، ذلك التعادل القائم على مذهب وحدة الوجود ، هو بالتحديد الذي اهتزت طربا له ألمانيا أثناء الحركة الرومانتيكية بعد ان جرت حركة الاستنارة في عهد فردريك الأكبر مجراها . وكان « جاكوبي » ، بطلس « فلسفة الوجدان » الجديدة من بين أولئك المدافعين عن اسبينوزا (١٧٨٥) وثمة ألماني رومانتیکی آخر هو « نوفاليس » أطلق على اسبينوزا « الثمل بحب الله » . وقال هرذر بانه « وجد في رسالة الأخلاق ، التوفيق بين الدين والفلسفة » . وكتب شليماخر رجل الدين المتحرر عن « اسبينوزا المقدس المحروم من الكنيس » . وارتد جيته الشاب عندما قرأ « الأخلاق » لأول مرة ، ومنذ ذلك الوقت غلبت السبينوزية على شعره (غير الجنسي) ونثره . ويرجع بعض الفضل الى تنسمة جو الهدوء في كتاب « علم الأخلاق » في انصرافه عن الرومانتيكية المتطرفة الجامعة عند « جوتزفون برليخنجن » ، وآلام فرتر الشاب الى الاتزان المهيب في أخريات حياته .

وعوق « كانت » مجرى هذا التأثير لبعض الوقت ، ولكن هيجل صرح بأنه
« لكي تكون فيلسوفا ينبغي أولاً أن تكون اسبينوزيا » ، وعبر من جديد عن
اله اسبينوزا بأنه (العقل المطلق) وربما تسرب شيء من « نزعة المحافظة
على الذات » عند اسبينوزا الى « ارادة الحياة » عند شوبنهاور ،
و « ارادة القوة » عند نيتشة .

ولم يصل اسبينوزا الى أذهان الانجليز الا عند ظهور الحركة
الرومانتيكية عند انصرام القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ،
وحينئذ أوحى أكثر من أى فيلسوف غيره بالميتافيزيقا العنيفة القوية .
عند وردزورث وكوليردج وشللي وبيرون . وترجم جورج اليوت « الأخلاق »
بعزيمة صادقة . واعترف جيمس فروود وماتيو ارنولد بتأثير اسبينوزا
على تطورهما العقلي . ويبدو أن الدين والفلسفة أثبت كل نتاج الانسان
على مر الزمان .

هوامش

(١) الرواقيين : الرواقية مدرسة فلسفية أسسها زينون (ح ٢٠٠ ق م) ترى ان ماهية الانسان جزء من الوحدة الجامعة بين الله والطبيعة • وان الحقيقة مادية تسودها قوة توجهها (القوة الالهية) •

(٢) هوبس : توماس هوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) فيلسوف انجليزي • اخذ بالمذهب المادي • ورفض الميتافيزيقا التأملية • وكان من أنصار المذهب الذري •

ألف ليلة وليلة
مجهول المؤلف والتاريخ !!

ألف ليلة وليلة

مجهول المؤلف والتاريخ !!

كتاب « ألف ليلة وليلة » ثروة تراثية هائلة التقى المفكرون ، من شرقيين وغربيين • على اعتبارها وثيقة حية تعكس حياة العصر الاجتماعية والفكرية على حد سواء ، ورغم كل الدراسات والأبحاث التي تناولت هذا الأثر العظيم فإنه ما يزال فيه جوانب تستحق الكشف والتدقيق •

وقد اهتم عشاق القصة ورجال الأدب في العصر الحديث بهذا الكتاب الذي يزخر بأكبر مجموعة قصصية عربية ، تمتاز بالصراحة وصدق التعبير ، وخصب الخيال ، والتصوير البديع ، والأساطير الجذابة ، والعواطف المشبوبة ، والشخصيات الرائعة ، والمغامرات الباهرة ، والأجواء الساحرة التي يعيش فيها القارئ ، وكأنما يعيش في أحلام لذيذة ، وآمال حلوة وعالم يزدحم بوقائع الجان ، وطبائع الإنسان ، والصراع بين الخير والشر ، والفساد والصلاح ، والفشل والنجاح •

وهي - إلى ذلك - صور تاريخية صادقة لحياة المجتمع الشرقي في القرون الوسطى ، وما كان عليه أهله من طباع وعادات ، وما كان لهم من أخيلة وأفكار ، وعقائد وآراء في ركوب الأسفار ، وامتطاء البحار ، وبسالة المحاربين ، والذود عن الدين ، وطموح المغامرين ، وما كان لهم من آراء في المرأة وأحوالها ، فهي عندهم ريحانة محببة ، ولكنها شيطانة متقلبة ، لا نعرف غير نفسها ، ولا ترضى غير أنوثتها !

فألف ليلة وليلة أكثر من كتاب عادي ، نبخسها حقها إذا اعتبرناها حكايات للتسلية مطعمة بالأساطير والخرافات • فهي تقدم لنا جل ما تلقاه العقل البشري من تأثيرات الكون • وجل ما حققه الفكر ، مقرونا بالاجتهاد ، في مجالات الأدب والفن وحتى الفلسفة ، ناهيك بما فيها من جذور تمتد إلى ما قبل التاريخ ، وتستلهم حضارات بائدة ، أو منسية ، سبقت حضاراتنا ، وبلغت من المعرفة والعمران ما لم نبلغه بعد في عصرنا النووي

« الكومبيوترى » ، فى بقعة من عالمنا طولها ثلاثة عشر ألف كيلو متر وعرضها أربعة آلاف ، تمتد من طليطلة الى بورينو ، وتتوغل فروع منها فى أعماق الصين ، وبحر الظلمات ، وحتى القارة السوداء .

تحفة رائعة مجهولة المؤلف

ان هذا الكتاب ، الذى يبدو مجموعة غير متجانسة من القصص ، والطرائف ، والأساطير المتعددة الأصول ، التى جمعت على مر القرون ، لا يمكن أن يكون من ابداع مؤلف واحد . والواقع فان الكثيرين من المقتبسین قد عملوا فى تأليف هذه التحفة الجماعية المجهولة المؤلف . ومع ذلك فان فى قصص ألف ليلة وليلة ، برهانا يعتبر أساسا فى مجموع هذا المؤلف الأدبى ، هو أن واحدا أو أكثر من العباقرة المجهولين ، قد عرفوا كيف ينشئون موضوعا بالغ الاتساع ، لكن يشتمل على مجموعة من القصص المتباينة ، مثل السندباد البحرى ، وعلى بابا والأربعين لصا ، وعلاء الدين ومصباحه السحرى ، وشهر زاد ، وذلك بغير أن يفقد المصنف أهميته .

فألف ليلة وليلة تحدد لكل مجموعة من قصصها هدفا انسانيا محددا يختفى وراء مجموعة الموضوعات التى تطرقها كل قصة من قصص المجموعة منفردة . وهى عند النظرة العجلى تبدو مفككة لا رابط بينها ، وكأنها مجرد حكى لا يقصد منه سوى الامتاع والتسلية ، بينما هى عند النظرة التحليلية الفاحصة تكشف عن أبعادها القيمة وأهدافها الانسانية بوضوح كما أن كل قصة من قصص المجموعة تلعب دورها فى تأكيد هذا الهدف وايضاح ذاك البعد .

ففى ذات يوم ، يفاجئ الملك شاه الزمان زوجته مع أحد العبيد ، فيشعر بغم عظيم ، وينطلق ليحكى لاخته ملك الفرس شهریار حظه التعس . . ولكن هذا يسر اليه بدوره ، خيانة زوجته !

وتحت أثقال العار والألم ، يقرر الملك أن يتجولا فى أرجاء البلاد ، بحثا عن شخص واحد ، تفوق تعاسته أحزانهما . الى أن كان يوم زالت فيه همومهما ، اذ شاهدا جنيا يخرج من خزانة حديدية امرأة بارعة الجمال ، ثم يغلبه النعاس فيروح فى سبات عميق . واذا بالمرأة تراهما ، وتحملهما على مضاجعتها . . .

ويعود شهریار الى عاصمة ملكه ، فيأمر بالزوجة الخائنة أن تعدم ، ثم يقسم ، بعد أن تأكد من أن جنس النساء لا يعرف الوفاء ، أن ينزوج

كل يوم فتاة جديدة ، حتى اذا كان الصباح أمر باعدامها • وبذلك يأمن الخيانة ، ومكر زوجة الليلة الواحدة

واستمر بالفعل ، لمدة ثلاث سنوات ، يحظى كل ليلة بفتاة جميلة عذراء تصبح زوجة للملك ، حتى اذا كان الصباح أسلمها للجلاد • الى أن أبلت الحسناء شهرزاد ، وهي ابنة وزير الملك ، رغبتها في أن تهب نفسها له في احدى الليالي ، لتكون الضحية التالية •

الا أن شهر زاد لم تدخل بمفردها المخدع الملكى ، وانما صحبت معها شقيقتها دنيا زاد ، ثم أخذت الاثنتان ، دنيا زاد بحيلها وتملقها ، وشهر زاد بقصصها العجيبة ، تستحوزان على اهتمام الملك ، وتصرفان عنه الملل الذى كان ينوء به • فلما طلع الفجر ، والملك مأخوذ بالقصة التى تقف بها صاحبته ببراعة عند نقطة بالغة الاثارة ، ويتحرق شوقا لمعرفة بقيتها ، اذا به يقرر تأجيل تنفيذ حكم الاعدام فى زوجته الجديدة الى اليوم التالى •

وهكذا ، وطوال ألف ليلة وليلة ، يؤجل الملك الذى افتتن بعبقرية هذه الرواية ، نهايتها من يوم الى آخر • وأخيرا ، يمتلك سحرها منه ، فيصدر عفوا عن شهر زاد ، فى الليلة الأولى بعد الألف •

أصل الليالى

ان هذه القصص الخرافية ، التى كانت وليدة خيال شهر زاد ، كما يقول المؤلف المجهول !

هى فى الواقع مأخوذة عن أساطير بلاد مختلفة ، انتقلت عبر القرون عن طريق الكتابة ، وبالفعل ، فان الطابع الذى يغلب عليه التحرر فى الكثير من الأحيان ، سواء فى الموضوع أو فى اللغة المستخدمة ، يحمل على اعتقاد بأن هذا النوع من القصص ، هى نتاج تجميع عدد من القصص ، والحكايات ، والروايات ، والطرائف ، النابعة عن تقليد سماعى حافل عرف عن الشرق •

وقد يسأل القارئ : من أين نشأت قصص ذلك الكتاب ، وهل هى فارسية أو هندية أو عربية ومن مؤلفها ؟ • واذا لم يكن لها مؤلف واحد ، فمن يكون جامعها وواضعها هذا الوضع الذى انتهى الينا فى شكله الاخير ؟؟ •



يرجع الباحثون النواة الأولى لآلف ليلة وليلة ، الى كتاب فارسي يدعى «هزار افسانه» ومعناه «آلف خرافة» ، لأن افسانه باللغة الفارسية تعنى خرافة . وقد قال علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م فى كتابه « مروج الذهب » حين عرض لآخبار شداد بن عماد ومدينته ارم ذات العماد : ان هذه الآخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك بروايتها ، وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة اليها والمترجمة لنا عن الفارسية والهندية والرومية، مثل كتاب «هزار افسانه»، وتفسير ذلك بالفارسية آلف خرافة . والناس يسمون هذا الكتاب « آلف ليلة » وهو خبر الملك والوزير وابنته شهر زاد وجاريتها دنيا زاد .

وقد وافق المسعودي فى ذلك محمد بن اسحاق المعروف بابن النديم والمتوفى فى سنة ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، فقال فى كتاب الفهرست : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الأول ، ثم أغرق فى ذلك ملوك الاشفانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ونقلت ذلك العرب الى اللغة العربية ، وتناوله النصحاء والبلغاء ، فهدبوه ونمقوه ، وصنفوا فى معناه ما يشبهه . فاول كتاب عمل فى هذا المعنى كتاب « هزار افسانه » ومعناه « آلف خرافة » . وكان السبب فى ذلك ان ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة ، قتلها من الغد . فتزوج بجارية من بنات الوزراء لها عقل ودراية يقال لها شهر زاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى على آلف ليلة . . » .

وهذان النصان للمسعودي وابن النديم يدلان على أن لكتاب آلف ليلة وليلة أصلاً فارسياً . وقد عني المستشرقون منذ أوائل القرن التاسع عشر بالبحث الجدى فى هذا الموضوع . وأول باحث فى ذلك هو المستشرق « سلفسترده ساسى » واضع كتاب فقه اللغة العربية الحديث ، وقد أنكر امكان قيام فرد واحد بتأليف هذا الكتاب ، ورفض رفضاً باتاً الرأى القائل بوجود عناصر فارسية وهندية فيه ، وزعم أن النص المنقول عن المسعودي منحول عليه ، ولكن غيره من المستشرقين قد خالفوه ، وأيدهم فى ذلك النص المنقول عن ابن النديم فضلاً عما قاموا به من مقارنات بين عدد غير قليل من قصص آلف ليلة وليلة وأصلها الفارسى .

وقد انبرى المستشرق « ملر » لبحث تاريخ « آلف ليلة وليلة » ، فكان أول من فطن الى انه يتكون من طبقات . وأخذ « نولدكه » بنظرية الطبقات وفصلها تفصيلاً وضع فيه مقاييس للموازنة بين هذه الطبقات ،

فمير كل طبقة منها عن الأخرى ، وقسم قصص الكتاب الى ثلاث طبقات .
الأولى نواة الكتاب وتشمل القصص التي أخذت من كتاب «هزار افسانه» ،
وقد ترجمت الى العربية في القرن الثالث الهجرى ، والثانية القصص
التي وضعت في بغداد . والثالثة القصص التي أضيفت الى الكتاب في
مصر . وقال ان هناك طبقة رابعة من القصص أضيفت اليه في عصور
متأخرة .

ومع ذلك ، فان التاريخ الدقيق لأول ترجمة عربية لهذا العمل
الأدبي الضخم ، بعد تنقيحه ، وإعادة كتابته ، وتعديله خلال مرحلة تطوير
طويلة ، لا يزال أمرا غير مقطوع به .

ولابد من اللجوء الى النقد الداخلي للنص ، والى دراسة السلوك
والعادات ، واللغة وتطور الحركة ، والتماثل في الحبكة ، لامكان التمييز
بين عمليات النقل المتتالية ، ومن بينها النقل عن الهند وفارس ، اللتين
يبدو انهما أهم البلاد التي نقل عنها وأقدمها . والواقع ان الهند هي التي
يجيء منها المدخل الى القصة ، وهي حكاية تصلح كمقدمة . ونطاق عام
يدور فيه الكتاب كله . الا أن شخصية الأميرة التي استطاعت أن تؤجل
كل صباح القرار النهائي ، ليست وحدها ما نقل عن تلك البلاد .

وهناك اثنتا عشرة قصة أخرى ، يتبين انها كذلك من أصل هندي ،
ومنها قصة حسن البصرى ، وقصة قمر الزمان ، وقصة بدور ، وقصة
الحصان المسحور ، وغيرها . ومن ناحية أخرى ، فان ظهور الجنى العفريت ،
المعروف لدى الفرس باسم « هازار عفصانه » ، وكذلك تعبيرات أخرى
سحرية ، انما يدل على مدى تأثير هذه البلاد .

وأخيرا ، فان مسار هذا المؤلف الجماعى ، الذى أعيدت كتابته على
مر الأعوام ، كان من المحتم أن يجعله يبدو غير متجانس . فلقد دخلت
عليه حكايات طويلة ، كانت فى البداية غريبة عن المصنف ، لتندمج فى
مجموعه . مثل كتاب السندباد ، أو كتاب الوزراء السبعة ، وهما يدلان
على أصلهما الهندى ، وكتاب الوزراء العشرة المستمد ، مثل مغامرات
شمس الملوك ، من الأدب الفارسى . وهذه القصص ، بتركيبها العام ،
ولما توحى من تعدد الحكايات ، تدین بالكثير الى التقاليد الهندية الفارسية
على السواء ، ولو انها ليست المصادر الوحيدة .

والواقع انه تم الكشف عن ان هناك نقلا عن البلاد الهيلينية ،
نتيجة لتحليل بعض القصص . وهذا الأثر يدل على أنه اذا كان الأدب
العربى الكلاسيكى ، قد زعم انه دفع عن نفسه فكر العالم الاغريقى ، فان
الأدب السماعى والشعبى ، قد تأثر بهذا الفكر .

وليس يضير ألف ليلة وليلة العربية أن تكون نواتها تلك القصص الفارسية ، فمما لا ريب فيه انه لو أتيح الوقوف على الترجمة الأصلية لنزار افسانه ، لوجدنا الفرق بينها وبين ما روى في كتابنا كالفرق بين أوديسية هوميروس والياذة فرجيل ، فان الياذة منقول أكثرها - لا بعضها - عن الأوديسية ومع ذلك تنسب لفرجيل !

أما القصص البغدادية في ألف ليلة وليلة ، فمنها القصص التي يردد فيها اسم هرون الرشيد ، وأبى نواس ، وأبى دلامة ، والقصص التي تتناول حياة الجوارى ومجالس الأنس والطرب ، وحكايات الحب والهيام ، والقصص التي تصف الحضارة العباسية ، وما كان في العراق من عمران ، كقصة المعتضد مع أبى الحسن الخراساني ، وقصة السندباد البحري ، وهي وصف شائق لسبع سفرات في جزر الهند والصين . وكانت في الأصل رحلة حقيقية ، ثم زاد فيها الناس بالمبالغة والافتعال . وقد وضعت في عهد بلغت فيه البصرة وبغداد غاية الازدهار . ومن الحقائق المعروفة أن هناك بعض الحكايات المصرية التي تشابه حكاية السندباد .

وأما القصص المصرية في ألف ليلة وليلة ، فهي كثيرة ، وتمتاز بروحها الشعبية ، ولغتها السهلة كحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مزين بغداد ، وعلى بابا والأربعين حرامي ، وعلاء الدين ، ومعروف الاسكافي ، وأبى قير وأبى صير ، والملك الناصر ، والرجل الصعيدي وزوجته الأفرنجية وغيرها . وقد اشتمل الجانب الأكبر من قصص ألف ليلة وليلة على أبيات من الشعر بعضها طويل وبعضها قصير ، رويت على لسان المتحدث .

وقد أجمع أكثر الباحثين على أن النصوص العربية لألف ليلة وليلة التي انتهت إلينا في التاريخ الحديث ، قد أخذت عن النص المصري ، والفضل في ذلك يرجع الى الكشف الذي قام به المستشرق « زوتنبرج » بعد دراسة جميع المخطوطات التي كانت موجودة ، واستطاع الحصول عليها وموازنتها . ويؤيد ذلك ما كتبه سيتزن في يومياته حينما زار القاهرة سنة ١٨٠٧ م ، فقد كتب يقول : « ان اسلان اكتشف أن مخطوطات ألف ليلة وليلة المتداولة في مصر قد جمعها واحد من الشيوخ ، وأن هذا الشيخ توفي منذ ٢٦ عاما ولسوء الحظ ترك اسلان في يومياته بياضا مكان اسم هذا الشيخ » . وأضاف الى هذا أن المجموعة الأصلية التي وصلت الى يد الشيخ كانت في مائتي قصة ، وأنه جمع اليها نحو ٦٥ قصة من الحكايات المتفرقة . وهذا يؤيد ما ذهب اليه زوتنبرج من أن النص الحالي لألف ليلة وليلة هو النص المصري . وهذا النص هو الذي طبعت منه أول طبعة في مطبعة بولاق سنة ١٢٥١ هـ الموافق عام ١٨٣٥ م .

السحر فى قصص ألف ليلة وليلة

أما السحر الموجود فى قصص ألف ليلة وليلة الذى يصل الى ٩٠٪ من حكاياتها ، فليس الغرض منه اعطاء اسلوب معين للسحر أو طريقة تعليمية أو وصفية للسحر كشأن ما هو موجود فى الكتب والمخطوطات الممنوع الاطلاع عليها مراعاة لصالح وسلامة عقول الناس .. وانما الغرض من السحر فى هذه الروايات اثارة الشوق والشفغ عند القارئ لتتبع هذه المظاهر السحرية الغريبة .. وقد حاول « الراوى » فى ألف ليلة وليلة أن يقدم مظاهر ليست موجودة أساسا فى الكتب المشار اليها ، لكنها مظاهر تتسم بالحركة والحيوية والنشاط والحدث الذى يثير شغف المستمع مثل « سحر المسخ » الذى يعنى تحول الانسان الى حيوان أو طائر ، وهى صورة متكررة فى الروايات التى تمتاز بحركة وحيوية تناسب الرواية صورتها العامة ، بأن تلقى الساحرة - مثلا - بماء على وجه الانسان وتقول له بعض العبارات التى تلور حول اخراجه من صورته الانسية الى صورة كلب أو قط .. الخ وبهذا الموقف تتعقد القصة وتحدث مغامرات ومفاجآت .. الى أن تتأزم العقدة فيبدأ (الراوى) فى حلها عن طريق فك المسحور ومثل هذا السحر يشوق السامع .

والنوع الثانى من السحر الشائع فى ألف ليلة وليلة يتم عن طريق الاداة السحرية كالخاتم المسحور .. وهذا المظهر من السحر لا يوجد فى كتب السحر السابقة .. الا فيما ندر ، ولكنه يشكل الشطر الكبير من سحر الليالى فى روايات ألف ليلة وليلة ، اذ انه يتميز بالحركة والحيوية مثل « معروف الاسكافى » الرجل المضطهد من زوجته ، ثم اذا به يعثر على الخاتم السحري وخادمه أبو السعدات ، وبعثوره على الخاتم تبدأ مغامرات ومفاجآت مثل التقائه بالملك وزواجه من ابنة الملك .. ثم يضع الخاتم .. ويحاول الوزير أن يفتك به عن طريق خادم الخاتم ثم عثور الاسكافى مرة ثانية على الخاتم .. وهكذا ..

وهناك علاقة الانس بالجن والعفاريت فى روايات ألف ليلة وليلة . ويقصد بالسحر فيها الطيران فى الهواء أو الغوص فى الماء ، وقد فعل الانسان ذلك لكى يتساوى بالحيوان الذى هاله بقدرته على العديد من السلوك الخارق من وجهة نظره .. والذى لا يستطيع أن يقوم به هو .

لكن .. هل للسحر وظيفة فى روايات ألف ليلة وليلة ؟

مما لاشك فيه أن الخيال الشعبى لا يبتكر شيئا بدون فائدة .. الخيال الانسانى ربما تخيل شيئا من لا شيء وانما الخيال الشعبى لا يحدث فيه ذلك . فالسحر له وظيفة نفسية واجتماعية واقتصادية وسياسية ..

ان السحر فى ألف ليلة وليلة عبارة عن التنفيس عن نوازع مكبوتة عند الشعب وهو يصور نقاط الضعف عند المجتمع .. فمثلا « المرأة » فى ألف ليلة وليلة .. دائما عاشقة ، ودائما تقتل زوجها من أجل عشيقها .. المرأة بطبيعتها ضعيفة لا تقوى على الرجل ولهذا اتخذت السحر سلاحا لتقهره وتقوى عليه .. وعدم قدرتها على تعدد الازواج جعلها تستخدم السحرة والسحر ..

والسحر أيضا معبر عن ابتسامة الحظ المفاجأة بالنسبة للفقير .. مثل عبد الله البرى الذى أثرى واغتنى عن طريق السحر ، حيث حمل له الجن سلة مليئة بالمجوهرات والأحجار الكريمة .. والراوى فى قصص ألف ليلة وليلة كان عن طريق السحر يعقد القصة حتى يصل الى قمة التعقيد ، ولكنه يحلها عن طريق السحر أيضا !

الجوانب الخلقية

فى ألف ليلة وليلة

ان الذى يبحر عبر قصص وروايات ألف ليلة وليلة يلمح نعمة سائدة تستهدف العبرة والعظة كلما وجدت الى ذلك سبيلا ، كأنما هى قد ألفت بهدف خلقى ، ولذلك نجدها فى بدايتها تشير الى أن التاريخ عبرة لمن يعتبر ، وأن كثيرا من الحوادث لو كتبت بالابر على آفاق البصر لكانت عبرة لمن يعتبر ، أو أن الخليفة قد أمر بأن تدون أحداث القصة ، وما جرى للبطل حتى يقرأها الناس على مر العصور ، فيتعجبوا من تصارييف الأقدار ، ويفوضوا الأمر لخالق الليل والنهار .. وهذا الاتجاه نحو العبرة والعظة مألوف فى آداب الأمم والشعوب على مر العصور .

وقد يطول بنا المقام اذا حاولنا أن نعدد ألوانا من القيم الدينية التى تسجدها قصص ألف ليلة وليلة ، لاننا نجد على سبيل المثال لا الحصر : الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبالقضاء والقدر ، والصبر على البلاء ، والشكر والحمد فى السراء وعند الفرج ، والإيمان بالدعاء ، وباحتمية الاجابة والوفاء ، ورد الجميل ، وحفظ العهد ، والرحمة والكرم والشهامة والمروءة ، وجزاء العمل الطيب ، وعاقبة الشر ، والتهور ، والصدق فى المعاملة ، وحفظ الحق حتى للميت الشرير .. وأكثر من هذا ، فاننا قد نجد بعض شخصيات قصص ألف ليلة وليلة تخطئ أو تنحرف أو تدبر المكائد ، وفى نفس الوقت لا تستطيع أن تتخلص من جلدها الاسلامى ومن القيم الاسلامية التى أصبحت تجرى فى عروق المجتمع ، كجزء أساسى من مقومات شخصيات أفرادها ، مما يذكرنا بالطرفة التى تحكى عن اللص الذى يسرق وهو يقول « استرها يارب » !

الكتاب ثروة تراثية هائلة

ولكن ما هي الفوائد التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية التي نستطيع أن نجنيها من هذا السفر النفيس ؟

سؤال محير ، قد نجد عنه جوابا ، أو بعض جواب ، في عرض مغامرات السندباد البحري ، واسطورة الخلق ، وأساليب الجن وبلادها ، ومهارة علي بابا ، والحمام الجنيات والمدينة النحاسية ، وحقيقة شهر زاد ، وشهريار ، وهرون الرشيد ، والخيزران ، والست زبيدة ..

ونقلت حكايات شهر زاد ، حتى اليوم الى أكثر من ستين لغة ، حتى يمكن القول ان معلوماتها قد استقرت في عقول البشرية جمعاء وانتجت مواسم في العطاء في مجالات الأدب والفن .

ويذكر الذاكرون أن الاقبال على قراءة نصوص ألف ليلة وليلة كان ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ الكتاب . بل كان اعصارا من الحماسة جعل الناس يقفون صفوفًا طويلة على أبواب المكتبات ، ينتظر كل منهم دوره للحصول على نسخة منها ، بالرغم من الثمن الباهظ نسبيا الذي فرضه الناشر . ولم يسجل ازدهار كهذا الا على أبواب مراكز توزيع الاعاشة في الحروب والمجاعات !!

ولحكايات شهرزاد ينابيع عديدة ، أهمها ذكريات ، أو بالحرى انطباعات حضارية مستقرة وفاعلة فينا من حيث نحن بشر ، وان كنا لا نحسها جسديا ، ولا نستجلى صورها الا في الأحلام أو في هنيهات الشرود عن واقعنا المادي المحدود بالزمان والمكان . فالانسان موجود على هذه الكرة الأرضية منذ مليون أو ٦٠٠ ألف عام على الأقل ، والحقب ، أو العصور التي نعرفها أو نعرف شيئا عنها لا تتجاوز عشرة آلاف عام . ونقنصر معلوماتنا على آثار اكتشفناها في ابلا وجرش وسومر وأوغاريت وغيرها . فما الذي « كان » على أرضنا قبل هذا القليل الذي نعرفه من الكثير الذي نجهله ؟ أما سبقت انسانيتنا الحالية انسانيات قديمة بلغت من العلم والتقنية ما لم نبلغه بعد ؟ ألا يمكن أن يكون ما نعتبره أساطير وخرافات « وقائع » حققتها الانسانيات البائدة ؟!

نقول « البائدة » .. لا المنسية ، لان التاريخ لا ينسى ، قد تغوص
حوادثه في أعماقنا ، وتشرذ معالنه فى مجاهل عقلنا الباطن ، ولكنه باق
فينا ما دمننا باقين ، تتباين مشاهدته وضوحا وغموضا ، وتختلف صورته
حجما وألوانا ، ولكنها تثبت وجودها فينا ، وكلما أطلت علينا من غياهبها
السحيقة ، وعجزنا عن فهمها وإدراكها ، بادرنا الى الباسها ثوب الخرافة
أو الأسطورة ، لـحاجتنا الى التعبير عما نحس ، أو لارضاء ما يعتلج فينا
من فضول علمى .

الكتاب الذى صمد أمام الزمان طويلا

تتعاقب الأجيال جيلا بعد جيل ، وتتوالى العصور عصرا بعد عصر ، ولا ينتهى حديث الناس فى هذه الأجيال وتلك العصور عن ذلك الكتاب العجيب « ألف ليلة وليلة » ، الذى حوى كل شائق وغريب ، وظفر بما لم يظفر به كتاب قصصى فى العالم من السمعة الذائعة ، والشهرة الواسعة ، والمكانة اللامعة ، فى الأوساط الشرقية والغربية ، وفى أندية الأدب ، وبين أئمة الفن القصصى .

ولما كانت أهمية أى أثر أدبى تقيم بمدى قدرته على الصمود أمام الزمن ، وبسعة انتشاره على الصعيد العالمى ، ثم بمدى تأثيره على المجتمع ، وعلى الآداب الأخرى ، ودرجة تفاعلها معه ، كان كتاب ألف ليلة وليلة أكثر تراثنا الأدبى قيمة وأهمية .

فلقد ترجم هذا الكتاب الى أكثر لغات العالم ، واستطاع أن يصمد أمام الزمن فلا تبلى جدته مدى ستة قرون – هذا اذا اعتبرنا عمره منذ جمع ، بينما عمر بعض حكاياته يذهب الى أبعد من ذلك بكثير جدا . ظل هذا الأثر الأدبى العجيب خلال هذه المدة الطويلة يلهم ويعلم ، ويظفر باعجاب نوابغ الأدباء والفنانين فى الغرب والشرق . ما نزال نلمح تأثيره فى بعض نتاجهم الى يومنا هذا . فقد استلهمت منه قطع رائعة للمسرح والباليه والموسيقى والسينما ولوحات وتماثيل . كما استنبط من حكاياته قصص اتخذت شخوصها رموزا لآراء فلسفية ، فاذا ما كنا نلمسه فى الكتاب من سطحية وهزل ينقلب عمقا وجدا . ولعل أروع ما فى أدبنا العربى الرمزي الحديث – لا سيما المسرحى – هو ما استلهم أيضا من ألف ليلة وليلة . عدا هذا كله فقد كان للكتاب أثر بالغ فى حركة الاستشراق ، وكما تقول د. سهير القلماوى فى كتابها عن ألف ليلة وليلة :

« لسنا نبالغ اذا قلنا ان كتاب ألف ليلة وليلة كان الحافز الأهم لعناية الغرب بالشرق عناية تتعدى النواحي الاستعمارية والتجارية

والسياسية . بل لسنا نبالغ اذا أرجعنا كثيرا من حركة الاستشراق وانتشارها الى ما ترك هذا الأثر في نفوس الغربيين ، .

ولا غرو أن يبلغ الكتاب هذا الشأو من الأهمية ، فهو من نتاج أدباء أمم عريقة في الحضارة .

يقول الأستاذ الألماني (فريدريك فون دولاين) في كتابه « الحياة الخرافية » :

« كلما توغل الانسان في حكايات ألف ليلة وليلة ازداد احساسه بأنفاس الروح العربي ، فالطبيعة العربية تأسرنا حينئذ الى درجة أننا نستسلم اليها راغبين بها وحدها عن طواعية ، ونفضل الا نشعر بغيرها . فهي صور واضحة للحياة العربية خلال ستة قرون ، .

وقال عنه فولتير : « اننى لم أزال فن القصص الا بعد أن قرأت ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة ، .

وقد تمنى القصصى الفرنسى « استندال » أن يمحو الله من ذاكرته ألف ليلة وليلة ليعيد قراءته ، فيستعيد لذته .. !!

حقة المعارف الكبير

ديرو

١٧٥١ م

ليس من شك فى أن دوائر المعارف من أهم ما يحتاج اليه المثقفون .
وهى بمثابة معاجم للعلوم والفنون يرجع اليها العالم والمؤرخ والباحث
فى كثير من الأحيان . ولذلك حرص العلماء على تصنيفها وجمعها منذ
أقدم العصور .

ولما كانت طبيعة دائرة المعارف الفرنسية (موسوعة ديدرو) ،
تتطلب أن يعمل فى تحريرها أكبر عدد ممكن من العلماء والكتاب
المتخصصين فى أفرع العلوم المتنوعة ، وجوانب الثقافة المتباينة الأنحاء
والنزعات ، فقد اقتضى ذلك ان تسهم فى تحريرها أعلام من جميع الطبقات
والدرجات التى تتفاوت رفعة وانحدارا ، وتباين عمقا وسطحية .

غير أن - مع هذا - لا ينبغي البتة أن يقاس مجهود أى واحد من
هؤلاء المحررين بمجهود « ديدرو » الذى عالج وحده أكثر من ألف مادة
فى هذه الموسوعة الجامعة فى تاريخ الفلسفة والأخلاق وعلم الجمال
والفنون الميكانيكية ... وما الى ذلك .

ولم لا . . فقد كان ديدرو من النجوم اللمعة فى سماء الأدب الفرنسى
فى القرن الثامن عشر ، وكان واسع المعرفة ، متعدد المواهب ، يجوب
المعامل والمصانع لجمع المعلومات واتقان معرفة الفنون المهنية والحرفية .
يصحح ويستكمل مقالات الآخرين وينظم العمل بين معاونيه . وكان رائده
فى عمله وجهده تقديس العقل ، فكلما خطت الفلسفة فى رأيه بريادة
عقلية خطوة استتبع ذلك تقدم العلوم الأخرى . الدين يجب أن تسوده
روح التسامح ، والسياسة يجب أن تقودها الحرية ، والأخلاق عليها أن
تهتدى بالسلوك الطبيعى .

لذلك كله يتحتم علينا تقديرا للمجهود المشكورة ، والانتاج الرفيع ،
ووضعا للأمور فى مواضعها من سجل التاريخ أن نخصص لديدرو بين
صفحات هذا الكتاب مكانا يتناسب مع مجهوده الجبار العملاقى فى هذه
الموسوعة العظيمة .

حياة ديدرو وشخصيته

عندما يريد الباحث أن يقسم كتاب القرن الثامن عشر حسب المنهج العادى ، وأن يميز بين أنصار العقل واتباع العاطفة ، يجد نفسه بإزاء « ديدرو » حائرا كل الحيرة ، فهو من ناحية ، ملهم دائرة المعارف التى هى من أسس إنتاج الفلاسفة العقليين فى ذلك العصر ، كما انه من أبرز المفكرين الذين يقادسون الطبيعة . وهو من ناحية أخرى منجم من مناجم الأحاسيس والعواطف . وفوق ذلك فانه منبع من منابع الحماس والحرارة ، وطليلة من طلائع الرومانسية الأوروبية . وتعتبر شخصيته ملتقى لما يعد عنه غيره من المتضادات كالعقل والعاطفة . وكان الى جانب ذلك كله قويا قوة لا تغالب وذا عزيمة فولاذية ، بل ان فريقا من الباحثين قد جزم بأن الفضل فى وجود دائرة المعارف راجع فى أكثر نواحيه الى عزيمة ديدرو ، ويعلن ان كل ما غزى اليه من ضعف صحى كان ينمى أمام شجاعته واصراره على انهاء عمله ومثابرتة فى متابعتة بلا أدنى توقف أو فتور . وفى الحق انه كان يحمل لرسالته حبا وحرارة لا يتيسران الا للمتسكين . وأخيرا يمكن القول بأن سلوكه فى ذلك المحيط الموسوعى كان على مستوى ذكائه ومواهبه .

ولد « دينس ديدرو » فى ٥ أكتوبر ١٧١٣ فى مدينة لانجرز من اسرة متواضعة . وكان أبوه يشتغل بصنع الأدوات القاطعة وتخصص فى صنع آلات الجراحة . وكانت الأسرة تشتغل بهذه الحرفة لمائتى سنة خلت . ولم يرث « دينس » عن أسلافه ثباتهم القانع على مهنتهم وعقيدتهم ، ولكنه لم يكف يوما عن اجلاله وحسن تقديره لأمانة أبيه الموسومة بالبساطة واقباله على أعمال البر والخير فى هدوء . وينقل عنه دينس قوله : « أى بنى ، أى بنى ان العقل وسادة ممتازة وثيرة ولكنى أجد وثارة وراحة أكثر حين أسند رأسى الى وسادة الدين والقوانين » .

ولما ترعرع « دينس ديدرو » أدخله والده مدرسة اليسوعيين فى مدينته ، فنشأ نشأة دينية محافظة من الجانبين ، لان أسرته كانت قد بلغت من التقوى والورع حدا لا تفوقه مدرسة اليسوعيين الا بالأساليب المنمقة ، والعبارات المنظمة . ولما أتم دور الدراسة الثانوية ارتحل الى باريس ليدرس الحقوق فى كليتها العالية . وبعد أن أتم دراسته عرض عليه والده أن يختار أحد أمرين : اما أن يبحث له عن عمل يعيش منه واما أن يعود الى مسقط رأسه ، يعيش بجانب والده معيشة لا تكلفه تلك النفقات الباهظة التى ينفقها فى باريس . وكان هذا الأمر الأخير مستحيلا ، لأنه قد تعود على أساليب الحياة الباريسية وألف الاختلاف الى البيئات

الثقافية المليئة بالحركة والنشاط . فبعث الى والده رسالة رفض فيها العودة الى المدينة الصغيرة فلم يكن من الوالد الذى ناء بعبء النفقات الفادحة بالنسبة الى أمثاله الا أن قطع عن ابنه ما كان يرسله اليه من مال . فلما رأى ديدرو أنه أصبح وحيدا لا عون له ولا سند فى الحياة ، وأضحى مرغما على العمل للقوت ، لانه اما أن يعيش من مجهوده الخاص ، واما أن يهوى الى حضيض البؤس . ولكن هذا الشاب الذكى المتملى قوة وحيوية قد انجرفت كبرياؤه وأهين فى عزته واعتبر هذه المعاملة القاسية من والده شائكة لشخصيته ، فهب يقده زناد فكره للخروج من هذا المأزق الذى لحقه منه - وهو لا يزال فى ريعان شبابه - اهانة قاسية . فاهتدى فى النهاية الى حل ينقذه من هذه الورطة التى أوقعته فيها ظروفه السيئة ، وهذا الحل هو أن يحترف الدروس الخاصة يعطيها لصغار الطلاب ويتقاضى عليها أجورا بسيطة ، فكان يتكسب من هذا العمل ما يكفى لانفاقه فى باريس بهيئة متوسطة . ولم يكن ديدرو شابا سفيها أو سييء التصرف حتى ينفق كل ما يصل الى يده من المال على مظاهره أو على بواعث ملذاته ، وانما كان شابا عاقلا حكيما يحرم نفسه مباهج الحياة الباريسية الفاخرة بل بعض ضرورياتها ليقصد مبلغا من كل شهر ينفقه على تعلم اللغات التى لا قوام لحياته الأدبية الا بها . فأتقن الانجليزية والايطالية والاغريقية واللاتينية ، ولم يكتف بهذه الدراسة العالية للغات المختلفة ، بل أحس فى نفسه بشغف شديد يدفعه الى التبحر فى الرياضة ، فأرضى هذا الشغف فى نفسه وعكف على مواردها المختلفة فقتلها بحثا وتعمقا . ولهذا تعتبر الأعوام العشرة التى تلت وقوع سوء التفاهم بينه وبين والده أرقى سنى حياته وأكثرها خصوبة وثقيفا وتحصيلا وان كانت تعتبر أشد أيامه فقرا وبؤسا وحرمانا من مسرات الحياة .

وبعد ذلك بزمان كتب كتابا سماه « رسالة عن المكفوفين » أهان فيه صديقا عزيزا لأحد الوزراء فانتهر هذا الوزير فرصة ما كان الشعب فقد رمى به « ديدرو » من اللادينية والاحاد ، وهما جريمتان شنيعتان فى فرنسا فى ذلك العصر ، فاختفى تحت ستار الدين ودبر الواقعة لديدرو وزج به فى أعماق السجون بجريمة الاحاد ، ولكنه فى الواقع كان محنقا عليه لما وجهه الى صديقه من اهانات ، فلبث فى السجن مائة يوم كانت سببا فى شهرته وذيوع مجده فى انحاء الدولة .

ولما كان أحد رجال الحكم اذ ذاك يعلم انه كان قبل سجنه يعمل على رأس فريق من العلماء والجهابذة لاعداد دائرة معارف كبرى ستكون - لو تمت - فخرا لفرنسا ، وانه هو روح هذه الجماعة وقلبها الحفاق وانها يدونه ستكون معرضة للفشل ، صمم على الافراج عنه ومنحه الحرية

ليستطيع أن يؤدي عمله الماجد على الوجه الأكمل المراد وقد فعل ؛ فعاد الى مهنته واستمر فى اداء واجبه .

تضافرت كل هذه الأحداث على اسطاع كوكبه وتلألؤه فى سماء فرنسا فتطلعت البيئات العالية الى مرآه ، واشتاقت المنتديات الفخمة الى دعوته والتحدث اليه ، وكانت هذه المنتديات الأدبية تذكر اسمه الى جانب اسمى « فولتير » و « جان جاك روسو » ويتلو المجتمعون فيها بعض تعبيراته على انها مختارات أو نماذج ينبغى احتذاؤها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد . بل كان كثير من مثقفى العصر يدعونه بالفيلسوف من غير ذكر اسمه . واذا ذكرت هذه الكلمة فى القرن الثامن عشر صاحبها الاجلال والتبجيل اللذان لا حد لهما ، فقد بلغ ديدرو قمة المجد فى ذلك الوقت .



دوائر المعارف فى مختلف العصور

دوائر المعارف أو الموسوعات هى ما تعرف بالانسكلوبيديا . وهى اما عامة تبحث فى موضوعات متنوعة أو خاصة تبحث فى موضوعات معينة ، وقد كانت الموسوعات قديما عند العرب مجموعة فصول ومقالات فى علوم وفنون مختلفة غير مرتبة على حروف المعجم . ولعل أشهر الموسوعات العربية من هذا النوع « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد النويرى ويستوعب ثلاثين مجلدا ونيفا ، وكتاب « صبح الأعشى » وهو موسوعة فى أربعة عشر مجلدا : فى الأدب والانشاء ، و « مسالك الابصار فى ممالك الأمصار » وهو يتألف من بضعة وعشرين مجلدا فى الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها ، و « سفينة الراغب ودفينة الطالب » وهو مجموعة فى كل علم وفن يحتوى على موضوعات وشذرات فى الأدب والشعر والطبيعة والحديث والطب والرياضيات والمنطق والادعية والأصول والنجوم .

وقد تطورت الموسوعات واتسع نطاقها ونظمت تنظيما حديثا ، وأصبحت تعالج مختلف الموضوعات العلمية والفنية والعمرائية والمالية والصناعية .

والصينيون هم أول من صنف الموسوعات وأولها موسوعة « آر - ياه » ويرجع عهدها الى القرن الثانى عشر قبل الميلاد على ما يزعمه الصينيون وان كانت القرائن تدل على انها أحدث عهدا . والأرجح أن المصنف المعروف باسم : « تاي ينج يولان » هو أقدم كتاب صينى يستحق أن يسمى موسوعة وقد تم تأليفه بأمر امبراطور الصين وتحت اشرافه وهو ينقسم

الى ألف باب . على انه ليس أكبر الموسوعات الصينية . ولذلك يعتبر الصينيون موسوعة « ينج لوتاتين » أفضل موسوعاتهم وقد تم تصنيفها تحت اشراف الامبراطور الثالث من اباطرة أسرة « منج » وهذه الموسوعة تتألف من ٢٢٩٣٧ كتابا ولم يكتب منها سوى ثلاث نسخ تلفت اثنتان منها عند سقوط أسرة « منج » المذكورة . وتلفت الثالثة (ما عدا بضعة أجزاء منها) عند حرب البوكسر (١) . وفي أيام الامبراطور « كانج هسى » شرع علماء الصين فى وضع موسوعة جديدة وفرغوا منها وطبعوها فى أيام الامبراطور « يونج شنغ » سنة (١٧٢٣ - ١٧٣٦) .

واذا التفتنا الى الدول الغربية نرى أن اليونان تقدموا غيرهم فى تصنيف الموسوعات . وعلى نمطهم سار بليينوس المؤرخ الرومانى الشهير صاحب معجم « التاريخ الطبيعى » وقد قال فى مقدمة كتابه هذا انه اقتفى أثر مؤلفى الموسوعات اليونانية . وفى الواقع ان كتابه المذكور هو أقدم موسوعة أوربية موجودة فى الوقت الحاضر وهو يتناول موضوعات شتى ويميط اللثام عن كثير مما يتصل بأحوال الغرب فى الحقب الغابرة .

وفى أوائل القرن الخامس للميلاد ألف رجل من أهالى أفريقيا ومن رعايا الحكومة الرومانية وكان يدعى (مارتينانوس كبيلا) موسوعة نصفها منظوم والنصف الآخر منشور كانت ذخيرة علم وأدب وظلت حتى العصور المتوسطة من أهم المراجع العلمية والأدبية والمدرسية وكان الكثيرون يحفظون الجزء المنظوم منها ويعتبرون ذلك من مميزات التحصيل .

وفى بدء القرن السابع شرع « ايزيدور » مطران اشبيلية فى وضع موسوعة لا تزال تعرف الى اليوم بعنوان « الأصول » واستغرق تصنيفها ثلاثين عاما وهى تبحث فى موضوعات شتى علمية وأدبية وفنية ولغوية ومنها فصول فى فنون الحرب والألعاب والصناعات والملائكة وأجناس البشر والحيوانات والنباتات والرياضات وصناعة السفن والثياب ، وهلم جرا . وكان المؤلف ملما باللغتين اليونانية واللاتينية ويعرف العبرانية أيضا وقد ساعده ذلك على تأليف موسوعته .

وفى منتصف القرن التاسع وضع رئيس أساقفة ماينز موسوعته المسماه « الكائنات » فى اثنين وعشرين مجلدا واعتمده فى تصنيفها على موسوعة ايزيدور المشار اليه بعد حذف وإضافات .

واذا التفتنا الى العصور المتوسطة رأينا ان « فنسنت دى بوفيه » الذى عاش من سنة ١١٩٠ الى ١٢٦٤ كان مؤلف أعظم موسوعة ظهرت فى أواسط القرن الثالث عشر وكانت هذه الموسوعة تتضمن بيانات ومعلومات كثيرة مقتبسة عن كتب كانت شائعة فى ذلك الزمن وقد ضاعت اليوم ،

وكان بعضها باللغة العربية وقد حصل المصنف على ترجمتها باللغة اللاتينية .

وفي نحو ذلك الزمن كان العلامة « برونيتو لاتيني » أستاذ دانتى شاعر إيطاليا المشهور منفيا في فرنسا فبقى وقته في تصنيف موسوعة دعاها « كتب الكنوز » وكان بين الموضوعات التي عالجها مسائل دينية وتاريخية وعلمية وأدبية وسياسية وفلكية وجغرافية . وكان الجزء الأخير منها يبحث في منشأ الجمهوريات الإيطالية التي كانت قائمة في عصره . وفي أواخر القرن الثالث عشر ترجم العلامة « جيمبوني » هذه الموسوعة الى اللغة الإيطالية . وفي أوائل القرن التاسع عشر عزم نابليون بوناپرت أن يأمر بترجمتها الى اللغة الفرنسية وعين لجنة خاصة للقيام بهذا العمل فقامت اللجنة به ولكنها لم تفرغ منه الا بعد وفاة نابليون بزمن طويل . ولم تنشر الترجمة الفرنسية الا سنة ١٨٦٣ وذلك بعنوان مجموعة « مستندات لم يسبق نشرها » .

وفي سنة ١٣٦٠ نشر « جلانفيل » الراهب الانجليزى مصنفًا يشتمل على مباحث في موضوعات شتى . ولم يمر على هذه الموسوعة قرن ونصف القرن حتى كانت قد طبعت خمس عشرة مرة .

وفي سنة ١٣٦٢ نشر الأب « بركوريوس » رئيس دير سان ايلوا بباريس موسوعة مؤلفة من ثلاثة أجزاء تبحث في المسائل الدينية فقط . وكان لها رواج عظيم جدا .

وفي سنة ١٤٩٦ نشر الأب جورج ريش الألماني معرف الامبراطور مكسيميليان موسوعة تتألف من اثني عشر جزءا تبحث سبعة الأجزاء الأولى منها في الفنون والمهن والصناعات والجزآن الثامن والتاسع في منشأ الأشياء الطبيعية والجزآن العاشر والحادي عشر في مختلف النباتات وخواصها والجزء الثاني عشر في الفلسفة الأدبية .

وفي سنة ١٥٠٦ نشر رافايل مافي بمدينة روما موسوعة عامة تبحث بوجه خاص في المسائل التاريخية والجغرافية - وهي موضوعات لم تسهب فيها الموسوعات التي تقدمها . وقد راجت هذه الموسوعة رواجاً لا مثيل له حتى انها طبعت ثمانى مرات آخرها سنة ١٦٠٣ . وأجزاء هذه الموسوعة تشتمل على فصول على نمط الموسوعات القديمة الا انها أكثر منها دقة وجلاء وأصدق أخباراً . ولم يكن يفوقها في غزارة مادتها في ذلك الزمن سوى موسوعة « جورجيو فاللا » المعروفة بالموسوعة البلاسنتية، نسبة الى مدينة بلاسنتيا بإيطاليا . وهذه الموسوعة تتألف من تسعة وأربعين جزءا تحتوى على ٢١١٩ فصلا في موضوعات مختلفة .

وفي سنة ١٦١٤ نشر أسقف بتينا « باستريا » موسوعة تبحث فيما يشبه اليوم علم الانثروبولوجيا أي تاريخ الانسان وتركيب جسمه وقواه العقلية والمادية منذ أقدم التاريخ حتى ذلك العصر . وإلى جانب هذه المباحث فصول في التنجيم والقراءة وتفسير الأحلام وقراءة الكف ، وفي ستة وثلاثين علما من العلوم المختلفة . وهذه الموسوعة هي في الحقيقة ذخيرة علوم لا يجدها المرء في مراجع أخرى . فضلا عن ذلك لها فهرست عام شامل يسهل على القارئ المراجعة .

وفي سنة ١٦٣٠ نشر يوهان هنريخ ألستيد موسوعة شاملة تبحث في مختلف العلوم والفنون والفلسفة والآداب والصناعات .

وفي سنة ١٦٣٩ شرع معهد العلوم الفرنسي (الأكاديمية الفرنسية) في وضع موسوعة فرنسية . وفي نحو ذلك الزمن أيضا شرع توما كورنيل (وكان من أعضاء الأكاديمية الفرنسية) في وضع معجمه المعروف بمعجم العلوم والفنون فقررت الأكاديمية الفرنسية طبع هذا المعجم مع الطبعة الأولى من موسوعتها .

وفي نفس ذلك الزمن أيضا (سنة ١٦٩٧) ظهرت في روتردام موسوعة جديدة باللغة الفرنسية بعنوان « المعجم التاريخي الانتقادي » لمؤلفه بيير بايل وقد نقح هذا المعجم غير مرة وترجم الى اللغة الانجليزية .

وفي النصف الأخير من القرن السابع عشر شرع فنشيزو كورونيلي ابراهم العالم الايطالي وأحد أهالي البندقيه في وضع أول موسوعة باللغة الايطالية ، فقصي في جمعها وتصنيفها ثلاثين عاما وسماها : « الموسوعة العامة الدينية الالهادية » قيل انها بلغت خمسة وأربعين مجلدا ولكن لم يطبع منها سوى سبعة مجلدات ، وهذه من أكمل الموسوعات التي ظهرت يومئذ في أوربا ومن أحسنها وأسهلها تداولاً .

أما الموسوعات الانجليزية فأول ما ظهر منها موسوعة جون هاريس وقد طبعت سنة ١٧٠٤ وكان مؤلفها من رجال الدين من مدينة لندن . وقد رتب موسوعته على حروف الهجاء بخلاف أكثر الموسوعات التي كانت متداولة في ذلك الزمن . وهذه الموسوعة تشتمل على مباحث مسهبة في نشر من العلوم والفنون ما عدا علم الآثار وعلوم الدين والشعر وسير العظماء . فان المؤلف لم يشأ التعرض لها . وبعد ست سنوات ظهر المجلد الثاني من هذه الموسوعة ويبحث بأسهاب عظيم في الفلك والرياضيات والطبيعة . وكان بين المؤلف والفيلسوف اسحق نيوتن مودة عظيمة وقد أذن نيوتن للمؤلف أن ينشر في موسوعته بحثه في الحموض . وقد أعيد

طبع هذه الموسوعة خمس مرات لما كانت تشتمل عليه من الموضوعات العلمية والمباحث الدقيقة .

وفى سنة ١٧٢٨ نشر أفرايم تشمبرس الانجليزى موسوعته التى لا تزال متداولة حتى وقتنا الحاضر ومعروفة باسمه . وقد جاء فى الصفحة الأولى منها انها « معجم عام للعلوم والفنون وتفسير الاشياء وشرحها مع توسع فى العلوم السماوية والدينيوية » . وهذه الموسوعة جزآن كبيران وفى كل مقالة فيها اشارات الى المراجع التى اعتمد المؤلف عليها . وقد عنى عناية خاصة بالمباحث اللاهوتية والمادية والفلسفية والسياسية والمنطقية واللغوية . وفى منتصف القرن الثامن عشر ترجمت الى اللغة الايطالية فكانت اكمل موسوعة ظهرت فى تلك اللغة الى ذلك العهد . ولما ذهب تشمبرس الى فرنسا سنة ١٧٣٩ طلب اليه أن يصدر موسوعة باللغة الفرنسية شبيهة بالموسوعة الانجليزية .

وقد ظهرت فى أوربا بعد ذلك موسوعات أخرى أهمها موسوعة زدار الألمانية وهى من أحسن المصنفات التى من هذا القبيل ومن اكملها وأدقها . وقد اشترك فى تصنيفها تسعة من علماء الألمان فى ذلك العهد ، عهد الى كل منهم الاشراف على علم معين من العلوم كالتاريخ والفلسفة والطب والفلك والجغرافيا وهلم جرا . وجميع مباحث هذه الموسوعة مشحونة اشارات الى المراجع التى اعتمد عليها المؤلفون - الأمر الذى جعل لتصنيفهم قيمة كبيرة .

وفى عام ١٧٤٤ نشر العالم بيقاتى عضو أكاديمية العلوم بمدينة البندقية موسوعة علمية كبيرة فى عشرة مجلدات ونشر فيها كثيرا من الصور والرسوم . وتعتبر هذه الموسوعة من أفضل الموسوعات التى ظهرت فى اللغة الايطالية .



كيف بنيت موسوعة ديدرو

ونأتى الآن الى دائرة المعارف الفرنسية الكبرى وهى أعظم مصنفات القرن الثامن عشر ، وفى حوالى سنة ١٧٤٤ شرع ثلاثة من الناشرين الباريسيين ، وهم : يرياسون ، ودافيد ، ولوران ، فى دراسة مشروع ترجمة الموسوعة الانجليزية التى كان تشمبرس قد سبق بها فرنسا . ولقد افضى أولئك الناشرى بمشروعهم هذا الى الأب « ديجوادرى مالف » وطلبوا اليه أن يكون مشرفا على هذه الترجمة . ولكن عندما عرضوا هذه الفكرة على الطابع « ليبريتون » أوجس فى نفسه خيفة من شذوذ عقلية

ذلك الأب ، وسرعان ما فكر في اسناد هذا العمل الضخم الى ديدرو . وأعلنه انه لا يعتمد عليه في ترجمة هذه الموسوعة فحسب ، بل في أن يؤقلمها ويدخل عليها من الاعتدال وحسن الذوق وسلامة النظرة ما ليس في مكنة الأب أن يفعله ، وعرض عليه في مقابل ذلك العمل مائة جنيه شهريا . ولما كان ديدرو في حاجة الى المال ، فقد قبل هذا الرقم مؤقتا ووعد بالقيام بهذه المهمة على خير ما يمكن .

غير ان المهيمنين على هذا المشروع لم يلبشوا أن تبينوا ان هذه الموسوعة الانجليزية التي كانوا يعتزمون ترجمتها ظاهرة النقص ، وانها رجعية في كثير من جوانبها الأساسية ، فعدلوا عن فكرة الترجمة نهائيا وصمموا على وضع موسوعة خاصة بهم وقرروا ألا يستعيروا من الأجانب شيئا البتة ، وأن يسترشدوا فقط بـ (القاموس التاريخي النقدي) تأليف بيرريل الذي ظهر سنة ١٦٩٧ والذي كان يمتاز على الأخص بروح الاستقلال عن الدين والسياسة .

ولما أمعن ديدرو في التأمل وتعمق في تقدير هذا العمل الخطير الذي يقوم به ألفى أن النمو المتواصل الذي تخطو فيه العلوم خطوات واسعة ، يفرض عليه أن يتخذ له معاونا في ادارة هذا المشروع ، فاستقر رأيه على اختيار صديقه « دالامبير » (٢) عضو مجمع العلوم ، وكان الاجماع اذ ذاك يوشك أن يكون منعقدا على أنه أول شخصية رياضية في أوربا ، فكان اسهامه في هذا المجهود عونا عظيما على النجاح المادي لدائرة المعارف ، كما كان بارز الأثر في الحصول على المحررين العلميين وتوجيههم . ولا غرو فقد كان دالامبير دائب الاختلاف الى أشهر منتديات القرن الثامن عشر كمنتدى مدام دوديفان التي كانت تستقبل أرفع طبقات المجتمع ، وكانت تحب دالامبير كثيرا ، وتعمل على نجاحه في عالم الكتابة والتأليف ، وكمنتدى الفلاسفة الذي كان مقره في منزل مدام جوفران ، فلم يكد دالامبير يصطحب صديقه الى هذين المنتدين حتى سحرت فصاحته المجتمعين فيهما ، وسرعان ما وجدت دائرة المعارف التأييد والتشجيع في كلا المنتدين ، ولم تلبث أن ظفرت في ثانيهما بوثبتها الأولى التي كانت بمثابة ضمان ضد التقهقر أو التعثر أو الوقوف ، وكان ذلك أمرا طبيعيا ما دام أن فولتير ومونتسكيو وفونتينييل ومارمونتيل ودوكلو ودولباك وعدوا باسهامهم فيها .

غير ان هذا البريق المباغت لم يكن ليغرى ديدرو لان أسماء أولئك الاعلام المفرطة في السطوع كانت تبعث على الاحتياط من شهرتهم ، وتنذر بعدم مداومتهم على المساهمة في ذلك العمل المرهق . ومن ثم فانه كان

يعتمد بصورة أدق على علماء أقل شهرة حيناً ، وأسماء خافتة أحياناً مثل صديقه جان جاك روسو. الذى كان فى ذلك الحين يوشك أن يكون مجهولاً، والذى عرفه ديدرو واتصل به منذ قدومه الى باريس فى سنة ١٧٤٢ . وعن طريق روسو ظفرت دائرة المعارف باسم كوندياك الفيلسوف المعروف . ومن أولئك وهؤلاء من مختلفى العقليات ومتباينى الثقافات . ولكن ديدرو على الأخص كان يعتمد على نفسه ، وكان يعول على أن يقوم وحده بكتابة المواد التى كان غيره من الكتاب يتهيبون مواجهتها أو يتحرجون من الخوض فيها .

غير أن هذا الانطلاق الباهر اللامع الذى كان يحمل بين طياته أبهى مظاهر النجاح لم يدم طويلاً إذ لم يلبث أن توقف فجأة حين اعتقل ديدرو فى يوليو ١٧٤٩ بسبب تلك الفصول الجريئة التى نشرها فأثارت الرأى العام ، وذلك مثل : « نزهات الاتيأبى » و « كفاية الدين الطبيعى » و « رسالة عن المكفوفين يستفيد منها المبصرون » وقد أخذ عليه فى هذه الرسالة الأخيرة أنه يدعو فيها للمذهب الحسى الذى يقول به كوندياك ، ولكن هذا فى الحقيقة لم يكن سوى مسوغ تذرع به أولو الأمر للزج به فى السجن ، لأنه أهان فيها أحد ذوى الحل والعقد فى ذلك الحين . ولما رأى الناشرون ما حل بديدرو وبالتالى ما حل بموسوعتهم العظمى هرعوا الى الوزير الواسع الأفق دراجسانون ورجوه أن يدخل فى اعتباره الحالة النفسية التى انحدروا اليها بسبب اعتقال ديدرو . وطلبوا اليه أن يمنح عنايته لذلك العمل الذى هو أجمل وانفع ما قامت به الأوساط المثقفة وزاولة الناشرون حتى الآن . وليس هذا فحسب ، بل إن ديدرو ذاته تظلم من ذلك الاعتقال بوصف أنه مدير لدائرة المعارف . وقد بذل دراجسانون جهده عند الملك حتى ظفر له بحريته ، فغادر السجن فى نوفمبر ١٧٤٩ .

معارك ومصاعب كان لها أثر عظيم فى ظهور الموسوعة

وعلى أثر ذلك اشتد الشغف بدائرة المعارف أكثر من ذى قبل ، فانتهز الناشرون هذه الفرصة الذهبية وقذفوا بين الرأى العام بفكرة جمع الاشتراكات مقدماً ، فنجحت نجاحاً باهراً . وظهر المجلد الأول فى الأول من يوليو ١٧٥١ فى جو من الحفاوة والحماسة التى تشبه الحمى .

غير أن هذه الحرارة من جانب بيئة أحرار الفكر لم تلبث أن قوبلت من جانب رجال الدين وخصوم الفلاسفة بهجوم قاس أحدث رد فعل شديد العنف كأنه صدمة عصبية مباغتة نجم عنها أول الأمر حكم فى يناير ١٧٥٢

يقضى بوقف توزيع المجلد الثانى أعقبه حكم آخر فى فبراير من نفس السنة من مجلس الدولة يقضى بإعدام المجلدين الأول والثانى . وعلى أثر ذلك نصح فولتير لديدرو وبقية زملائه بالهجرة الى برلين ليتابعوا العمل فى اتمام دائرة المعارف هناك بعد أن ضاقت بهم فرنسا على رحابتها . ولكن ديدرو ورفاقه أبوا الرحيل ، وصمموا على استئناف السير فى اعداد المواد الى أن تسنح الفرص بالنشر ، وجعلوا يعملون فى نشاط دون أدنى يأس أو قنوط ولم تلبث السماء أن حققت أملهم فألقى الوزير دارجسانون قرار الحظر والمصادرة فى سنة ١٧٥٣ . وفى نوفمبر من ذلك العام ظهر المجلد الثالث مصدرا بمقدمة معتدلة ديجتها براعة دالامبير الذى كانت الاوساط الدينية والجهات المحافظة تعتبره أقل خطرا من ديدرو .

وفى سنة ١٧٥٤ ظهر المجلد الرابع ، وعلى أثر ظهوره أخذت مهاجمات اليسوعيين تبدو واضحة عنيفة وتبعتها حملة من النقد القاسى الذى انهال على تلك الموسوعة ومحريها من أعداء الفلاسفة ك (فريرون) وأمثاله ومن المحايدين كالأب رينال واضرابه ، ومن أصدقاء الفلاسفة ك (جريم) .

وفى سنة ١٧٥٥ ظهر المجلد الخامس ، وعلى أثر ظهوره تجددت مهاجمات « فريرون » . وفى سنة ١٧٥٦ ظهر المجلد السادس . وفى سنة ١٧٥٧ ظهر المجلد السابع ، ولكن الزمن كان قد بدأ يتجهم لأحرار الفكر ! إذ أنه فى يناير من تلك السنة كانت حادثة الاعتداء على حياة الملك لويس الخامس عشر قد وقعت ، فدفع ذلك الحكومة الى أن تتخذ اجراءات قاسية ضد النشر ، وان تشدد النكير على التسامح والمتسامحين ، وأن تعتبرهم مسئولين عن كل تجرؤ على العرش بالعمل أو بالقول أو بالكتابة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى قد اشتعل لهيب حملة اليسوعيين العنيفة التى كان ولى العهد يقف من ورائها يؤيدها بالمال والسلطان . وفى هذه الآونة انتهز أولئك الخصوم فرصة الطغيان المواتية فقدموا الى القضاء كتاب هيلفيسيوس المحرر الفلسفى فى الموسوعة ، وعنوانه « عن الروح » وطلبوا ادانته بحجة أنه كتاب مادى ينكر الروحيات والعقليات . وفعلا أدين هذا الكتاب وقضى باحرقه سنة ١٧٥٨ وقد نجم عن ذلك أن ارتاع الناشرون والمحررون ارتياحا شديدا وسرعان ما تخلى عن المساهمة فى الموسوعة فى السنة ذاتها مارمونتيل دوكلو وأعلن دالامبير أنه قد صمم على ترك العمل فيها . وكذلك هجرها جان جاك روسو وان لم يكن تخلى هذا الأخير بسبب الفزع بل بسبب اختلافه مع ديدرو الى حد القطيعة .

وفى فبراير ١٧٥٩ استصدر خصوم الفلاسفة حكما يأمر بأن تفحص المجلدات التى ظهرت من دائرة المعارف لجنة مؤلفة من ثلاثة من

اللاهوتيين وثلاثة من المحامين واثنين من أساتذة الفلسفة ، وعضو من المجمع العلمي . وفي مارس قرر مجلس الدولة إلغاء الاذن الذي يسمح للناشرين بالاستمرار في طبع دائرة المعارف رغم دفاعهم المستميت .

بيد أن ديدرو - رغم هذا الاجراء المشروع في ظاهره - الطغياني في حقيقته - لم ييأس . وسرعان ما نظم حفلة عشاء عند الطابع ليبريتون دعا اليها دالامبير والفارس دي جوكور والناشرين . وبعد النقاش والتمحيص وتقليب الأمور على وجوهها المحتملة ، استقر رأيهم - فيما عدا دالامبير - على الاستمرار في اخراج دائرة المعارف سرا . وفي يولية ١٧٥٩ أثناء تغيب ديدرو في مسقط رأسه بمناسبة وفاة والده ، صدر قرار مجلس الدولة يأمر الناشرين برد جميع الاشتراكات في الموسوعة الى أربابها ، وأعلن ذلك على نطاق واسع ، ولكن لم يتقدم أحد من المشتركين لتسليم اشتراكه . وفي أكتوبر من نفس العام ، عندما رأى دالامبير هذا الاصرار من جانب القصر والحكومة على ملاحقة الموسوعة والقائمين بها ، تخلى عن العمل فيها نهائيا . فكان ذلك بمثابة اغلاق الأبواب الظاهرية التي تشع منها دائرة المعارف . وحينئذ لم يبق الا التحايل على اخراجها سرا ، فجعل ديدرو واخوانه المتعاونون معه يبذلون جهودهم في نشر المجلدات العشرة الباقية منها بطريقة خفية . ومما ساعد على نجاح هذه الخطة في وسط تلك المحن الطغيانية المحيطة بديدرو وأخوانه أن دي سارتين رئيس الشرطة الجديد - وهو اذ ذاك بمثابة وزير الداخلية - كان صديق ديدرو منذ خمس وثلاثين سنة ، وفوق ذلك فان ماليزيرب المثقف الممتاز كان مديرا للنشر ، وكان يحب ديدرو ويقدره ويبذل له حمايته ومعونته ، ولكي يحتال ماليزيرب على تحقيق فكرة اظهار الموسوعة سرا توصل الى منح ديدرو اذنا رسميا بنشر ألف لوحة عن العلوم والفنون العقلية والميكانيكية .

ونصح فولتير والسفير الروسي لديدرو بالرحيل الى روسيا لاتمام الموسوعة بين ربوعها ، فرفض هذا العرض وأعلن الى فولتير أن المجلدات الأخيرة من هذه الموسوعة هي تحت الطبع . وفي الواقع ان سنة ١٧٦٣ انقضت في طبع تلك المجلدات سرا . وهذا أمر طبيعي ما دام أن رئيس الشرطة ومدير النشر قد اغمضا عيونهما عن هذا الأمر . وقد ساعد على صفاء الجو أن غضب القصر على اليسوعيين قد بدأ يكشر عن أنيابه .

وفي سنة ١٧٤٦ وقعت له حادثة أرهقت قلبه بالألم وكادت تقضى على حماسة قضاءها الأخير . ومجملها انه تبين ان ليبريتون الطابع قد خلع على نفسه منزلة الرقيب فجعل يراجع فصول ديدرو ويحذف منها ما يظن

انه خطر . فلما تبين ذلك لديدرو ، وقع على رأسه وقوع الصاعقة وقال .
هذه العبارة المؤثرة وهى : « اننى جرحت جرحا مميتا سينتهى بى الى
الرمس » .

وعلى أثر هذا توترت العلاقة بينه وبين ذلك الطابع . وفى هذه
الأيام علمت كاترين الثانية امبراطورة روسيا بارتباك حالته المالية ،
فاشتريت منه مكتبته الفخمة على أن يظل يستعملها طول حياته . وهكذا
عندما تحرر من شواغله المالية ، استطاع أن يكتب فى يوليو ١٧٦٥ هذه
العبارة التى تشجع منها أنوار السعادة فيقول : « فى مدى ثمانية أيام
أو عشرة سأرى نهاية هذا المشروع الذى يشغلنى منذ عشرين عاما » .

وفى الواقع ان المجلدات العشرة الأخيرة كانت قد طبعت سرا وإلى
جانبها أربعة مجلدات من أحد عشر مجلدا من اللوحات السالفة الذكر .
ولم تبق سوى حيلة واحدة لإعلان انتهاء الطبع ولضمان تحقيق التوزيع .
وأخيرا عثر على هذه الحيلة التى تظاهر الرأى العام الأوروبى بقبولها .
ومجملها أن الطابع ضمويل فوش السويسرى قد أعلن فى مدينة نوشاتيل
فى يناير ١٧٦٦ أن المجلدات الثامن وما بعدها قد طبعت فى سويسرا ،
وانها تحت تصرف المشتركين .

ومما لا ريب فيه أن هذه الحيلة التى لم ينخدع بها أحد ، والتى
لوت عنان القانون ، وتظاهرت باحترامه قد تسببت فى أن تصل دائرة
المعارف الى نهايتها .

وأيا ما كان ، فانها فى سنة ١٧٢٧ وبعد واحد وعشرين عاما
من تاريخ بدئها قد تكونت أخيرا من سبعة عشر مجلدا من النصوص ،
وأربعة عشر مجلدا من اللوحات .

من هذا يتبين جليا ان تلك المعارك والمجاهلات كان لها أعظم الأثر
فى بروز هذه الموسوعة وخلودها وفى هذا يقول أحد الكتاب الممتازين
ما نصه : « من المحتمل انه لو لم تكن كل هذه المصاعب ، وتلك المعارك ،
وذلك الانتصار النهائى الذى لم يكن انتصارا الا بشرط ألا يظهر على انه
انتصار لكان من الممكن أن تظهر دائرة المعارف بأهمية أقل ، لان الصفة
الفاجعية قد ظلت مرتبطة بتاريخها وهى انها كافحت ضد القديم من حيث
الفكر والقوى » .

جوانب الابتكار فى الموسوعة

ان أهم ما يبرز جوانب الابتكار فى موسوعة ديدرو هو المنهج الذى استعمله فيها المهيمنون عليها لعرض مجموعة المعارف البشرية وتسلسلها فى نظام شامل محكم حسب الغاية التى رموا اليها من وضع هذه الموسوعة ولما كان هذا العمل الجماع قد يتنافى بفطرته مع التفريق الفوضوى المؤلف فى القواميس الأبجدية ، فقد كان من الطبيعى أن يسلك سبيلا آخر غير النظام الأبجدي الذى جرت عليه القواميس حتى ذلك الحين .

فقد حددت مقدمة الموسوعة أهداف هذا العمل : « ان هذا المؤلف الذى نبدأ له هدفان : فهو بوصفه دائرة معارف ، يتعين أن يقسم ، بقدر المستطاع ، نظام وتسلسل المعارف الانسانية . وبوصفه معجما محققا للعلوم والفنون والمواد ، فانه يجب أن يشمل من كل علم وكل فن ، المبادئ العامة ، التى هى أساس لها والتفاصيل الجوهرية التى يتكون منها هيكلها وروحها » .

ولقد انتزع محررو الموسوعة هذا النظام الجديد من حاجة العصر وصاغوه على نموذج المبدأ الرئيسى العام الذى ساد القرن الثامن عشر كله ، وهو ان مجموعة معارفنا تتجه كلها دائما الى حاجاتنا سواء منها ما دعت اليه الضرورات أو الكماليات أو الأهواء . وقد صور ذلك المفكران الممتازان بوب الانجليزى وليسينج الألمانى فى عبارة شهيرة ربما يكون توافق الخواطر قد لعب فيها دورا هاما وهى « ان أنبل موضوعات دراسة الانسان هو الانسان » .

ومن ثم فان ديدرو عندما يصل الى مادة « دائرة المعارف » يتولى الدفاع عن النهج الأساسى لموسوعته وفى عزم قوى هو يضع الانسان فى مركز الكون العام .

واذن فأوضح المبادئ التى ترشد الى توثيق العرى بين مواد هذه الموسوعة ، وأيسر الطرق التى تنتهى الى هذه الغاية هو وضع تاريخ معارفنا على أساس تحليل الملكات الرئيسية الثلاث التى تشاهد لدى الانسان أى العقل والذاكرة والخيال ، وهى نفس أقسام دائرة المعارف :

فالعقل يخلق الفلسفة ، والذاكرة تسجل التاريخ ، والخيال يبتكر الفنون الجميلة . والفلسفة والتاريخ والفنون تنقسم بأدوارها الى أقسام . ولذلك كانت هناك فى دائرة المعارف اشارات مسجلة بعد كل كلمة من القاموس تسمح بربط الورقة بالفن ، والفن بالغصن ، والغصن بالساق المركزية التى تظل هى الواقعة البشرية الأكثر بساطة وهى وجود الملكات الانسانية ومن ثم فان الأستاذين العظمين أى أستاذى الفكر والعلم الأوربيين وهما : نلوك وبيكون ، قد طبعا توجيههما على صفحة الفكر المنظم بدائرة المعارف .

المبادئ التى سارت عليها

دائرة المعارف

ان ما قدمناه من تاريخ نشأة دائرة المعارف وتكونها ومنهجها خلىق بأن يبرز لنا المبادئ العامة التى كان لها الأثر الأول فى توجيه القائمين بأمرها وهذا شىء طبيعى ما دام ان هؤلاء الأعلام الذين وضعوا أو ساهموا فى وضع أسس مبادئ العصر كله .

كان أولئك الموسوعيون على أتم معرفة بظايتهم العليا ، وهى تتلخص عن عمل احصاء شامل لكل ما تناولته المعرفة البشرية على وجه البسيطة . ولكى يصلوا الى هذا الهدف يجب أن يختبروا كل شىء ويقلبوه على جميع وجوهه بلا استثناء مع الاحتفاظ بالوفاء التام للعقل والطبيعة ولقد اقتضت هذه الطريقة منهم أن يحطموا الأوثان القديمة التى يستهجنها العقل ، وأن يبرزوا للعيان جميع القيم الحديثة ، ولم يشاءوا أن يتلكأوا بين ردهات الماضى ودهاليزه المظلمة ومنعرجاته المتتوية بحثا عن أخطاء الأقدمين لوصفها وتصويرها ووضع أيدي القراء عليها الى غير ذلك مما يضيع الوقت النفيس . ويفوت الفرص المواتية ، وانما اعتزموا أن يكونوا قبل كل شىء نقادا وبناءة . ومن هذه المبادئ أن كل ما فى دائرة المعارف يجب أن يفيد فى حيوية ونشاط وحدائة ، وانها ينبغى أن تتخلص من كل عتيق أو رجعى أو متشبهت بأهداب القديم .

ومن ثم فانها فى الفلسفة قد هجرت الميتافيزيقا وأعلنت شأن التجريبية وحاولت الحط من قدر ديكارت لرفع قيمة لوك . وفى العلوم تبنت آراء نيوتن وأعلنت أن مهمتها الأولى هى محاولة كشف عالم الظواهر الذى هو الحقيقة الوحيدة عند أولئك المفكرين ، وذلك كما لو كان بحارة الماضى قد ضيعوا مجهودهم ، بهيئة جنونية فى ارادة معرفة أعماق المحيط . وكما كان بحارة اليوم وهم أشد حكمة من الأولين يكتفون بإنشاء الخريطة النافعة للرياح والصخور والطرق والمرافىء .

وفى السياسة سددت سهام النقد الى الأنظمة المقررة التى لم تستطع تحقيق السعادة للانسان . وفى الدين صممت على اختبار تعاليم السلطة الكنسية واصدار كلمة العقل الحاسمة فيها .

ولما كانت معالجة هذين الموضوعين الأخيرين تعرض القائم بها للخطر، لاصطدامها بالسلطات ذوات القوة والبطش فى الدولة ، فقد لجأ أولئك المفكرون الى استعمال منهج مفعم باللف والدوران والفرار من مجابهة الحقائق طلبا للتقية والثجاة ، فجعلوا يثيرون المشاكل دون أن يجدوا حلولها ، وأخذوا يكتفون ببذر بذور الشك فى كل مكان ، وكانوا يظهرون احترامهم للمبادئ السائدة ، ولكنهم يسردون براهينها فى صورة ضعيفة، ويوردون الاعتراضات عليها فى قوة ، أو يحيلون القراء الى مواضع أخرى من الموسوعة تحتوى على جحودها .

هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى ان الذى فهمه القائمون على الموسوعة ، ولا سيما ديدرو ، هو تعطش كل طبقات المجتمع الى المعرفة . غير أن الأكثرية الغالبة من أولئك القراء النهمين كانت تنقصها المعارف الأولية ، وان القائمين بأمر الموسوعة قد حسبوا حساب هذا النقص ، فعالجوا العلوم والفنون بطريقة تفترض انه ليس هناك أية معرفة أولية ، وعرضوا ما كانت معرفته هامة فى كل مادة لا أكثر . وقد محوا مصاعب قوائم الاصطلاحات لكى لا تكون مربكة فى أى موضوع ، وترجموا النصوص التى لم تعد غير مفهومة . وبالأجمال أرادوا أن يكتبوا مؤلفا يمكن أن يحل محل مكتبة شاملة لجميع الأنواع بالنسبة الى انسان جميع الطبقات . وهو شامل كذلك لجميع الأنواع بالنسبة الى العالم المحترف بحيث يكون حسبة القيام بحركة بسيطة لتناول الكتاب وقضاء بضع ثوان للبحث عن الكلمة المرادة . وعندئذ يصير أجهل الناس من أكثرهم تعلمًا . ومن أمثلة ذلك تلك الأقصوصة الشائقة التى يحدثنا عنها فولتير ، فينبئنا بأنه بينما كان الملك لويس الخامس عشر يتعشى فى قصر تريانون بفيرساي فى صحبة قليلة وكانوا يتحدثون عن الصيد وعن البارود . اذ بهم يلمحون انه لا يعرف أحد منهم بالضبط من أى شئ يتكون البارود ، وان مدام دي بومبادور ، لم تكن تعرف من أين تأتى بالأصباغ الحمر التى تزين بها وجنتيها ، ولا كيف تصنع الجوارب الحريرية التى تلبسها ، ولكن هذا الجهل كان له دواؤه فلم تلبث الاشارة أن صدرت ، وسرعان ما أحضر الخدم مجلدات دائرة معارف ديدرو واستعلم الحاضرون عن البارود والأصباغ ، والمناول التى تنسج عليها الجوارب . وعلى أثر ذلك انقض كل واحد من الحاضرين على المجلدات ، وفى نفس اللحظة التقى بها كان

يبحث عنه ، ففيها وجد الحصوم النتائج الحاسمة لقضاياهم ، وفيها قرأ
الملك حقوق تاجه ، وفيما كان الحاضرون مستمرين في القراءة قال الكونت
دى ك . . . بصوت عال : « مولاي انك لجد سعيد بأن يوجد في عهدك
رجال قادرون على معرفة جميع الفنون ، وعلى نقلها الى الأجيال القادمة ،
اذ كل شيء هنا منذ طريقة صنع الدبوس الى طريقة سبك مهافك
وتصويبها ، أى من اللامتناهى في الصغر الى اللامتناهى في الكبر » .

دائرة المعارف في عصر التنوير

مما لا ريب فيه ان القرن الثامن عشر هو الذي منح التطورات الغربية تلك الصور المتجلية التي تشاهد اليوم نتائجها واضحة المعالم ، وان تلك الحقبة من تاريخ أوربا هي الآونة الحاسمة التي فصلت بين ماضيها ومستقبلها . ومن ثم كان من المؤلف أن يقرأ الباحث في منتجات المؤلفين المحدثين - سواء أكانوا من العلماء أم من النقاد ، أم من المرتابين - هذه العبارة : « نحن الورثة المباشرين للقرن الثامن عشر » وفي الحق أن عددا ضخما من المؤلفات المعاصرة قد خصص لدراسة اتجاهات المدنية الغربية في تلك الحقبة ، وان هذه المؤلفات جميعها قد عنيت بأن تقف وقفة المتمعن عند تلك الثورة العقلية التي سبقت الثورة السياسية وأعلنت لها النفوس والعقول ، والتي كانت شعار ذلك القرن الذي أطلق عليه أعلام مفكره اسم « عصر الأنوار » لأن أولئك الأعلام كانوا يهدفون الى « تبديد تلك الكتلة الكبرى من الظلام الذي غمر الأرض » على حد تعبير ديدرو .

وفي الواقع اننا نرى في جلاء ان ذلك القرن كان عصر العقلين وذوى الحجج المقنعة والفلاسفة التجريبيين أي أن افذاذه كانوا أرباب عقول حادة قاسية ، ونفوس جافة لا تعرف سوى المكافحات والمناضلات والنقد الحازم ، الحاسم ، وانهم كانوا يأخذون على أسلافهم انهم ورثوهم مجتمعا سيئا رديئا اضطهد الطبيعة واستهان بالعقل ، وجعل السعادة غير ممكنة الاقتناص ، وقد زعموا انهم هم الذين سيجدون العلاج الناجع المبرىء من كل هذه الأدواء الخطيرة ، وانهم سيلحقون السعادة حتى يستولوا عليها بمعونة العقل والعلم وحدهما ، ولكنها سعادة بشرية فقط تلك التي يعدون وراءها ذلك العدو المتواصل ، وانهم سيلحقونها بفضل الأساس العلمي الذي سيضعونه ولا جرم ان هذا الأساس الذي رموا اليه هو انتاجهم الشخصي الذي كانوا موقنين بأنه سيغير وجه التاريخ بازاء المعرفة البشرية . وأبرز جوانب هذا الانتاج العملاق هو دائرة المعارف الفرنسية الأولى أو الموسوعة العظمى أو « دائرة معارف ديدرو » التي كانت مرآة القرن الثامن عشر المجلوة الصافية ، والتي ضمت بين دفتيها أهم أفرع

الثقافة الانسانية التي كانت معروفة الى ذلك الحين . وفي الحق أن الاجماع يكاد يكون منعقدا على أنها كانت أعظم أحداث ذلك العصر ، وانها كانت هي المركز الحقيقي لتاريخ الفكر في تلك العصور المتلألئة ، وقد يكون في هذا النعت شيء من المغالاة ، ولكن الذي لا شك فيه هو ان فكرة هذه الموسوعة لما كانت قد نشأت من نموذج انجليزى ، وارتدت صورتها النهائية في باريس ، ودعيت الى الهجرة الى سويسرا ، وبروسيا وروسيا حين حظر عليها في مسقط رأسها ، وسطعت أشعتها في أشد البلاد تباينا ، وأعيد طبعها ، وتعددت محاضراتها في كل مكان ، فقد كانت حقا احدى القوى العقلية التي تمثل أوروبا كلها تمثيلا صحيحا .

دائرة المعارف وحاجة العصر اليها

كان منشأ تمثيل دائرة المعارف لاوروبا كلها هو أن الاتجاه الشامل كان فى كل مكان مندفعاً نحو حب الاطلاع والشغف بالمعرفة بصورة مفرطة ، وأن روح العصر كله كانت تتوق الى احراز أكبر قسط من الثقافة بأقل مجهود . ومن آيات ذلك ما يلاحظه أحد علماء ذلك العصر اذ يقول : « يجب على كل امرئ أن يكون عالماً ولكنه يحاول أن يصير كذلك بضمن رخيص ، تلك هى عبقرية عصرنا » .

كانت هذه الملاحظة دقيقة ، وفى الواقع هل كانوا يريدون أن يتعلموا الهندسة دون أن يلاقوا كثيراً من المشقة ؟ والعلوم فى وقت قصير وبلا مساعدة أى أستاذ ؟ واللاتينية وهم يلهون ؟ والقواعد النحوية فى سرعة وبطريقة لذيدة ؟ لا ريب انهم فى كل مرة كانوا يظفرون بما يريدون ، لأن هناك كتباً ظهرت حديثاً كانت تعرض عناوين مغرية مثل : « الرياضة صناعة هينة » و « منهج جديد به يستطيع المرء أن يصير عالماً بلا أستاذ ، وبلا دراسة ، وبلا مشقة » .

كان هذا الاتجاه ثابتاً لا يتغير وبعد أربع وثلاثين سنة كتبت « صحيفة العلماء » بدورها فى نوفمبر ١٧٤٩ ما يلى « يحب الناس أن يعرفوا ولكنهم يريدون أن يتعلموا بلا مشقة وفى قليل من الوقت وذلك بلا ريب هو سبب المناهج المتباينة التى تقدم فى كل يوم ، وهو السبب الذى من أجله نرى هذه الكثرة من المختصرات » . وفى الواقع كان الناس يرون مختصرات من كل نوع ، « وفكراً منتزعة من منتجات مؤلفيها حين تكون تلك المنتجات مفرطة فى الوفرة » .

وكذلك كانت هناك قواميس كثيرة فى اللغات الأجنبية ، وقواميس تاريخية وأدبية . ولكن الذى كان يطلب اذ ذاك هو من نوع آخر ، أى قواميس للفنون وللتجارة وللجغرافيا . وكان المرغوب فيه قاموساً يحتوى على كل القواميس الأخرى ، ويكون أهلاً لارضاء شره المعرفة الذى كان يهيج العقول . وكان المثل الأعلى لهذا القاموس ، أن يكون عالمياً وسهل

الحمل ، واذا كان هذا مستحيلا ، كان ثقيلا فليكن ذلك ، ولكن ليكن عالميا .

كانت دائرة معارف ديدرو اذن تتجاوب مع حاجة العصر اصدق التجاوب ، اذ انها كانت تهدف الى أن تكون فى الوقت ذاته انتاجا علميا وتعميما ، وكانت غايتها تلخيص جميع المعارف التى وصلت اليها البشرية. عند منتصف القرن الثامن عشر فى مشكلات العلم والفن والأدب والفلسفة والسياسة .

حقا لقد كانت دائرة معارف ديدرو طريق العقل ضد الأساطير وطريق المعرفة ضد العقيدة والتعاليم الدينية ، وطريق التقدم عن طريق التعليم ضد التأمل والتفكير القديم فى الموت ، فكأنما هبت هذه كلها على أوروبا مثل ريع محملة بلبقاح جديد تبدد كل التقاليد وتنير الفكر وتوقظه ، وتدعو آخر الأمر الى الثورة . ان موسوعة ديدرو كانت ثورة قبل « الثورة الفرنسية » .

نماذج من دائرة معارف

ديكرو

مادة الانسان :

الانسان اسم مذكر ، وهو كائن حساس ، متأمل ، مفكر يسير في حرية على سطح الأرض ، ويبدو انه على رأس جميع الحيوانات الأخرى التي يسودها ، وهو الذي يعيش في جماعة ، والذي اخترع العلوم والفنون والذي لديه خيرية وشرية خاصتان به ، والذي اتخذ له سيادة ، واصطنع لنفسه قوانين وهلم جرا .

واذا أقصى الانسان أو الكائن المفكر والمتأمل من فوق سطح الأرض ، فان منظر الطبيعة المؤثر السامي لا يكون الا محزنا وأبكم ، فيصمت الكون ويستولى السكوت والضجر ويتحول كل شيء الى عزلة شاملة حيث تمر الظواهر غير الملحوظة بطريقة غامضة وصماء ، لأن الانسان هو الذي يجعل وجود الكائنات ذا أهمية ومادام الأمر كذلك فماذا يستطيع المرء أن يعتزم في تاريخ هذه الكائنات خيرا من أن يخضع لذلك الاعتبار ؟ ولماذا الا تدخل الانسان في مؤلفنا « دائرة المعارف » على هيئة وضعه في الكون ؟ ولم لا نتخذ منه مركزا مشتركا ؟

مادة الطبيعة :

الطبيعة اسم مؤنث ، وهي من الوجهة الفلسفية عبارة تعاقبت عليها استعمالات مختلفة ، ففي أعمال أرسطو فصل كامل عن المعاني المتباينة التي كان الاغريق يعطونها لكلمة الطبيعة . وعند اللاتين بلغت المعاني المختلفة لهذه الكلمة عددا أوصله أحد المؤلفين الى أربعة أو خمسة عشر معنى . وكذلك الأستاذ « بيل » في رسالة ألفها عن المعاني المعزوة الى كلمة طبيعة ، قد عد من تلك المعاني ثمانية جوهرية منها :

ان معناها أحيانا نظام العالم ، أو آلة الكون ، أو مجموعة كل الأشياء المخلوقة .

مادة الأخلاق :

هى اسم مفرد مؤنث ، معناه علم السلوك ، هو العلم الذى يبين لنا السلوك الحكيم . ويجعل أفعالنا ملتزمة مع قواعد هذا السلوك . وإذا كان من الملائم للكائنات العاقلة أن تطابق قواهم الأشياء التى هم مهياؤن لها . فان الأخلاق هى العلم الخاص بالاناسى لانها هى العلم المناسب فى العموم مع كفاياتهم الطبيعية ، والذى تتعلق به فوائدهم العظمى . واذن فالأخلاق تحمل معها براهين قيمتها . وإذا كان هناك أحد محتاج الى التعقل المنطقى لاقتناعه ، فانه يكون عقلا فاسدا ذلك الذى يسترشد بالحجج فى هذا الشأن .

قد يكون من الممكن أنه ينقصنا كتاب فلسفى يعالج تطابق الانجيل مع أنوار العقل السليم ، لأن كليهما يسيران بخطى متوازنة ولا يستطيعان أن يفترقا ، اذ أن الوحي يفترض فى الاناسى معارف هى لديهم من قبل ، أو هم يستطيعون اكتسابها باستعمال نورهم الطبيعى . . .

وأخيرا ان من اساءة فهم الدين أن يرفع المرء قيمة الايمان التقليدى على حساب الأخلاق ، لانه - ولو أن الايمان ضرورى للجميع - يمكن أن يعلن الانسان بحق ان الأخلاق تسمو على الايمان من عدة مظاهر .

مادة الاعتدال :

الاعتدال هو اسم مؤنث ، معناه التوسط . ويستعمل فى الأخلاق ، وهو فى معناه العام توسط حكيم يوقف رغباتنا وعواطفنا وأهواءنا عند الحدود الدقيقة .

ان هذه الفضيلة النادرة تحمل الاناسى على الاستغناء عن الكماليات . وان الحكيم يحتقر الوسائل الشاقة التى ابتدعها الغنى لاجتلاب السعة أو ما يسمى زيفا باسم السرور ، وهو يكتفى بالبساطة الطبيعية للأشياء .

ولكن لناخذ هنا الاعتدال في دلالة أكثر تحديدا ، وهو - بهذه
النظرة الأخيرة - فضيلة تصنع زمانا لرغباتنا الجسمية • وعندما يحصرها
في وسط بعيد بعدا متوازنا عن الافراطيين المتعارضين ، هو لا يصيرها
بريئة فحسب ، بل نافعة وجديرة بالثناء •

ان من أهم الرذائل الأساسية التي يكبح الزمن جماحها ، رذيلتي
الدعارة والشراسة • وإذا كانت هناك رذائل أخرى مضادة للاعتدال ،
فإنها تنبثق من أحد هذين النبعين •

هوامش

(١) حرب البوكسر : ثورة قام بها الصينيون (١٨٩٩ - ١٩٠٠) للقضاء على نفوذ الدول الغربية واليابان . وانتهت بهزيمة الصين .

(٢) دا لامير : (١٧١٧ - ١٧٨٣) فيلسوف وفيزيائي وعالم رياضى فرنسى . كان أمين السر الدائم للأكاديمية الفرنسية . وضع دراسات رياضية استغرقت ثمانية مجلدات سنة ١٧٨٠ م .

العقد الاجتماعي

جان جاك روسو

١٧٦٢ م

هناك علماء وأدباء ومفكرون أحدثت آراؤهم دويًا في العالم ، وكانت الأسباب الرئيسية في حدوث ثورات وتغييرات عنيفة في حقول السياسة والاجتماع . ويأتى على رأس هؤلاء المفكر الفرنسي المعروف جان جاك روسو .

وإذا كانت سير الرجال العظام هي مراحل التاريخ الذى صنعه وصورة الأزمنة التى عاشوا فيها ، فلا بد من البدء بعرض حياة فيلسوف فرنسا كما سطرها في اعترافاته التى لم يسبقه اليها أديب من قبل لما فيها من جراءة نادرة وصراحة غريبة ، وكما سجلها عشرات بل مئات الباحثين الذين كتبوا عنه . وإذا كان علينا أن نجمل حياته فى كلمات ، فأننا نستعير قول « رومان رولان » (١) فيه : « ان حياة روسو وكتاباتة تمثل فى ميدان التاريخ الأوروبى حالة ربما كانت فريدة لرجل عبقرى هبطت عليه العبقرية على منشوده وخلافا لارادته » .

والحق أن روسو كان ربيب الشوارع و خليل الأشقياء ! ، تعلم فى مدرسة التجارب الكبرى ، مدرسة الحياة ، وحين كان الآخرون يتعلمون ويتثقفون كان هو يحيا ويتأمل !

سيرة حياته

نشأ جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau فى أسرة بروتستانتية من أصل فرنسى ، وقد ولد فى جنيف يوم ٢٨ يونيو ١٧١٢ . وتوفيت أمه فى أثناء ولادته ، فتعهد أبوه ، ايزاك روسو ، الساعاتى ، بالتربية ، وبعد طفولة أحيطت بقدر كبير من الحرية عهد به الى الراعى لامبرسييه ، الذى علمه اللاتينية . وفى عام ١٧٢٧ ، التحق تلميذا لدى حفار معروف ، كان يقسو فى معاملته ، ولم يكن الشاب المراهق راضيا عن هذا الوضع ، وكان يفضل القراءة والنزهة فى حقول جنيف . وفى ذات مساء من شهر مارس ١٧٢٨ قرر الا يعود لمعلمه ، وهرب سيرا على قدميه فى طرقات سافوى ، فأوته مدام « دى وارن » وهى

من الأتباع الذين تحولوا الى الكاثوليكية ، وأوفدته الى تورين لكي يعتنق هو الآخر نفس المذهب .

وبعد حياة غير مستقرة ، زاول خلالها العديد من المهن عاد الى مدام دي وارن في شارميت سنة ١٧٣٢ ، وهناك قضى روسو فترة سعيدة حتى عام ١٧٤٠ وأتم تعليمه وهو عند تلك السيدة التي طفق يناديها بأمه . ثم غادر شارميت في عام ١٧٤٢ قاصدا باريس .

وظل روسو طوال عشر سنوات مختلطا بالحياة الاجتماعية وهو يحلم بالشهرة ، عمل أولا معلما ، ثم مدرسا للموسيقى ، ثم سكرتيرا بسفارة فينيسيا . وسرعان ما عزل من وظيفته ، ولكنه ظل يحتفظ بذكرى مريرة لاتصالاته الأولى بالمجتمع ، وفي عام ١٧٤٣ حاول أن يلتقي اليه الأنظار ، فقدم الى أكاديمية العلوم مشروعا ثوريا عن العلامات الموسيقية على أسس حسابية ، ولكن المشروع لم يلق نجاحا ، ثم كتب باليه « أشعار الغزل » عام ١٧٤٥ ، وتعاون مع ديبرو في كتابة الموسوعة .

و ذات عصر مشمس من أكتوبر ١٧٤٩ لفت نظره اعلان من أكاديمية ديجون يقول ان المؤسسة خصصت وساما ذهبيا لأفضل بحث في الموضوع الآتي : هل أدى التقدم في الآداب والعلوم الى تنقية الأخلاق أم الى افسادها ؟ .

وللحال تراءى له انه يقف وجها لوجه أمام السؤال الذي ما انفك منذ طفولته يستعد للإجابة عنه . والتمعت في ذهنه الأفكار كما يسقط الوحي . وكتب لاحقا يصف ذلك : « لقد تجمهرت الأفكار في رأسي ، تحفز احداها الأخرى » . أما الفكرة الرئيسية فكانت الآتية : « الانسان صالح بطبيعته ، والمؤسسات الاجتماعية وحدها التي أفسدته » وجاءت ثمرة أفكاره مقالا بعنوان : « مبحث في العلوم والآداب » ، لم تقتصر نتيجته على نيل الجائزة ، بل لقد كان نقطة تحول في الفكر السياسي الغربي . وهو كذلك ، أطلق كاتبه جان جاك روسو الى طليعة الفلاسفة الأوروبيين .

فكرة الكتاب عند روسو

ثم قدم الى الأكاديمية رسالته عن العلوم والفنون لينال الجائزة ، ولقد أجاز المجمع هذه الرسالة بعد مناقشات حامية الوطيس . ثم كتب سنة ١٧٥٢ أوبرا هزلية بعنوان «منجم القرية» وملهاة بعنوان «نرجس» . ثم عاد الى جنيف ١٧٥٤ واستعاد صفة المواطن لمدينة جنيف بعد أن كان قد فقدته منذ مدة . وأخرج في سنة ١٧٥٥ مؤلفه الشهير عن أصل التفاوت

ونشأته بين الناس وهو يحاول في هذا المؤلف الوصول الى صفات « الانسان الطبيعي » أو الانسان الأول قبل أن يتحضر وتدمغه الحضارة والمجتمع بصفات معقدة أدت الى اخفاء ملامحه الأصلية واشتقائه ، مبينا كيف ان الناس كانوا فى حالة الطبيعة متساوين ولكن المجتمع والحضارة هما اللذان أديا الى ما نرى بينهم من فوارق . والواقع ان روسو يحمل فى هذا المؤلف والمؤلف الذى قدمه لجامعة ديجون عن تقدم العلوم على الحضارة مدعيا أن الحضارة فاسدة وان التقدم الحضارى هو أساس ما تعانيه البشرية من شرور وآثام ثم ينصح بضرورة الرجوع « الى حالة الطبيعة » التى تؤدى وحدها بالانسان الى السعادة . وفى كتابه عن أصل التفاوت بين الناس يتوسع فى هذه الفكرة اذ يقوم بدراسة الانسان فى مرحلة الطبيعة أى فى مرحلة سابقة على تكوين المجتمع الانسانى وهى مرحلة كان الانسان يعيش فيها حرا من كل قيد ، فيما يرى روسو ، وكان يعيش معيشة طبيعية . ثم يتساءل عن الظروف التى أدت بالانسان بالانتقال من هذه الحياة الطبيعية الى حياة اجتماعية كبته بالسلاسل والأغلال وطمست صفاته الطبيعية الأصلية لكى تخلع عليه صفات اجتماعية مصطنعة زائفة أفست حياته . ويجب روسو على ذلك قائلا ان بعض الظروف الخارجية قد اضطرت أفراد الانسان الى المعيشة سويا بشكل عابر أولا ، ثم بدأ هؤلاء الأفراد يتعودون بعد ذلك على تلك المعيشة ، وأخيرا كونوا جماعات بشرية ظهر فيها على الفور أشخاص نصبوا أنفسهم سادة على غيرهم لا لسبب آخر الا لانهم أقوى من غيرهم ، وبذلك ولدت المجتمعات البشرية قائمة على التفرقة بين الناس .

وهنا يقترح روسو فى خطابه عن تقدم العلوم الرجوع الى حالة الطبيعة ، غير أن هذا الحل بدا له مستحيلا لأن الانسان أصبح متعلقا بالحياة الاجتماعية بشكل يجعله غير مستعد اطلاقا للتنازل عنها ، اذ أن الحياة الاجتماعية بالنسبة اليه بمثابة « طبيعة ثانية » لا يستطيع أن يستبدل بها غيرها . ومن هنا يبدو الحل الثانى لهذه المشكلة وهو يقوم على اصلاح الحياة الاجتماعية اصلاحا من شأنه أن يؤدى بالانسان الى التمتع بالميزات الطبيعية التى كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة والتى فقدتها الى الأبد .

ولكن هل من الممكن تحقيق هذا الحل ؟ ويجب روسو على هذا السؤال فى كتابه عن العقد الاجتماعى . فكتاب العقد الاجتماعى ليس الا محاولة لاصلاح الحياة الاجتماعية والسياسية فى المجتمع حتى يستطيع الانسان أن يسترجع كل أو بعض الميزات التى كان يتمتع بها فى حالة الطبيعة . ولكن فى حالة استحالة استرجاع مثل هذه الميزات يمكن اعتبار

كتاب العقد الاجتماعي محاولة لايجاد اصلاحات اجتماعية من شأنها أن توفر للانسان الاجتماعي ما يعادل ما فقده من ميزات ، كافي يتمتع بها في حالة الطبيعة ، أو ما يعوضه عن فقدانه لتلك الميزات .

وما أن صدر كتابه الجليل الشأن عن العقد الاجتماعي سنة ١٧٦٢ حتى قررت السلطات الحاكمة القبض عليه بتهمة اثارة الخواطر ضد نظم الحاكم والقوانين والعادات والتقاليد المستقرة ، مما أدى به الى الفرار من فرنسا الى سويسرا . ولكنه طرد بعد ذلك من سويسرا وعاد الى فرنسا بعد عدة سنوات . ثم قام بتأليف قاموس عن الموسيقى سنة ١٧٦٧ وقضى عدة سنوات في الترحال من بلد لآخر . ولقد قام في باريس سنة ١٧٧٢ بتأليف كتابه « ملحوظات عن حكومة بولونيا » ضمنه كثيرا من آرائه لاصلاح نظام الحكم في تلك الدولة ، ثم اتم في تلك السنة كتاب « الاعترافات » الذي ضمنه تاريخ حياته ، كما بدأ في نفس السنة كتابة مؤلفه « أحلام أو تأملات مشاء وحيد » .

ولقد توفي روسو في ٢ من يوليو سنة ١٧٧٨ أي قبل قيام الثورة الفرنسية بأحدى عشرة سنة ، فلم يعيش اذن ليرى الثورة التي كانت مؤلفاته من بين الكتابات الهامة التي أدت الى اشعالها .

أصل فكرة العقد الاجتماعي

في التاريخ

واذا بحثنا في مدى أصالة روسو في كتاب العقد الاجتماعي لوجدنا ان فكرة وجود اتفاق أو عقد بين الحاكم والأفراد أو بين الأفراد بعضهم وبعض على الخضوع لنوع معين من نظم الحكم فكرة قديمة ، فيذهب كونفوشيوس (٢) الفيلسوف والحكيم الصينى (٥٥١ - ٤٤٩ ق م) الى أن الحاكم مفوض من الله على الأرض ليحكم وفق عقد يحدد نصوص هذا التفويض . والطاعة واجبة للحاكم طالما احترام نصوص هذا العقد والا فالأفراد لهم كل الحق في الثورة ضده اذا حاد عن هذه النصوص . وفي نفس العصر الذى عاش فيه كونفوشيوس نجد اتباع موتسى وهو من الفلاسفة الصينيين البارزين يضعون كأساس للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد عقدا أبرم بينهم في العصور السحيقة ، وعلى كل فرد احترام هذا العقد . وفي عصر أفلاطون بنى كثير من السوفسطائيين الدولة على أساس تعاقدى ، اذ نجد جلوكون في جمهورية أفلاطون (٣) يتحدث عن الرأى الشائع الذى يذهب الى أن الأفراد قد عقدوا فيما بينهم عقدا يبتعد كل

منهم بمقتضاه عن الظلم ، ولقد اعتنق هذا الرأي كثير من الأبيقوريين ، وفي العالم الروماني يذهب كارتيا دس الى أن الناس كانوا يعيشون قديما بلا قانون وكان كل منهم يعتسلي على الآخر مما أدى الى انتشار القلق والخوف ولذلك أبرموا عقدا فيما بينهم يخضعون وفقه لنظام يختارونه . ثم يأتي ستيكا (٤) (٣ ق ٠ م - ٦٥ م) فيؤكد هذه الفكرة اذ يذهب الى ان الانسان كان في المبدأ يعيش في عصر ذهبي لا يخضع فيه لاية سلطة الا سلطة عقله ، وكان الناس متساوين اذ لم تكن الملكية الفردية قد عرفت بعد ، ولكن لظروف ما ظهر مبدأ الملكية الفردية فقضى على العصر الذهبي للانسانية اذ عمد الأفراد الى تدمير الملكية الجماعية وأصبحوا مشبعين بشهوة الجرى وراء الثروة والجاه . ومن ثم نشأت ضرورة انشاء نظم اجتماعية سياسية لكي تحدد من شهوات الانسان واعتداء الناس بعضهم على بعض . فالعصر الذهبي الذي أشار اليه سنيكا ليس الا العصر الذي كان يعيش فيه آدم وحواء في الجنة قبل السقوط على الأرض بسبب الخطيئة التي ارتكباها ، أما القوانين ونظم الحكم والملكية الفردية . . فهي كلها نظم تعد في ذاتها « شرا ضروريا » لكبح جماح شهوات بني الانسان وللتكفير عن الخطيئة الأولى التي ارتكباها آدم . وفي مطلع العصور الحديثة زادت أهمية نظرية العقد الاجتماعي وذلك نظرا لانتشار الجمعيات الخيرية والطوائف الدينية في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ، وهي كلها جمعيات تعاقدية أي تقوم على عقد يحدد اختصاصاتها ومجال عملها ، ولما كانت الدولة بمعنى من معانيها على الأقل ليست الا هيئة ذات اختصاصات معينة فقد كان من الطبيعي أن يلجأ كثير من المؤلفين الى تصويرها على أساس تعاقدى . ثم ان التجارة والصناعة قد انتشرت في مطلع العصور الحديثة وهي تقوم على عقود قانونية مبرمة بين الأفراد والشركات والبنوك تؤكد أهمية العقد في دائرة النشاط الاقتصادي ، ولقد كان لهذه الحال أثرها المباشر على المفكرين السياسيين والاجتماعيين في محاولتهم ايجاد تفسير معقول لخضوع الأفراد لسلطة الدولة . وهذا هو تحليل كل من د . ج رتش وفرنكلين جدينجز ويذهب كارليل (٥) الى أن فكرة « الميثاق الحكومي » كانت تسود السواد الأعظم من مفكرى العصور الوسطى لأن الحاكم كان في رأيهم ممثلا للاله على الأرض ، يتولى سلطانه وفق ميثاق خاص .

أما الاهتمام بفكرة العقد في بدء العصور الحديثة فكان استمرارا لتلك المعركة التي ثارت في العصور الوسطى المتأخرة حول سلطة الملك ومداه . ولكن ثمة سببا يبدو في رأينا فاصلا في الموضوع، ذلك ان الكنيسة كانت طوال العصور الوسطى تطفئ على سلطة الملوك وحدثت طوال تلك العصور معارك فلسفية بل وعسكرية بين انصار كل من الفريقين الى ان

قضى على سلطة الكنيسة في بدء العصور الحديثة بعوامل النهضة والإصلاح الدينى وبدأت تظهر القوميات الأوروبية الحديثة ، وبدأ الملوك يمارسون سلطاتهم بعنف وقسوة بسبب تلك العقدة التى تكونت لديهم بسبب طغيان الكنيسة عليهم طوال العصور الوسطى فانتشرت الدكتاتورية وانتشر حكم الطغيان فى كل مكان من القارة الأوروبية . وكان القانون يحمى هؤلاء الملوك من كل نقد ويعفيهم من أية مسئولية . ولقد أدت هذه القسوة الى وضع سلطة الملوك على بساط البحث ولا سيما مسألة الحق الالهى للملوك . ولم يجد المؤلفون أسلم ولا أكثر أمانا من عرض هذه المسألة وأشباهاها فى صورة قصة خيالية يعبرون فيها عما يجيش فى صدورهم من نقد لهذا الطغيان ويرسمون الصورة التى يفتقدونها فى واقعهم . ولقد استخدم المؤلفون نظرية العقد لتوجيه نظر الملوك الطغاة الى انهم ليسوا من عنصر يعلو على عنصر البشر وانهم يحكمون وفق قواعد متفق عليها منذ الأزل وان عليهم أن يخضعوا لهذه القواعد كشرط أساسى لطاعة الأفراد لهم لأن العقد الكامل يحمل دائما التزامات متقابلة ، فعقد البيع مثلا يفرض على المشتري أن يدفع الثمن وعلى البائع تسليم الشيء المباع فاذا نقض أحدهما التزامه ولم يوف به كان الآخر فى حل من نقض التزامه فنظرية العقد هى أتم صورة قانونية وفلسفية يستطيع عن طريقها الفيلسوف أو السياسى أن يهدم النظرية التقليدية التى سادت منذ العصور القديمة فى أن الملك فوق القانون أو انه متحلل من كل قانون .

لكل هذه الأسباب انتشرت اذن نظرية العقد على لسان عدد لا يحصى من المؤلفين فى أواخر العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة .

كيف ألف روسو كتابه

يعد كتاب العقد أهم مؤلفات روسو ، اذ كان ثمرة لتفكير عميق وتأمل طويل من المؤلف ، سلخ فيه أكثر من عشر سنوات . ذلك أن العقد الاجتماعي ليس في الحقيقة الا جزءا من كتاب آخر ضخيم كان روسو يزمع اخراجه لولا أن الوقت لم يسعفه فاقصر على اخراج العقد ليحل محل ذلك الكتاب ، ويؤكد ذلك قول روسو في اعترافاته سنة ١٧٥٦ « ان من بين الكتب المختلفة التي كنت اشتغل في اعدادها ، كتابا كنت أفكر فيه منذ زمن طويل ، واشغل نفسي به في شغف كبير ، وكنت أريد أن أقضي في اعداده كل حياتي ، كما كنت أعتقد انه سيتوج شهرتي ، وذلك هو كتاب النظم السياسية . ولقد راودتني فكرة ذلك الكتاب منذ ثلاثة عشر عاما ، اذ عندما كنت في البندقية سنحت لي الفرصة لمعرفة أخطاء حكومة ذلك البلد التي تفخر بحكمها » كان روسو اذن يزمع تأليف كتاب ضخيم عن النظم السياسية على غرار كتاب روح القوانين (٦) لمونتسكيو يجمع فيه الى جانب الدراسات النظرية والفلسفية مشاهداته وملاحظاته عن نظم الحكم في البلاد المختلفة التي زارها مضيفا الى كل ذلك تجاربه وخبراته . غير أن روسو وجد نفسه سنة ١٧٦١ أمام مشروع ضخيم قد لا تكفي سنوات حياته الباقية لتحقيقه ففضل اخراج الجزء الذي كتبه من كتاب النظم السياسية تحت عنوان « في العقد الاجتماعي » سنة ١٧٦٢ مقتصرًا على ما سبق ان أبداه من آراء في كتبه السابقة . على ان اخراج كتاب العقد لم يكن سهلا اذ استدعى ذلك ان يعمل المؤلف الى جمع بعض الأجزاء التي ترتبط بعضها ببعض في كتاب النظم ، بحيث تدور كلها حول فكرة مركزة واحدة ، مع اتلاف الأجزاء الأخرى . « وعلى ذلك لما كنت قد عدلت عن اخراج هذا المؤلف ، فقد صممت على اختيار ما يمكن فصله منه ، وعلى حرق الأجزاء الباقية . ولما بدأت العمل في هذا الكتاب بنشاط ، بدون أن أتوقف عن تأليف كتاب اميل في نفس الوقت ، استطعت أن انتهى من كتاب العقد في مدة أقل من عامين » . وهو في هذا الكتاب يرد على السؤال الذي طالما أثاره في مؤلفاته السابقة وهو : كيف السبيل الى تخلص الانسان من الشرور التي جرّها عليه انتقاله من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية -

محتويات كتاب العقد الاجتماعي

ينقسم كتاب العقد الاجتماعي الى أربعة أجزاء تحمل العناوين الآتية:

- ١ - في الميثاق الاجتماعي .
 - ٢ - في السلطان .
 - ٣ - في الحكومة .
 - ٤ - في كيف تسير الأمور في المدينة (الفاضلة) .
- وكل جزء من هذه الأجزاء مقسم الى عدد من الفصول .
- وسنتناول هذه الأجزاء الأربعة بالترتيب :

الجزء الأول

في الميثاق الاجتماعي

يقول روسو في مقدمة هذا الجزء انه سيحاول البحث عن الأساس الشرعي للنظام المدني ، أي سيحاول البحث عن الأساس الذي ترتكز عليه سلطة الدولة وطاعة الأفراد لها . ثم يقول في الفصل الأول من هذا الجزء « ان الانسان يولد حرا ولكنه مكبل بالأغلال في كل مكان » . فكيف اذن انتقل الانسان من الحرية التي ولد فيها الى حالة من العبودية تسيطر عليه ويخضع فيها لسلطان يستذله ويتحكم في مصيره ، وعلى أي أساس حدث ذلك ؟ لا يمكن أن يكون القانون الطبيعي أساس هذا الاستعباد . ذلك ان الأسرة وهي أقدم مجتمع في العالم ، هي المجتمع الطبيعي بين صور المجتمعات البشرية . وفي هذا المجتمع الطبيعي لا يخضع الأولاد للأب والأم الا طالما كانوا في حاجة الى رعايتهما والمحافظة على حياتهم ، فاذا كبروا ولم يعودوا بحاجة الى الأب والأم أصبحوا أحرارا مستقلين مثلهما الا اذا استمروا خاضعين لهما عن طواعية وبشكل غير طبيعي . والأسرة ليست الا النموذج الأول للمجتمع السياسي فالسلطان يمثل الأب والشعب يمثل الأولاد والكل لما كانوا أحرارا متساوين لا يمكن أن يتنازلوا عن حريتهم الا لصالحهم ولما يكون من شأنه أن يحافظ على كيانهم وبقائهم لأن القانون الطبيعي الأول للانسان هو أن يسهر على المحافظة على نفسه وعلى بقائه . فالسلطان الذي يحكم الأفراد وفق مصلحته بعيدا عن مصالحهم ، ليس

لحكمه أى سند من القانون الطبيعى ، بل ان حكمه هذا ضد القانون الطبيعى على خط مستقيم . ولكن اذا لم يكن القانون الطبيعى هو الأساس ، ربما يكون قانون الأقوى هو أساس هذه الحال . ولكن « أقوى انسان لن يكون أبدا من القوة بحيث يستمر دائما سيدا ، ما لم يحول قوته الى حق وطاعته الى واجب » . ولكن القوة الجسمية لا يمكن أن تكون أساسا بحال من الأحوال للحق لان القوة تعنى القدرة الجسمية فاذا اخضع الناس لشخص قوى من الناحية البدنية فان خضوعهم سيكون عملا اقتضته الضرورة ولن يكون عملا طوعيا ، ولن تؤدي القوة الى خلق حق لان من صفات الحق أن يطاع صاحبه عن واجب وليس عن خوف ، وما أشبه الحاكم الذى يحكم بالقوة بصاحب عصاة يهاجم الناس ليغتصب منهم امتعتهم فكما ان القوة هنا لا تمنح حقا كذلك هى فى المجال السياسى لا يمكن فى رأى روسو أن تكون أساسا لحقوق ونظم .

« ويجب أن نتفق اذن على ان القوة لا تنشئ حقا وان الناس ليسوا ملزمين بالطاعة الا للقوة الشرعية » . وعلى ذلك يستمر روسو فى البحث عن الأساس الذى يبرر مشروعية انتقال الانسان من الحالة الطبيعية التى كان فيها حرا من كل قيد الى الحالة الاجتماعية التى هو فيها مستبعد - على حد قوله - ويستمر روسو فى البحث عن هذا الأساس فيتساءل عما اذا كان ثمة عقد بين الحاكم والأفراد تنازل الأفراد بمقتضاه عن حريتهم له على غرار تعليل هوبس (٧) فى كتاب اللوثيان أو جروسيوس (٨) فى كتابه الشهير « فى قانون الحرب والسلم » . ويناقش روسو فكرة جروسيوس الذى ذهب الى ان الطغيان الملكى مشروع لأن لكل فرد الحق فى أن يتنازل عن حريته لسيد يختاره ، واذا كان ذلك صحيحا ومشروعا بالنسبة لى فرد فلماذا لا يكون مشروعا بالنسبة لشعب بأكمله اذ يتنازل عن حريته لحاكم من الحكام ؟ . ويرد روسو على ذلك بأن طبيعة الانسان تجعله لا يتنازل عن حريته الا فى نظير ميزة أكبر منها ستعود عليه ولا يمكن أن نجد شيئا يمكن أن يعادل حرية الانسان فى التصرف للمحافظة على بقائه ، حتى السلام أو الأمن الداخلى الذى يدعون أن الحاكم الطاغى يوفره لرعاياه نظير تنازلهم عن حريتهم أمر لا وجود له ، لأن جشع الحاكم وطمعه الذى لا يعرف حدودا واعتدائه على الأفراد هى بمثابة حروب تهدد أمنهم باستمرار . كما ان التنازل عن الحرية معناه التنازل عن صفة الانسانية ، بل التنازل عن واجبات الانسان نحو نفسه ، فهو اذن ضد الطبيعة الانسانية وبالتالي لا يكون لأى انسان أو لأى شعب أن يتنازل عن حريته لأى شخص .

ولكن اذا لم يكن ثمة عقد مشروع بين الشعب وبين الحاكم الطاغى يبرر طغيانه ، فان هناك ميثاقا اجتماعيا يختلف عن ذلك العقد المزعوم.

وهو الذى يجب أن نبحث عنه ونتذاكره نصوبه . ففي المرحلة السابقة على تكوين السلطان السياسى والمدنى كان الأفراد أحرارا متحللين من كل قيد الا من واجب كل منهم الطبيعى نحو المحافظة على نفسه ، ولكن حدثت ظروف جعلت من الصعب استمرار هذه الحال الطبيعية ووجد الأفراد انهم مهددون بالفناء ان لم يبحثوا عن مخرج من هذه الحال . ولم يكن لدى كل منهم الا قوته وحرية وهما الأدوات الوحيدتان اللتان كان يستخدمهما فى المحافظة على بقائه ، لذلك وجدوا ان ليس ثمة من وسيلة لانقاذهم من حالة الطبيعة الا « البحث عن شكل للوحدة أو للاجتماع من شأنه ان يحمى ويقي شخص كل عضو وأمواله . . شكل للوحدة يكون فيه كل عضو وقد اتحد مع الأعضاء الآخرين غير خاضع مع ذلك الا لنفسه ، ويظل أيضا متمتعا بنفس الحرية التى كان يتمتع بها من قبل » . وتلك هى المشكلة الحقيقية والرئيسية التى يبحث العقد الاجتماعى عن الحل الصحيح لها .

ونصوص هذا العقد الذى أبرم بين الأفراد محددة تحديدا دقيقا بطبيعة هذا العقد نفسه بحيث ان أى تعديل فيها يجعل العقد لاغيا وبحيث يستطيع كل فرد أن يسترجع حريته الطبيعية التى تنازل عنها اذا ما اعتدى معتد على نصوص العقد واجكامه . ووفق هذا العقد يعد كل مسهم أو مشترك أو عضو متنازلا بلا تحفظ عن حقوقه للمجموعة . وهذا التنازل ليس لمصلحة شخص معين بل هو لمصلحة الجماعة التى هى مصلحة كل فرد من الأفراد ، « فكل شخص منا يضع تحت تصرف الجماعة شخصه وكل قوته تحت قيادة الارادة العامة » . فكل شخص سيصبح عضوا فى هيئة معنوية أو أخلاقية تتكون من الأفراد المنضمين اليها ، وهذه الشخصية العامة التى تتكون من اتحاد الأفراد هى ما كان الأقدمون يطلقون عليها اسم المدنية ويطلقون عليها الآن اسم الجمهورية أو الهيئة السياسية ، التى يسميها أعضاؤها باسم الدولة أو السلطان . أما المشتركون فيطلق عليهم اسم جمعى وهو الشعب ، وفى علاقاتهم بعضهم ببعض يطلق عليهم اسم المواطنين بوصفهم مشتركين فى هيئة ذات سيادة ، كما يطلق عليهم اسم الرعايا بوصفهم خاضعين لقوانين الدولة .

والميثاق الاجتماعى والحال هذه يشتمل على التزامات متبادلة بين جمهور الشعب والأفراد ، وكل فرد من أفراد الجماعة سيكون ذا صفتين يقابل كل منهما التزامات ، فهو بوصفه جزءا من السلطان الذى لا مصدر له الا الشعب أو مجموع الأفراد متعاقد مع هؤلاء الأفراد وملزم ازاءهم وهو بوصفه فردا من أفراد الشعب متعاقد مع السلطان العام للجماعة ومسئول أمام هذا السلطان فالفرد اذن يمكن أن يقال عنه انه متعاقد مع نفسه ، فهو بصفته من رعايا السلطان متعاقد مع نفسه بصفته جزءا من هذا السلطان . وهذا السلطان المكون من الأفراد المتحددين فى الهيئة الاجتماعية

أو السياسية ليس له أية مصلحة ولا يمكن أن تكون له مصلحة تخالف
مصلحتهم العامة بل إن مصلحة هذا السلطان لا يمكن أن تكون مضادة
لمصلحة كل فرد على حدة . ولما كان كل فرد قد تنازل تنازلاً مطلقاً عن
كل شيء للجماعة وهو بهذا إنما يتنازل عن كل شيء لنفسه هو ، بوصفه
عضواً في هذه الجماعة ، ولما كان العقد أو الميثاق الاجتماعي يصبح لا قيمة
له إذا أبيع لأي عضو الخروج عليه ، فإن أبسط النصوص المتضمنة في
هذا الميثاق تقتضي منع أي خروج على نصوص هذا العقد بالقوة . ولكن
ما هي الميزات التي ستعوض الأفراد الخاضعين للعقد عن ميزاتهم التي
فقدوها بانتقالهم من حالة الطبيعة إلى الحالة الاجتماعية أو المدنية ؟ ذلك
هو موضوع الفصل الثامن من هذا الجزء .

يقول روسو أن الانتقال من حالة الطبيعة إلى الحالة الاجتماعية يحدث
في الإنسان تغييرات عميقة فهو يجعله خاضعاً للعدل بدلاً من الخضوع
للغريزة وتصبح أعماله ذات قيمة أخلاقية كانت خلوا منها وهو في حالة
الطبيعة ، لأن الإنسان في هذه الحالة الأخيرة كان بريئاً ، عادلاً وكان يفعل
الخير طواعية وبشكل طبيعي ولذلك كانت الفضيلة التي يتحلى بها فضيلة
سلبية ، أما في الحالة الاجتماعية فإنه يتصرف وفق معايير أخلاقية محددة
وعن علم تام بهذه الأخلاقية فهو يفعل الخير لذاته ويقدر الواجب لذاته
لا لأي اعتبار آخر ، فالحالة الاجتماعية تحول من كائن خاضع للغريزة إلى
إنسان خاضع للواجب الأخلاقي .

ثم يعمل روسو حساب الخسائر والمكاسب في الانتقال من الحالة
الطبيعية إلى الحالة الاجتماعية ، فالإنسان قد فقد الحرية الطبيعية وحقه
المطلق في كل ما يفعل ولكنه كسب الحرية المدنية المحدودة بالإرادة العامة
ثم الملكية التي تضمنها له الجماعة ، والحرية الطبيعية ليست إلا استعباداً
لأن الإنسان يكون خاضعاً فيها لنوازع ، أما الحرية المدنية فهي الحرية
الحقيقية بمعنى الكلمة لأن الإنسان يخضع فيها لقانون مدني وضعه لنفسه
بنفسه . أما عن الملكية في حالة الطبيعة فكانت قائمة على القوة الجسمية
وهذه ليس فيها أي ضمان لبقائها واستمرارها ، أما في الحالة المدنية
فالمجتمع هو ضامن لها وهي لذلك ملكية مستقرة مقدسة .

الجزء الثاني

في السلطان

ان أول وأهم نتيجة لكل ما تقدم هي ان للارادة العامة وحدها الحق في قيادة قوة الدولة وتوجيهها نحو الغاية التي أنشئ من أجلها النظام السياسي وهي الصالح العام. ولما كان السلطان ليس شيئا آخر الا اختصاص الارادة العامة التي تمثل ارادة « الأنا الاجتماعية » أو الشخص المعنوي الذي يتكون من مجموع الأفراد ، فان هذا السلطان لا يمكن التنازل عنه لشخص أو لعدة أشخاص ، فالارادة العامة يجب أن تمارس السلطان بنفسها وبلون نواب أو ممثلين ينوبون عن الأفراد أو الشعب الذي هو مصدرها . ولنفس الأسباب لا يمكن أن ينقسم السلطان الى أجزاء أو أقسام منفصلة ، لان الارادة العامة التي هي مصدر السلطان وممارسه الوحيد ، اما انها عامة بمعنى الكلمة وحينئذ تكون مصدر القانون ، واما انها لا تعبر الا عن جزء من الشعب وحينئذ لا تكون عامة ولا تكون مصدرا للقانون ، ولما كانت الارادة العامة واحدة غير متعددة فان السلطان الذي تمارسه لا يمكن أن ينقسم .

وهنا ينتقد روسو انقسام السلطان الى سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية قائلا ان السياسيين لم يستطيعوا قسمة السلطان في مبدئه فراحوا يقسمونه في موضوعه فأصبح السلطان أشبه شيء بموجود غريب مكون من أجزاء مختلفة ، أو أشبه شيء برجل ذي عدة أجسام جسم مزود بالعيون وآخر مزود بالأذرع وثالث بالأقدام . . . وهكذا .

ولكن ما هي هذه الارادة العامة التي هي الممارس الوحيد للسلطان والتي هي مصدر القانون ، انها ارادة تتكون في المجتمع عندما يتعلم كل فرد كيف يضحي بمصلحته الفردية في سبيل صالح أسمى وهو الصالح العامة ، اذ ينتج حينئذ عن تمسك الأفراد بالصالح العام دون سواء روح عام تهدف دائما الى تحقيق هذا الصالح ، وهذه الروح العامة هي الارادة العام ، اذ ينتج حينئذ عن تمسك الأفراد بالصالح العام دون سواء روح

تريد أسمى صالح للدولة ، « انها أعم ارادة » . والارادة العامة هي « صوت الكل اذ يعبر عن صالح الكل) وهي أكبر الارادات عدلا ذلك ان كل عمل من الأعمال انما يتم نتيجة ارادة ولكن ارادة الانسان في صلاح الدولة وخيرها تعد من الناحية الأخلاقية أسمى ارادة .

والارادة العامة هي ارادة الأفراد في جملتهم ، فروسو قد قال بما سيقول به الفلاسفة الألمان والمدرسة الاجتماعية الفرنسية فيما بعد من أنه تتكون في كل جماعة روح عامة أو عقل جمعي يكون نتيجة لتفاعل عقولهم الفردية بحيث يتكون من هذا التفاعل عقل جديد يختلف عن عقول الأفراد أنفسهم أو هذا العقل الجمعي هو ما سماه روسو « الأنا أو الذات العامة » . والجسم السياسي أو الهيئة السياسية له أيضا من حيث هو كائن أخلاقي إرادته العامة التي تتركب من « خير ارادات الجميع » فهي ليست مجموع هذه الارادات وانما هي روح عامة تعبر عن الارادات الخيرة للأفراد فيما يخص الصالح العام . وهذه الارادة هي وحدها مصدر القانون وهي وحدها التي تمارس السلطان وتوجه قوى الدولة لأن اختلاف المصالح الخاصة هو الذي جعل من الضروري انشاء المجتمعات والانتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية .

وللارادة العامة السلطة المطلقة على جميع الأفراد ، ولا بد أن تكون ناتجة عنهم مباشرة لا عن ممثلهم فروسو لا يؤمن بالنقابات ولا بالجمعيات ولا بالمجالس النيابية لأن ارادات كل هذه الهيئات ارادات خاصة تقوم بالمناورات ضد بعضها بعض وضد الارادة العامة . فالأفراد يجب أن تكون علاقتهم بالدولة علاقة مباشرة ولا تكون بحال ما من خلال نقابات أو جمعيات أو مجالس أو هيئات . وهنا نجد موضوعا طال النقاش فيه بين علماء الاجتماع والسياسة وهو التساؤل عما اذا كان وجود هيئات متوسطة بين الدولة والأفراد يؤدي الى مزيد من ضمان الديمقراطية أو بالعكس يؤدي الى عرقلة الديمقراطية . روسو يرى في هذه الهيئات عائقا للارادة العامة عن الظهور بشكل واضح . ويرى جورفتش أستاذ الاجتماع أن في مثل هذه الهيئات أكبر ضمان لحرية الفرد بدليل أن الحكام الذين يتبعون سياسة الطغيان يعتمدون أولا الى حل مثل هذه الهيئات المتوسطة . أما ارمان كيفلييه الذي كان أستاذا بالسربون ، فيعتقد أن الهيئات المتوسطة التي كانت تنشأ في العصور القديمة على أساس الدم أو الأصل كانت حقا جمعيات تؤدي الى الطغيان أما جمعيات اليوم التي تنشأ بشكل حر طليق فهي من أهم وأكبر عوامل ضمان الديمقراطية .

ولقد بالغ روسو في مؤلفاته في تقديس الارادة العامة حتى كاد يؤلها لأنها صوت الشعب وصوت الشعب من صوت الله ، الى حد أن جعل منها

أحيانا « دينا ودنيا » ، تقابل الخارج عليها عقوبة الاعدام . ولكن للسلطان الذى تمارسه الارادة العامة حدودا يجب ألا يتعداها ، لأن كل فرد عندما تنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته وماله إنما كان يهدف الى توجيه كل ذلك للمصالح العام الذى يعد صالحه هو فى نفس الوقت ، وعلى ذلك فالهيئة الاجتماعية أو الشعب ، يجب أن توجه سلطاتها الى كل ما فيه مصلحة الشعب وكل ما يتمشى مع نصوص العقد الاجتماعى ، فاذا وجه السلطان الى غير ذلك لم يكن له سند مشروع من العقد الاجتماعى ، فالسلطان مثلا لا يستطيع أن يكسر مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص بين المواطنين لأن تحقيق المساواة من الأغراض العامة التى عقد العقد من أجل تحقيقها ، وكذلك الاعتداء على الحريات أو تقييدها بسبب لا يمت للمصالح العام بصلة . فالسلطان اذا خرج عن النصوص المتعارف عليها فى العقد الاجتماعى يكون حينئذ غير معبر عن الارادة العامة أو عن الهيئة الاجتماعية .

والارادة العامة هى المصدر الوحيد للقانون . ذلك ان العقد الاجتماعى قد أدى الى وجود الهيئة الاجتماعية وبذلك تنتهى مهمته وتبدأ مهمة التشريع الذى عليه أن يمنح الهيئة الاجتماعية الحركة ويعبر عن ارادتها . والقانون عبارة عن علاقة بين الشعب بوصفه صاحب السلطان وبين الشعب بوصفه خاضعا للسلطان فى مسألة عامة .

على ان المشرع - فى نظر روسو - قبل أن يقترح القوانين يجب عليه أن يلحظ حالة الشعب الذى يشرع له فهناك شعوب أقل من غيرها فى استعدادها لتقبل القوانين الجديدة . فالشعوب « الشائخة » التى رسخت فيها عادات وتقاليده تبلورت وجمدت مع الزمن أقل استعدادا لقبول تشريعات جديدة من غيرها . وأحسن مرحلة للتشريع هى المرحلة التى يكون فيها الشعب فتيا لم يمض وقت طويل بعد على تكونه . وعلى المشرع أن يمهد الشعب لتشريعاته كما يمهد المهندس الأرض ويختبرها ويقوى أجزاءها الضعيفة قبل أن يقيم البناء عليها كما يجب ان يلاحظ المشرعون أن ما يصلح لشعب قد لا يصلح لآخر فلكل شعب ظروف تجب مراعاتها .

كما يجب أن يوفر التشريع فى كل دولة الحرية والمساواة لأن أى استبعاد لفرد من أفراد الجماعة من شأنه أن يقلل من قوة الدولة التى تقوم قوتها على مجموع حريات الأفراد . والمساواة ضرورية لأن الحرية لا يمكن أن تتصور بدونها . ولكن ليس معنى المساواة أن يتساوى كل الأفراد فى مكانتهم الاجتماعية وثرواتهم ولكن المساواة تعنى المساواة فى الحقوق والالتزامات . على أن الثروة يجب أن تكون موزعة « بحيث لا يكون شخص من الغنى بحيث يستطيع شراء آخر ولا يكون شخص من الفقر

بحيث يلجأ لبيع نفسه ، . وعلى ذلك يعد روسو من أوائل المنادين بتضييق الفوارق بين الطبقات .

وأخيرا يقسم روسو في نهاية هذا الجزء القوانين الى ثلاث فئات :

١- قوانين سياسية : وهي التي تحدد علاقة الدولة من حيث هي هيئة ذات سيادة أو سلطان بالشعب في جملته من حيث هو مؤلف من مجموع الرعايا الخاضعين للسلطان ، وهي ما نسميها اليوم بالقوانين الدستورية أو القانون العام .

٢ - قوانين تحدد علاقة الأفراد بعضهم ببعض أو علاقة كل منهم بالدولة وهي القوانين المدنية .

٣ - قوانين تحدد علاقة الفرد بالقانون بحيث يعاقب عقابا محددا اذا خرج عليه وتلك هي القوانين الجنائية .

ولكن ثمة فئة رابعة أهم بكثير من هذه الفئات الثلاث ، وهي قوانين غير مكتوبة وان كانت منقوشة في صدور الأفراد ويجب مراعاتها وتلك هي العادات والتقاليد والأعراف المستقرة .

ولا يعالج روسو من هذه الفئات الا الفئة الاولى وهي القوانين السياسية التي يجعل منها موضوع الجزئين الثالث والرابع من كتاب العقد .



الجزء الثالث

فى الحكومة

والحكومة هى هيئة متوسطة بين الرعايا والسلطان لكى تتولى تنفيذ القوانين وصيانة الحريات المدنية . وهى هيئة لا سلطان لها اذ السلطان الوحيد فى المجتمع للشعب وهى مفوضة لتنفيذ القوانين التى تسنها الدولة ولها أن تتخذ «مراسيم» وهى فى سبيل تنفيذ القوانين . غير اننا نستطيع أن نجد صوراً مختلفة للحكومات تختلف من بلد لآخر ، فالسلطان يمكن أن يفوض الشعب كله أو الجزء الأكبر منه فى القيام بمهمة الحكم «التنفيذ» وهذه الصورة هى ما نسميه باسم الديمقراطية ، أو يفوض عددا صغيرا من المواطنين بالقيام بهذه المهمة وتلك هى الحكومة الارستقراطية ، أو يركز الحكم فى يد شخص واحد ، وتلك هى الحكومة الملكية . وثمة أشكال أخرى مختلفة ومركبة من هذه الأشكال السابقة ، ولا شك أن أفضل هذه الأنواع هى الحكومة الديمقراطية ، ولكن الديمقراطية بمعناها الكامل لا يمكن أن تتحقق فى العالم الانسانى . أما الأنواع الأخرى من الحكومات فقد تفسد وتتحول الى الطغیان ، ولكن لما كان السلطان دائما من الشعب والسيادة له ، ولما كانت الحكومة ليست الا « عميلا » للشعب أو مفوضة منه فان هذا الطغیان لا أساس له من العقد الاجتماعى ولا من القانون . على أنه يجب أن نؤكد هنا - فيما يرى روسو - أن شكلا معيناً من أشكال الحكم لا يمكن أن يصلح لكل بلد فى كل زمان ومكان ، فالظروف قد تجعل شكلا معيناً أكثر ملاءمة من الأشكال الأخرى .

والوسيلة الوحيدة التى تدلنا على أن نوع الحكم ملائم أو غير ملائم هو الرخاء العام . ولكن عند أية حكومة استعداد دائم نحو الفساد وتغليب المصالح الخاصة لأفرادها على المصالح العامة ومن ثم فالفساد محتمل باستمرار . وما دامت المصالح الخاصة قد غلبت على المصالح العامة فمعنى هذا أن أساس الهيئة السياسية نفسه قد انهار وبالتالي تنهار الدولة . ولكيلا تصل الأمور بالدولة الى هذا الحد يجب أن يكثر الشعب من اجتماعاته ومن مناقشته للأعمال الحكومية ويجب أن يسهر على صيانة القوانين

ولا يستنيم للحكومة ، كما يجب على كل شخص أن يهتم بشئون الحكم في مجتمعه وألا يقف منها موقفا سلبيا . ان الدولة التي يقول كل شخص فيها لنفسه « ليس لي شأن بالحكم ورجاله » لا شك مآلها الى الزوال والاختفاء . يجب اذن ألا يدع الشعب للحكومة أية فرصة للفساد والتحول عن الاختصاصات المخولة لها فذلك هو الشرط الأساسي لاستمرار الحكم السليم . ويجب هنا أن نبين الزعم الذي أتى على لسان بعض المفكرين من أن الحكومة نظام قائم على عقد أبرم بين الشعب وبينها ، اذ لا يوجد الا عقد واحد وميثاق واحد وهو الميثاق الذي عقده الشعب مع نفسه للانتقال من حالة الطبيعة الى الحالة الاجتماعية ، ووفق هذا العقد لا يستطيع الشعب أن يتنازل عن سيادته أو سلطاته لأية هيئة . وعلى ذلك فلا يمكن أن يوجد مثل هذا العقد بين الحكومة والشعب ، بل الحكومة مجرد هيئة مفوضة من الشعب للقيام بنوع خاص من الأعمال وهي أعمال التنفيذ ويظل الشعب محتفظا بالتشريع . فتكون الحكومة أو تفويضها انما يتم وفق قانون يصدر عن الإرادة العامة ، وليس من عقد ، وأعضاؤها اذن ليسوا سادة للشعب ، بل هم مجرد موظفين يعملون في خدمة الشعب . ولما كان أساس الحكومة قانونا يصدر عن الشعب فان أية حكومة تكون مؤقتة يستطيع الشعب أن يغيرها ، سواء بتغيير أعضائها أو بتغيير شكلها في أي وقت يراه مناسبا . وهنا نصل الى الجزء الرابع والأخير .

الجزء الرابع

فى ادارة شئون المدينة

ان الحكم السليم يستند دائما كما قلنا على الارادة العامة التى لا تقوم الا على الصالح العام ، وهى من هذه الوجهة معصومة من الخطأ بمعنى ان الارادة العامة لا يمكن ، وبمحال من الأحوال ، أن تتجه الا الى الصالح العام ، ولكن ليس معنى هذا انها لا يقرر بها أحيانا ويصور لها الصالح الخاص على انه صالح عام فتتجه اليه عن غير تبصر . ولكن تربية الأفراد كفيلة بتكوين ارادات عامة لا يمكن التغرير بها أو ايقاعها فى الغش . ولكيلا تقع الارادة العامة فى الخطأ الذى يصور لها النفع الخاص على أنه عام يجب أن تكون قراراتها « قوانينها » قليلة العدد ، كما يجب ألا تكون القرارات الا فى المسائل البسيطة الواضحة . فالدولة المثالية عند روسو هى التى لا تحتاج الا لعدد ضئيل من القوانين الضرورية لحياتها .

ولكن كيف السبيل الى معرفة الارادة العامة ؟ السبيل الوحيد - فى نظر روسو - هو أن يبدى المواطنون رأيهم فى كل مسألة فى استفتاء حر ، والعقد الاجتماعى هو الحدث الوحيد الذى كان يتطلب الاجماع ، أما القوانين فلا تتطلب فى تقريرها وحتى الارادة العامة الا الاغلبية المطلقة ، اذ يجب فى هذه الحالة أن تخضع الأقلية لارادة الأغلبية .

أما عن تعيين أعضاء الحكومة فهو يتم فى الدول المختلفة بصورتين :

١ - القرعة .

٢ - الاختيار أو الانتخاب .

ونستطيع فيما يرى روسو أن نجمع الطريقتين وذلك باللجوء الى طريقة الانتخاب فى الوظائف التى تحتاج الى مهارة خاصة كالوظائف العسكرية ، وإلى طريقة القرعة فى الوظائف التى لا تحتاج الا الى ذوق سليم ونزاهة وعدل .

ويختتم روسو هذا الجزء من مؤلفه بالحديث عن الدين وعلاقته بالدولة والمجتمع ويبين كيف أن الشعوب القديمة كانت تعد الآلهة ملوكا لها ، فالملك اله والاله ملك وكان نظام الحكم يعتمد على الدين ، وكان لكل دولة دينها وآلهتها بحيث لم يكن من حق اله فى مجتمع أن يعتدى على اله آخر فى مجتمع آخر ، فالآلهة مستقلة بعضها على بعض استقلال المجتمعات التى تدين لها ، والحروب السياسية التى كانت تقوم بين الدول كانت أيضا حروبا دينية وكانت السياسة والدين شيئا واحدا . . الى أن أتت بعد ذلك الأديان الكبرى .

وينادى روسو بضرورة تكوين دين مدنى يقوم على تقديس العقد الاجتماعى والارادة العامة . لابد من وجود دين مدنى يجعل المواطنين يحبون وطنهم ويقدمونه ويتفانون فى القيام بواجباتهم والتزاماتهم نحوه . مثل هذا الدين الاجتماعى أو المدنى سيكون مسيطرًا على الأفراد بحيث يحملهم على التمسك بالقوانين التى هم مؤلفوها . ويطرد من رحمته كل خارج عليها .

العقد الاجتماعى والفكر الانسانى

تلك هى الأفكار الرئيسية التى يعالجها روسو فى كتاب العقد الاجتماعى ، فما هو موقف العلماء منها وكيف أثرت تلك الأفكار فى الفكر الانسانى ؟

يندر أن تجد فى تاريخ الفكر الفلسفى والاجتماعى والسياسى مفكرا وقف منه العلماء مواقف متناقضة كروسو . يقول عنه « بنجامن كنتستان » انه « أبشع حليف للطغسيان فى شتى صوره » . ويقول ديجوى استاذ القانون العام المشهور « ان روسو يعد أبا للطغسيان اليعقوبى والتحكم القيصرى والموحى بمبادئ الحكم المطلق التى عبر عنها كانت وهيغل » . ولقد وصف كثير من المؤلفين روسو بأنه كان فرديا فى مذهبه الى جانب كونه طغيانيا فيقول عنه « كوبان » ان فكرة التقدم من الأفكار التى لا يمكن أن نعزوها لروسو ، بينما يذهب « هارولد لاسكى » (٩) الى رأى مخالف لرأى كوبان على خط مستقيم ، اذ يقول « ان روسو كان يؤمن فى حماس بفكرة التقدم » ويعتقد « لامنى » ان مؤلفات روسو كانت اعلانا صارخا « لحرب ضد المجتمع وضد الله » ويعتقد « لانسون » ان روسو لم يكن فرديا فى مذهبه بل انه انتهى الى نوع من اشتراكية الدولة يخضع الفرد فيه لسلطة المجموع الذى وهب له نفسه الى الأبد ، ويضيف الى ذلك أن روسو قد ترك طابعا قوميا وأصيلا فى السياسة والتربية وانه يقف على

رأس الطريق الموصلة لكل ما يتمتع به العالم الحديث من نظم ديمقراطية سياسية . ويعتقد « برجسون » ان فلسفة روسو تعد أقوى مؤثر في العقلية الانسانية في العصر الحديث .

وهكذا انقسمت آراء العلماء وتشعبت ، بعضهم يعده تقديميا وبعضهم الآخر يعده أبعد ما يكون عن التقدم ، بعضهم يعتقد أنه حليف الطغيان وبعضهم الآخر يعده على رأس المنادين بالنظم الديمقراطية الحديثة ، بعضهم يعده فرديا وبعضهم الآخر يعده اشتراكيا .

ولكن مهما اختلف العلماء في تقديرهم لروسو فانه يعد من أكبر دعاة العصر الحديث الى الحرية وتخليص المجتمعات من شبح الطغيان السياسي الذي عانى منه شخصيا ومواطنوه كثيرا . اذ يقول في هذا الصدد في قصة « الوز الجديدة » : « ان الانسان مخلوق بلغ من النبل حدا يجعل من الصعب استخدامه كأداة لغيره ، كما يجعل من العسير استخدامه لما يفيد الآخرين ما لم يكن في هذا فائدته هو أيضا » . ولا يمكن أن نتصور أن يكون روسو داعية للطغيان في الوقت الذي كان فيه هو نفسه يقاسى من الطغيان ، وقد يكفي دليلا على حسن نيته أن الطبعة الأولى من العقد الاجتماعي صدرت وعليها صورة تين هوبس بلا رأس إشارة الى أن روسو انما اراد بهذا الكتاب أن يقطع رأس الطغيان الذي كان تين أو لويثان هوبس رمزا له .

ثم مما يثبت أيضا حسن نية روسو حملته على نظام الرق واثباته بالبراهين القانونية انه نظام غير مشروع مهما كانت المصادر المؤدية اليه بما في ذلك الحرب ذاتها ، وإيمانه التام بأن السلطان والسيادة دائما للشعب وان من حق الشعب أن يثور على السلطان الباغى .

واذا نحن بحثنا في مبادئ الثورة الفرنسية وهي الحرية والاخوة والمساواة لوجدناها كلها بارزة في العقد الاجتماعي ، ولا غرابة في ذلك فان روسو كان من مؤلفي القرن الثامن عشر الذين أدت مؤلفاتهم الى الهاب الحماس واشعال الثورة ، ان لم يكن على رأسهم جميعا .

وقد قال نابليون : « لولا روسو ما حدثت الثورة الفرنسية ! » .

هوامش

- (١) رومان رولان : (١٨٦٦ - ١٩٤٤) مؤلف فرنسى نال جائزة نوبل للأداب سنة ١٩٥٥ .
- (٢) كوتفوشيوس : انظر الباب الاول من الجزء الاول من هذا الكتاب .
- (٣) جمهورية افلاطون : انظر الباب الثانى من الجزء الاول من هذا الكتاب .
- (٤) سنيكا : اوقتيوس اناوس سنيكا (٣ ق م - ٦٥ م) شاعر وفيلسوف وخطيب روماني من الرواقيين . اشرف على تربية الامبراطور نيرون . كتب فى الاخلاق والفلسفة .
- (٥) كارليل : توماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١ م) كاتب ومؤرخ انجليزى بحث فى الادب والفلسفة الالمانية . له مؤلف ضخم عن الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٧ . كان من أبرز شخصيات عصره وتأثر به الكثيرون .
- (٦) روح القوانين : انظر الباب التاسع من الجزء الاول من هذا الكتاب .
- (٧) هوبس : توماس هوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) فيلسوف انجليزى . أخذ بالمذهب المادى ورفض المتيازات التأميلية . وكان من أنصار المذهب الذرى .
- (٨) جروسيوس : هوجو جروسيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥) فقيه هولندى ألف (فى قانون الحرب والسلام) الذى يعتبر أول نص يحدد القانون الدولى .
- (٩) لاسكى : هارولد لاسكى (١٨٩٣ - ١٩٥٠) مفكر انجليزى اشتراكى - أول المفكرين الأوربيين الذين أشاروا الى أهمية الادارة المحلية واللامركزية والديمقراطية الصناعية . من مؤلفاته (تأملات فى ثورة العصر) .

فص التربيعة الجمالية للإنسان

فوحريش شيلو

١٨٣٧ م

فى بدء حديثنا عن نظرية التربية الجمالية للانسان لشاعر الحرية
= وبطل الأدب الألماني فردريش شيلر ، يمكننا أولا أن نوجز نظريته
الجمالية فيما يلى :

هناك انفصال ملحوظ بين عالم الحرية وعالم الضرورة ، يلاحظ فى
سلوك الفرد ، كما يلاحظ فى انحراف المجتمعات • ولن يستطيع الانسان
أن يشعر بالرابطة بينهما الا بعد رجوع الى مثل مشخص يؤكد امكان قيام
هذه الرابطة • والعمل الفنى ، بوصفه شكلا حيا ، يلتقى فيه الشكل
بالمادة ، وعالم الحرية بعالم الضرورة ، هو أعظم دليل يعيد ثقة الناس فى
عدم انفصال هذين العالمين • فاذا استطعنا تنبيه الناس الى قيمة الفن
ورسالته الميتافيزيقية العليا ، المختلفة عن تصوراتهم الحسية له ، أمكن
بلوغهم مرحلة عقلية أخلاقية عليا • وهذا لا يعنى خضوع الفن لآى توجيه
تربوى أو أخلاقى ، كما يفهم أحيانا فى بعض النظريات ، فمن الواجب
توفر الحرية فى الفن • فبغيرها لن يحقق رسالته فى صورة صحيحة •

والنظرية تتعرض الى كثير من اساءة الفهم ، بسبب عدم تحديد
مصطلحات محددة من ناحية ، وبسبب استخدام مصطلحات تحتل
تفسيرات وتأويلات متعددة والتي جعل لها معنى فلسفيا مثاليا مختلفا عن
معانيها المعتادة ، وعن المعانى التى شاعت بعد ذلك فى نظريات مادية
مثل نظريات داروين (١) وسبنسر (٢) •

فالنظريات التى تجعل الفن مجرد مرحلة من مراحل الروح ، قد
تثير تشككنا فى مدى تقدير الفيلسوف للفن ، فهل كان الفن عند شيلر
مجرد مرحلة متوسطة بين المرحلتين الطبيعية والأخلاقية ، أى انه كان
على حد قول كروتشه (٣) مجرد « فترة انتظار » تقضى فى هدوء وتأمل
حتى يتم بلوغ المرحلة الأخلاقية الأخرى • لا شك ان هذا التفسير يتعارض
كثيرا مع كل عبارات التقدير والاعجاب التى امتلأت بها مقالات شيلر
ومؤلفاته •

حياة قصيرة وعميقة !

ان حياة شيلر تتميز مثل مواهبه بخصبها وعمقها ووفرة متناقضاتها . اذ كان طبيبا وضابطا وشاعرا ومؤرخا وصحفيًا وفيلسوفًا ! ، كما انه ذاق مرارة الفقر والحرمان ، وعانى الأمرين من طغيان دوق اقطاى من أقسى الطغاة من الذين عرفتهم ألمانيا قبل وحدتها . والى جانب هذا ، فانه قد حظى بتقدير بلاده ومفكريها بوصفه مؤلفا لمجموعة هامة من المسرحيات ، قد كان لها اثر عظيم على الفكر العالمى ، لا يقل عن اثر سوفوكليس أو شكسبير .

فقد ولد كريستوف فردريش شيلر فى قرية مارباخ من أعمال دوقية فيرتمبرج فى ألمانيا فى ١٠ نوفمبر سنة ١٧٥٩ . وهو ينتمى الى أسرة صوابية عريقة . وكان والده يعمل جراحا فى آلاى فرساي بافاريا ، وظل طول حياته مخلصا لدوق فيرتمبرج وجيشه .

ويقال ان شيلر كان يحب الوحدة منذ طفولته ، ولهذا كره القيود المدرسية ، وأحب الانطلاق فى الجبال والغابات ، وكثيرا ما سأل أمه فى طفولته عدة أسئلة تدل على حيرة ميتافيزيقية ولهفة الى معرفة سر الوجود :

وقبل بلوغه العاشرة من عمره ، نقل أبوه الى آلاى مرابط بمدينة لودفيجسبورج ، حيث كان يقيم الدوق كارل أويجن - دوق فيرتمبرج - الذى اشتهر بغطرسته .

واتجهت نية والده منذ طفولته الى إلحاقه بخدمة الكنيسة ، ولهذا التحق بأحدى مدارس اللغة اللاتينية فى لودفيجسبورج ، تمهيدا لإرساله الى إحدى كليات اللاهوت . وهناك أظهر نبوغا وميلا الى تذوق الشعر اللاتينى . وبعد انتهاء دراسته بالمدرسة اللاتينية ، لم يستطع متابعة الدراسة وفقا للمنهاج الذى رسمه له والده ، ذلك لأن دوق فيرتمبرج اختاره للالتحاق بمدرسة خربية أنشأها فى دوقيته ، فخضع والده صاغرا

لرغبة الدوق ، وكتب الاقرار المألوف في مثل هذه الأحوال ، بعدم ترك ابنه خدمة الدوق طول حياته .

وكان شيلر في الثالثة عشرة من عمره ، عندما أصبح طالبا في المدرسة الحربية . وظل بها ثمانى سنوات . وفى هذه المدرسة ، ينقسم الطلبة الى طائفتين : طائفة متميزة وتدعى "Chevalier"

وأخرى عادية وتسمى "eleves" ، « والشفاليه » ميزون فى طريقة أكلهم ونومهم ، اذ كانوا ينامون على أسرة خاصة ، وياكلون على مائدة على شكل حدوة الفرس ، ويباح للمتفوقين منهم تقبيل يد الدوق . أما « الليف » ومن بينهم شيلر ، فعليهم أن يقنعوا بمنزلتهم الوضيعة ، وفى المناسبات السعيدة ، يباح لهم تقبيل ذيل معطف الدوق ، بدلا من يده !

وتعلم شيلر فى المدرسة الحربية اللغات : اليونانية واللاتينية والفرنسية ، والرياضيات والجغرافيا والتاريخ ، ودرس القانون ، ولكنه لم يبد شغفا به . ونقلت المدرسة الحربية بعد ذلك الى شتوتجارت ، وأنشئ بها قسم خاص بالدراسات الطبية . وطلب شيلر الالتحاق بهذا القسم بسبب كراهيته للقانون ، وتضمن منهج دراسته دروسا فى علم النفس والأخلاق وعلم الجمال . وكثيرا ما كان الأستاذ « أبل » أستاذ علم النفس يستشهد أثناء محاضراته بأمثلة من الأدب . ولعل شيلر قد رضى بالبقاء فى هذه المدرسة ، من أجل تمتعه باللحظات القليلة التى كان يستمتع فيها الى مثل هذه الأمثلة الأدبية الضئيلة .

وكان موضوع البحث فى الامتحان النهائى هو : « الفلسفة والفسولوجيا » . ولم يرض المتحنون عنه ، واضطر للبقاء سنة أخرى ، أمضاها فى أسوأ حال . وفى امتحان التخرج ، تقدم ببحثين أحدهما باللاتينية ، والآخر بالألمانية عن « الصلة بين طبيعة الانسان الحيوانية وطبيعته الروحية » . وأقر المتحنون نشر هذا البحث . وتخرج شيلر من المدرسة الحربية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٧٨٠ م .

وعين طبيبا لآلاى مدفعية مرابط بشتوتجارت ، وكان يحمل لقبا متواضعا هو « فيلد شيرر » ولكنه كره عمله ، ولم يتصف بالمهارة فى أدائه . ولهذا كثيرا ما احتدمت الخلافات بينه وبين رؤسائه . وأقبل فى نهم على القراءة فى الأدب ، بعد ان كانت محرمة عليه طوال مدة دراسته ، كما قام بكتابه أول مسرحية مشهورة له وهى « اللصوص » .

ولكن دوق فيرتمبرج غضب من اشتغاله بالكتابة المسرحية .
ومن مغادرته مقر عمله الى مانهايم ، بغير معرفته . ولهذا أمر بحجزه في
البحر مدة أربعة عشر يوما ، كما أصدر كذلك أمرا بمنعه من الاشتغال
بالكتابة . وصمم شيلر على عدم الاذعان للدوق ، الذي اشتهر بالقسوة
والعطرسية . وهرب من شتوتجارت الى مانهايم . وحاول الدوق تعقبه ،
وطالب المسئولين في مانهايم بتسليمه . ومنذ ذلك الوقت ، بدأت متاعب
شيلر ، أو بدأت حياته الحقبة بمعنى أصبح . فقد تعرض للجوع والحرمان
والتشرد ، بعد أن فقد وظيفته الصغيرة ، وبعد أن اضطر الى الافتراق عن
والديه . وازدادت أحواله سوءا بسبب ترفعه وإبائه ، ونفوره من كل
فعل يحط من كرامته ، أو يدل على تراجع عن مصيره الذي اختاره
لنفسه .

وازداد اضطراب شيلر ، وكثرت تنقلاته بين المدن الألمانية الكثيرة
بحثا عن أى عمل يتلاءم مع مواهبه الأدبية . ولم يشعر بأى اطمئنان
الا بعد أن قابل « كيرنر » الذي كان يعمل مستشارا للبلاط في درسدن ،
ومن المولعين بالفلسفة والموسيقى والأدب والتاريخ ، ومن أفضل الملمين
بفلسفة ك. ط. بوجه خاص . وتأثر شيلر بثقافته تأثرا ملحوظا ، وظهرت
آثار ذلك في كتابه « رسائل فلسفية » وفي اقدامه على اتمام روايته
المشهورة « دون كارلوس » .

وان يهمننا بعد ذلك من حياة شيلر الا الفترة التي أمضاها في كل
من « فيمار » و « يينا » . فقد كانت فيمار كعبة الفكر والأدب في تلك
الأيام . ومن الواجب ارجاع الفضل في ذلك الى دوق فيمار ، وثقافته
الرفيعة ، وتشجيعه للأدباء والمفكرين .

فعندها وصل شيلر الى فيمار في يوليو سنة ١٧٨٧ ساعده أصدقاؤه
على الحصول على وظيفة ثابتة ، مدرسا للتاريخ في جامعة « يينا » . وفي
يينا قابل أصدقاء عديدين من المشتغلين بالفلسفة والفكر من أمثال
جوته (٤) وهمبولت وفيشته (٥) الذي كان قد عين أستاذا للميتافيزيقا
خلفا للفيلسوف راينهولت .

وتوطدت الصلة بينه وبين جوته في فترة اقامته في يينا ، وخاصة
بعد سنة ١٧٩٤ . وكثيرا ما أمضى جوته أياما طويلة معه عند زيارته الى
يينا ، وكثيرا ما تبادلوا الرأي في مختلف الموضوعات . واعترف جوته
بأن شيلر هو صاحب الفضل في اعادته الى كتابة الشعر بعد انقطاعه
عنه ، واتجاهه الى العلم ، وأنه أعاده الى الشباب ثانية . واشتركا معا في

كتابه « ابيجرامات » التي تميزت بشدة سخريتها . وفي هذه الفترة وهن اهتمام شيلر بالفلسفة والميتافيزيقا ، وازدادت عنايته بالشعر . وقد يعزى هذا التغير الى أثر جوته ، لأنه كان يرى الشعر فى منزلة أسمى من الفلسفة . ففيه على حد قوله كل شىء يبدو فى صورة حقيقية حية بهيجة متوافقه ، بعكس الفلسفة التى تظهر الأشياء جامده مجردة مصطنعة . وفى الشعر ، تبدو الحياة فى صورة متألّفة ، أما الفلسفة فانها تظهرها مليئة بالنقائض والمتناقضات . وعلى هذا يصح فى نظر جوته اعتبار الشاعر وحده هو الانسان بمعنى الكلمة !

والجدير بالذكر أن شيلر توفى يوم ٩ مايو سنة ١٨٠٥ ، فى الخامسة والأربعين من عمره .

هذه خلاصة مركزة لحياة شيلر القصيرة والعميقة ، ولا يختلف المؤرخون كثيرا فى اشاداتهم بدوره وبلور جوته فى خلق أدب المانى عالمى . فلم تعرف أكثر المحاولات الأدبية السابقة لهما خارج ألمانيا الا فيما ندر . ولا يختلف المؤرخون كذلك فى الثناء على شيلر ، وتشامخه واعتزازه بذاته ، وعدم استسلامه لليأس أو القنوط ، لأنه لم يكن متشائما ، اذ اعتقد فى وجود قوة فى الانسان تساعد على التسامى والتحليق بعيدا عن أوصاب الحياة .

فلسفة شيلر .. بين التصور والتأمل !

بقى بعد ذلك تناولنا لفلسفة شيلر ، وفلسفته الجمالية بوجه خاص ، وقد أدرك شيلر نفسه مدى اختلافه عن الفلاسفة الذين تقتصر مهمتهم على التأمل البحت . ولهذا قال فى رسالة الى فيشته : « اننى لا أود توضيح اعداى الى الآخرين فحسب ، بل أود أن أقدم لهم روحى بأسرها ، كما أحاول التأثير فى أحاسيسهم بالاضافة الى عقولهم » . وأدرك أحيانا صعوبات الجمع بين خصائص الشاعر وخصائص الفيلسوف ، وقال : « فى الوقت الذى يطرح فيه الفيلسوف خياله جانبا ، وفى الوقت الذى لا يعنى فيه الشاعر بالتجريد ، فأننى أرى نفسى مرغما ، عندما أعمل شاعرا وفيلسوبا فى نفس الوقت على الاحتفاظ بالقدرتين (الخيال والتجريد) . ولن أستطيع المحافظة على تجانس القدرتين ، الا اعتمادا على جهد فكرى باطنى مستمر » . وفى أحيان أخرى أظهر تشككا فى فلسفته الفريدة بعد امتزاجها بروح شاعريته ، مما أدى الى انكار البعض انتماءها الى الفلسفة أو الشعر معا . ولهذا أرسل الى جوته يقول : « ان عقلى يعمل وفقا لطريقة رمزية ، فأنا أرفرف مثل الطيور الهجينة ، وأحار بين التصور والتأمل ، وبين المنطق والشعور ، والاعتماد على الفهم والقريحة الخلاقة ، هذه الحالة هى التى جعلت أفكارى وأشعارى ، وخاصة فى مستهل حياتى ، تبدو فى صورة حمقاء بعض الشيء » . فقد كان جانبي الشعرى يطنى ، عندما كان الواجب ان أتفلسف ، كما أن روحى الفلسفية كانت تتحكم عندما أود قول الشعر . وحتى الآن ، كثيرا ما يتدخل الخيال فى تفكيرى المجرد ، كما يقتحم الفهم - فى برود - أشعارى ، .

ولكننا فى الحقيقة ، وبعد قراءة بعض كتابات شيلر الفلسفية ، قد نرى انه ظلم نفسه كثيرا بهذا التحليل . فلا يصح انكار أهمية أكثر أفكاره الفلسفية ، فى علم الجمال بوجه خاص ، وقد أشار بذلك كثيرون، فى مقدمتهم هيجل وشلنج (٦) ، وان كان بعض الأدباء لم يرضوا عن تجربة الجمع بين الشعر والفلسفة .

هذا يدلنا على أن تجربة الجمع بين الشعر والفلسفة لا تلقى تأييداً على الدوام . ولكن الرسائل التي سوف نعرضها في هذا الفصل من الكتاب « في التربية الجمالية للإنسان » قد استطاعت إثبات أهميتها الفلسفية . إذ ندر ظهور مؤلف في علم الاستطيقا (٧) ، لم يعن بعرضها، والتنويه بقيمتها . ولا بد من ارجاع ذلك الى معرفة شيلر العميقة بفلسفة معاصريه . فقد قرأ فلسفات بعضهم مثل كانط ، وقابل البعض الآخر مراراً في « بينا » من أمثال راينهولت ، وفيشته وهومبولت ، والى جانب هذا ، فقد عرف الفلاسفة اليونانيين ، وقرأ أكثر مؤلفاتهم باللغة اليونانية نفسها . وهذا يعنى انه لم يكن مجرد مردد لفلسفة كانط ، ففي فلسفة الجمال بوجه خاص ، استطاع تعمق عدة موضوعات لم يطرقها كانط ، وخاصة في رسائله : « عن الشعر في صورته الفطرية ، وفي صورته العاطفية » . ففيه مقارنة فلسفية بين اتجاه اليونانيين الطبيعي ، والاتجاه الحديث المثالي . ولم يصف من أعقبوه من فلاسفة تاريخ الفن ، من أمثال شليجل (٨) وشلنج شيئاً ذا قيمة الى فكرته .

نظرية شيلر :

الجمال ومهمته في تحقيق التوافق النفسي

من البدء ، ينبغي التنويه بأن دراستنا هذه ستتركز على كتاب فلسفي من كتب شيلر . وهذا يعني اننا لن نتناول الا في صورة عرضية عابرة جوانبه الأدبية المتعددة ، التي تمثلت في شاعريته الفذة ، باعتباره من أعظم ممثلي الأدب الألماني الحديث ، كما تمثلت في دوره الكبير في التمهيد للحركة الرومانتيكية بألمانيا .

ولرسائله قصة طريفة ينبغي ذكرها ، قبل البدء في تلخيصها اذ هي تدل على مدى ترفع شيلر ، وعدم تقبله أية هبة أو منحة بغير مقابل . فيقال ان الكاتب الدنماركي « ينس باجيسين » قد أعجب بها أيما إعجاب . فلما عاد الى وطنه تحدث عنه مليا الى أمير أوجستنبرج ، والى وزيره الكونت فون شيملمان . وسرعان ما تأثر الأمير والوزير بهذا الثناء . فلما عرف الأمير بعد ذلك بحالة الضنك التي يحياها شيلر وبتوجهه من آلام المرض (١٧٩١) . رأى ارسال منحة تقدر بثلاثة آلاف تالر الى شيلر ، على أن يدفع ألف تالر اليه سنويا .

وقد قبل شيلر هذه المنحة ، ولكنه رأى أن يهدي الأمير مجموعة من الرسائل الفلسفية اعترافا بفضله ومآثره ، وكما تلقى المنحة على ثلاث دفعات ، فانه قد نظم رسائله في ثلاث مجموعات أيضا ، كتبها في سنتي ١٧٩٣ ، ١٧٩٤ م .

وتتألف المجموعة الأولى من تسع رسائل ، وتدور حول فكرة تحويل الدولة من صورتها الخاضعة للطبيعة الى صورة مثالية ، مع بيان العوائق التي تحول دون انجاز ذلك .

أما المجموعة الثانية ، فتتألف من سبع وسائل ، تتضمن تحليلا لمعنى الجمال .

ثم تجيء آخر مجموعة وهي مؤلفة من احدى عشرة رسالة ،
موضوعها : مهمة الفن .

وترتكز نظرية شيلر على افتراض أن الانسان يتبع عالمين ،
وأنة مرغم على اتباع طريقين متعارضين في نفس الوقت ، كما انه مطالب
بتلبية مطالب كلا الطرفين ، الى جانب ضرورة التوفيق بين ما يظهر من
تعارض بينهما . وتتحقق هذه الغاية بوساطة العنصر الجمالى
(الاستطائقي) الذى يوحّد بين المادة والشكل ، وبين ما هو حسي ،
وما هو عقلي ، ولن يصبح الانسان حرا ، الا بعد تحقيق هذا التوافق .
فلا يصح اعتباره حرا ، مادام يتبع أى حافز من هذين الحافزين .

ولم ير شيلر الجمال وسيلة لتحقيق التوافق النفسى فى الانسان
فحسب ، اذ هو قد رآه كذلك الوسيلة الوحيدة لتخليص المجتمع من
شروعه . فقد شكّا فى رسالته الثانية من احداث عصره ، وخضوعها
المطلق للضرورة ونجاحها فى اخضاع كل ما هو انساني وروحى لمشيئتها .
فقد أصبحت المنفعة صنم العصر الأكبر ، ومن واجب الجميع الانحناء لهذا
الصنم . وعلان ولانهم له . وفى مثل هذه الحالة ، لم تعد لقيمة الفن
الروحية أى اعتبار . ولقد نجحت الأبحاث الفلسفية المجردة من كل روح
فى القضاء على الخيال الانساني ، وترتب على ذلك انكماش رقعة الفن ،
فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه سيطرة العلم وهيمنته . ورأى شيلر
أن مساوىء عصره السياسية لن تحل الا بوساطة العناية بالجمال ،
لأن الاهتمام بالجمال وحده هو الذى سيجيء بالحرية . .

ويوضح شيلر رأيه هذا ، الذى قد يبدو غريبا لأول وهلة بقوله :
« ان الطبيعة هى التى تسير الانسان ، اذا رآته عاجزا عن استخدام
حريته وروحه ، ولكن الانسان قد لايرضى عن الاستسلام للطبيعة ، ويحاول
بعقله اكتشاف أمرها ، ويترتب على ذلك نجاحه فى ابداع شىء من اختياره
عوضا عن المعطيات الطبيعية . وبذا يستيقظ الانسان من سباته المترقب
على خضوعه للحس ، ويعرف نفسه وروحه . وينتهى شعوره السلبي
تجاه الدولة ، وتجاه ما ظنه قوانينها الطبيعية . والضرورات التى فرضتها
عليه . وأول ما يذكره بهذه الحرية هو الفن » .

على أن الخلاص من هيمنة الدولة وسيطرتها ليس مسألة هينة ،
كما يبدو من الكلمات السابق ذكرها . اذ أن هيمنة الدولة والطبيعة
قد ارتبطت بسيطرة العلوم الخاضعة للضرورة . وما فيها من ابتعاد عن
كل ما هو روحى . وتمزيق لما له وحدة أصلية . وتزيد الأمور تعقيدا

بفعل السيطرة الحكومية وجهازها المصطنع . ومن ثم أصبح التحرر من
الضرورة أمراً شاقاً . فالدولة بمعنى الزمن لم تعد بحاجة إلا إلى النزر
اليسير من قدراتنا ، كما أنها قد أصبحت تشعر بعداء نحو كل من يحاول
التحرر ، أو الإفلات من الدور المحدد الذي قرره له . والعلم كذلك في
أساليبه التحليلية ، وشدة التصاقه بالطبيعة والواقع ، قد أضعف من
خصب الخيال وحرية ، كما غدا الحس سيد الموقف ، وأصبح المنهج
التجريبي لا يحرص على شيء سوى التركيز على التجربة والتزام حدودها ،
وتمخض ذلك عن قمع الخيال وخضوعه لنظام آلي رتيب ، وتوقفه عن
الانطلاق بحرية تساعد على تأكيد وجوده . وإذا كانت الأجسام في حاجة
إلى ممارسة تدريبات بدنية مختلفة ، تقوم فيها بتحريك أعضائها بحرية ،
فلا جدال أن الملكات الانسانية بالمثل في حاجة هي الأخرى إلى تدريبات ،
ويترتب على استخدام هذه المواهب بحرية ظهور الفن .

وشيلر هنا يعنى الفن بمعناه الروحي العميق ، اذ هو لا يعنى الفن
الجزئى الخاضع لضرورات الطبيعة أو الذى أصابه داء العصر ، أو الذى
أصبح مماثلاً للعلم فى شدة خضوعه للقوانين والقواعد والأصول .

ولكن كيف يستطيع الفنان أن يؤمن نفسه ضد مساوئ عصره التى
تحيط به من كل ناحية ؟ وهل يقصد شيلر عدم الاعتراف بالواقع
أو تجاوزه ؟

إن شيلر لم يلجأ إلى مثل هذا الحل . اذ رأى من واجب الفنان
السعى نحو الجمع بين الممكن والضرورى .

فنحن لا نستطيع انكار وجود مطلبين متعارضين عند الانسان .
المطلب الأول يدعو إلى ضرورة الخضوع للواقع والضرورات المادية ، أى أن
يصبح الانسان جزءاً من العالم أو الواقع . فإذا أراد الانسان ألا يصبح
جزءاً فى هذا العالم ، فعليه أن يبتدع شيئاً ، أى يصنع شكلاً متميزاً
متوافقاً يفرضه على كثرة المادة المضطربة .

فهناك اذن حافظان فى الانسان ، أحدهما حسى مرتبط بالجانب
الطبيعى أو الحسى فى الانسان ، ويرمى إلى تقييده بقيد الزمن وتحويله
إلى كيان مادى ، وجعله يقنع بالوجود المتناهى ، وعدم البحث عن التسامى
أو عن أى لا متناهى ينتمى إلى غير الحاضر . أما الحافظ الثانى ، الذى
سماه شيلر : الحافظ الصورى ، فينبع من طبيعة الانسان العقلية وتعلقه
بالمطلق ، وهو يسعى إلى تحريره ، وإلى المحافظة على كيانه وسط اضطراب
الظواهر الطبيعية ، وتضخم الذات وعدم خضوعها للحس ، وتمكنها من

القضاء على كل النقائص بواسطة الفكر المثالي ، وإذا حدث ذلك ، شعرنا وكأننا لم نعد خاضعين لزمان ، وكأننا صوت كلي يعبر عن الروح الانسانية كلها .

ولأول وهلة يبدو هذان الحافزان متعارضين . فكيف اذن نستعيد وحدة الطبيعة الانسانية ؟ وأول حل يتبادر الى الأذهان هو خضوع الحافز الحسى بغير قيد أو شرط للحافز العقلى . ولكن مثل هذه السيطرة ، حتى لو تحققت ، فانها لا تعد حلا موفقا فى نظر شيلر ، لأنها ستترك الانسان مشتتا . ومن الواجب لذلك ابقاء الحدود الفاصلة بين الحافزين . فلا ينبغى أن يتدخل الحس فى أى شىء يخص العقل ، كما ينبغى ألا يقرر العقل شيئا يخص الشعور . ومعنى ذلك هو ادراك الاختلاف الضرورى القائم بين الحافزين ، وعدم الخلط بينهما . ولن تتحقق هذه النتيجة الا بفضل التعلم والثقافة . فبفضلهما تتم حماية الملكات الحسية من تأثير الحرية ، كما تتم كذلك حماية الشخصية الانسانية من طغيان الحس . فلا ننسى أن العالم ممتد من مكان وزمان ، ويتألف من أشياء دائمة التغير . ومن ثم ينبغى أن تكون الملكات التى تربط الانسان بالعالم قادرة على التمييز . غير أن هذه الملكات ينبغى أن تركز على جوهر راسخ يتصف بالاستقلال والحرية ، والقدرة على الوقوف فى وجه الطغيان الحسى ، اذا تجاوز حدوده .

الانسانية غايتها الكمال

من هذا يتضح ضرورة صفل الانسان بحيث يحقق غايتين : الحصول على أكبر قدر من المادة المعطاة نتيجة للقاءاته المتعددة بالعالم . ثانيا : ضمان تقوية الجانب الارادى ، وجعله مستقلا عن المعطيات الخارجية . فاذا تعاونت هاتان الغايتان ، أمكن للانسان أن يسمو بوجوده الى أعلى مرتبة . فبدلا من استسلامه للعالم الطبيعى ، فانه سيجعل هذه الدنيا بما فيها من ظواهر متعددة كامنة فى نفسه ، كما انه سيوفق بينها وبين وحدة عقله وروحه .

على أنه فى حالة الانحراف ، تتحقق نتيجتان عكسيتان ، فاذا أصبح الحافز الحسى مهيمنا ، كان معنى هذا اختفاء الكيان الانسانى ، ونهاية الشخصية الانسانية . واذا ساد الحافز العقلى ، تحول كل شىء الى شكل بغير مضمون ، أى أصبح مجرد أشكال مجردة خاوية . فالحافزان اذن فى حاجة الى ما يقيدهما .

ومشكلة التوفيق بين هذين الحافزين هي مشكلة العقل ، وحلها
يعنى الوصول الى الكمال ، لانها غاية الانسانية بأسرها . فعلى الانسان
كما ذكر شيلر ألا يسعى من أجل ادراك الأشكال العقلية (الروحية) على
حساب واقعيته ، كما ينبغي ألا يسعى من أجل الواقع على حساب الشكل .
وعليه بالاحرى أن يوازي بين الجانبين ، لأنه لن يصبح انسانا حقيقيا ،
إذا حقق رغبات أى حافز مع انكار الحافز الآخر ، أو إذا حقق رغباتهما
بالتبادل ، لأنه لو اكتفى بالجانب الجسى ، لظل وجوده المطلق نتيجة لهذا
سرا مغلقا فى نظره ، ولو اكتفى بالجانب العقلى وحده فانه سيعجز عن
ادراك وجوده الشخصى . ولكن إذا استطاع أن يشعر بوجوده المادى ،
وبوجوده الروحى معا ، فانه سيدرك انسانيته ادراكا كاملا .

وحدث ذلك يؤدى الى تنبه حافز جديد فى الانسان ، سيبدو
متعارضا مع كلا الحافزين ، ولهذا السبب ، فانه سيبدو مختلفا . وهذا
الحافز أسماه شيلر حافز « اللعب » ! . ويشعر شيلر بأن هذه الكلمة
ستبدو غير مستساغة ، ولذا يقول فى رسالته الخامسة عشرة : « لعلك
قد شعرت باغراء على الاعتراض ، وعلى الظن باننا قد حططنا من قدر
الجمال عندما جعلناه مجرد لعب . وربما ظننت ان الأشياء الجميلة قد
انحطت الى مرتبة الأشياء التافهة ، التى ارتبطت فى أذهاننا بكلمة
« اللعب » . ألا يسيء هذا الاصطلاح الى مكانه الجميل الذى ننظر اليه
أساسا من أسس الحضارة ، اذا جعلناه مجرد « لعب » . وألا يتعارض
ذلك مع الفكرة التجريبية عن اللعب ، التى لا يلزم أن تكون مرتبطة
بالتذوق الجمالى » .

ولا يرى شيلر ان استخدام الكلمة سيؤدى الى أية اساءة فهم ،
أو الى الخط من قيمة الجمال ، شريطة ألا نتخيل عند استماعنا الى كلمة
(لعب) الأشياء المادية أو الغايات المادية ، التى تربط بينها وبين اللعب .
وليس هناك ما يدعو الى الاعتراض على كلمة (لعب) ما دمنا عند اللعب
نشعر باكتمال الشخصية الانسانية وتوافقها . وفكرة اللعب قد جاءت
من تأثر شيلر بكانط . فان كانط قد استخدمها كذلك عند كلامه عن
الحكم الجمالى للدلالة على ما تقوم به الملكات الانسانية بحسرية وهى
متوافقة .

ونستطيع تحديد دور حافظ اللعب بالرجوع الى الحافزين الحسى والصورى . فالحافز الحسى يختص بالجوانب المادية كافة ، اى بكل ما يظهر بطريقة مباشرة للحس ، اما الحافز الصورى ، فيعنى بالخصائص الشكلية او الصورية فى الاشياء وبكل صلاتها بملكاتنا العقلية . ومن ثم فان موضوع حافظ اللعب هو الجمع بين الشكل والحس ، اى تحقيق الشكل الحسى او الجميل .

الجمال يمثل الكمال الانساني

وبعد كل هذه المقدمات التي بين فيها شيلر ، كيف يتحقق الجميل بتوفيقه بين الحافزين الحسى والعقلى بوساطة ما دعاه : حافز اللعب ، تكلم عن الجميل . فذكر أنه ليس خاصا بالأشياء الحية فحسب ، لأن العمود الرخامى برغم افتقاره الى الحياة ، يمكن أن يظهر فى شكل حى ، بفضل كل من المهندس والنحات والمثال . كما أنه لايلزم أن يكون الكائن الحى ، رغم أنه يحيا ، ذا شكل حى ، لأننا اذا نظرنا الى الكائن الحى ، ولم نر فيه شكلا متمائزا ، فانه لن يبدو فى نظرنا شيئا حيا ، بل سيبدو مجرد مجموعة من التأثيرات . فالانسان اذن ليس مجرد مادة مفرغة من أى روح ، كما انه ليس محض روح فحسب ، ومن ثم فان الجمال باعتباره يمثل الكمال الانسانى ، لايمكن ان يكون مجرد حياة أو مجرد شكل ، ففيه يلتقى الجانبان الروحى والمادى .

ويستخلص شيلر من ذلك أن الجمال يقع فى موقف وسط بين المادة والشكل ، وبين الفاعلية والانفعالية . والجمال هو الذى يوصلنا الى هذه المكانة المتوسطة . ولعل هذا التصور هو ما يشعر به الكثيرون عند تأملهم للجميل ، وان كان أكثر الفلاسفة لايقبلونه لشعورهم بالهـوـة السحيقة التى تفصل بين المادة والصورة ، وبين الحس والفكر ، مما جعل التوفيق بينهما أمرا شاقا .

ويعنى شيلر بالتغلب على هذه الصعوبة ، لأنها أساس نظريته كلها، ويرى أن السر فى الاضطراب الذى ساد العالم الفلسفى يرجع الى ان الفلاسفة قد بدأوا بحثهم بالفصل بين العنصرين : الروحى والحسى فى العمل الفنى . وعجزوا عن الشعور بكيف تتحقق الصلة بين هذين الجانبين فى الفن ، لأنهم اعتمدوا على التحليلات التى يقوم بها الفهم . ومن ثم لم يروا سوى جوانب متفرقة منه ، وظل لهذا السبب الجانبان الروحى والمادى فى نظرهم منفصلين . وأكثر الناس لايشعرون بوجود هذه الفجوة القائمة بين الحس والفكر ، أو بين الناحية المنفعلة والناحية

الفعالة الايجابية ، لأن أكثرهم يخضع لتأثير الحافز الحسى ، ولا يحاول تجاوزه على أن تعدى المرحلة الحسية ، أى محاولة استبدال الناحية الفكرية الفعالة بالناحية الحسية المنفعلة ، لا يمكن أن يتم الا بعد مرحلة انتقالية ، يظهر فيها كل من الحس والفكر فى صورة فعالة ، ويترنب على ذلك ظهورهما فى مظهر مختلف عن حالتها الأصلية . هذه المرحلة المتوسطة لا يصح وصفها بأنها حسية أو عقلية ، ولهذا السبب أسماها شيلر مرحلة جمالية (استنطيقية) .

واختلاف هذه المرحلة الجمالية عن كل من المرحلتين الحسية والعقلية هو الذى دعا الناس الى الاعتقاد بعدم أهمية الجمال ، وبأنه لا يؤدى الى شىء من ناحية المعرفة . فهم لا يرون الجمال ذا أثر حقيقى فى حياتهم مثل الفهم أو الارادة . لأنه لا يكشف عن أية حقائق ، كما انه لا يساعد على القيام بأى عمل ارادى معين ، ومن هنا يكون التآمر الجمالى أمرا عديم الجدوى . وغاب عن هؤلاء الناس ، ان تأمل الجميل يحقق شيئا هاما . فهو يشعرنا بالحرية ، وبقدرتنا على الافلات من قبضة الطبيعة ، ومن ثم فمن واجبنا أن نعتقد أننا بفضل تأمل الجميل ، نستطيع ان نشعر بجوانبنا الانسانية ، بحيث يصبح القول بأن من لم يمر بهذه التجربة ، لن يستطيع ادراك ، ما هو الانسان ؟ فالمرحلة الجمالية تمثل الانسان أفضل تمثيل ، لأن الجوانب الانسانية كافة ممثلة فيها . ومن يتأمل الجميل يدرك جوانبه الفعالة والمنفعلة معا . والعمل الفنى الحق هو الذى يجعلنا نشعر بحرية أرواحنا وبقدراتنا ، وبمدى ما نستطيع أن نحققه ، وبزوال أى نقائص بين عقل وحس ، أو حرية وضرورة .

على أن بلوغ هذه المرحلة الجمالية ليس أمرا سهلا أو هينا . فكثيرا ما تعوق جوانبنا الطبيعية التى أصبح لها الغلبة فى أكثر الأحيان تجربة تذوقنا العمل الفنى . ولهذا السبب لا يتأثر الكثيرون الا بنواحي الموسيقى الحسية . فهم لا يشعرون بأسمى خصائصها ، ومن ثم فانهم لا يعرفون المشاعر الجمالية الحقة ، أى الشعور بالحرية وبالتحرر من كل تأثير طبيعى أو حسى .

والفنان مطالب بالتغلب على الجوانب المادية التى يصادفها فى مادته الوسيطة ، وبارغام مضمون عمله الفنى على الانصياع للأشكال الروحية التى يفرضها عليها . فسر العبقرية الفنية اذن ، هو القدرة على تحطيم كل مظهر مادي بوساطة الشكل الروحى .

التربية الجمالية

ويؤمن شيلر بقيمة التربية الجمالية . فهي وحدها التي تستطيع أن تخلق التوافق في المجتمع . لأنها هي التي أحدثت التوافق في الفرد . فكل أنواع الإدراك الحسى أو العقلى تؤدي الى تشتيت الانسان ، لأنها اعتمدت على الجوانب الحسية في كيانه ، أو على الجوانب المرتبطة بالفهم . وإدراك الجميل وحده هو الذى يجعله يرى الاشياء فى صورة كليه . اذ يلزم أن تتوافق جوانبه المختلفة حتى يتم هذا التذوق . وكل السبل الأخرى - غير الجمالية - تؤدي الى انقسام المجتمع ، لأنها قد تكون مرتبطة بالمنفعة أو بشهوات حسية . أما المشاركة فى تذوق الفن ، فإنها وحدها التى توحد المجتمع . ففي هذه التجربة ، يشعر المجتمع بالرابطة بين أفرادها ، لأن العمل الفنى قد عبر عن شئ يشترك فيه الجميع . فنحن نستمتع بمتعنا الحسية بوصفنا أفرادا فحسب ، الا أن العنصر الانسانى الكلى الكائن فينا لا يشارك فى مثل هذه المتع ، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نحول متعنا الحسية الى أشياء كلية . والأمر بالمثل فيما يتعلق بجوانب الفكر أو جوانب المعرفة . أما فى حالة الجميل ، فالأمر مختلف ، لأننا نستمتع به بوصفنا أفرادا ، وبوصفنا ممثلين للانسانية كلها . والشئ الحسى يسعد انسانا بمفرده ، لأنه مرتبط بالملكية الفردية أو الاستحواز . أما الجميل ، فهو قادر وحده على اسعاد العالم ، ومن ثم فإن كل كائن انسانى ينسى حدوده عندما يقع فى سحر الجميل . وعندما يأسرنا الجمال ، فإننا لانرضى الخضوع لأى عالم آخر . وهذا العالم يقع بين عالمين ، هما : عالم العقل المطلق ، حيث تتلاشى كل ضرورة ، وحيث لا شئ ينتمى الى المادة ، وعالم الطبيعة حيث يسود الحافز الطبيعى ، وحيث كل شئ يسوده الارغام ، اذ لا وجود فيه لأى شكل من أشكال الروح .



هوامش

- (١) داروين ! راجع الفصل الحادى عشر من الجزء الاول من هذا الكتاب.
- (٢) سبنسر : فيلسوف انجليزى (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م) .
 - كروتشه : بنديتو كروتشه : فيلسوف ايطالى (١٨٦٦ - ١٩٥٢) قال بمذهب
 - مثالى متأثر بهيجل . وتنضج فلسفته المثالية فى كتابه « فلسفة الروح » .
- (٤) جوته : يوهان فولفجانج فون جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) شاعر وكاتب مسرحى وروائى المانى . شملت عبقريته العالمية ميادين أخرى وبخاصة فى ميدان العلم .
- (٥) فيشته : يوهان جوتليب فيشته (١٧٦٢ - ١٨١٤) فيلسوف المانى وزعيم سياسى . تأثر بفلسفة كانط .
- (٦) شلنج : فريدرخ فيلهلم شلنج (١٧٧٥ - ١٨٥٤) فيلسوف المانى ساعد على قيام الحركة الرومانسية فى الفلسفة .
- (٧) علم الاستاطيقا : فلسفة الجمال المتمثلة فى الفن .
- (٨) شليجل : اوجست فيلهلم فون شليجل (١٧٦٧ - ١٨٤٥) مؤلف وباحث المانى وزعيم الرومانسية .

فلسفة التاريخ

هيجل

١٨٢٢ م

مقدمة عن الاتجاهات المختلفة في تفسير التاريخ :

يحتل التاريخ مكانة متميزة وسط العلوم الانسانية ، ويعد التاريخ من المواد الاجتماعية التي تعنى بدراسة الانسان من حيث علاقاته مع الأفراد والجماعات وعلاقاته مع بيئته والمشكلات الناجمة عن هذه العلاقات ، وخاصة وأن الكائن البشرى يمتاز من بين كل الكائنات بالذاكرة ، ذاكرة فردية ، وذاكرة جماعية ، ان التاريخ هو ذاكرة الجماعات ، هكذا كان قديما ، وهكذا هو اليوم .

ولقد شهد القرن التاسع عشر تطورات واسعة شملت جوانب التاريخ المختلفة ، فقد حدثت زيادة في حجم المادة التاريخية كان مصدرها تنوع فروع التاريخ وآفاق المعرفة التاريخية واحتواءها بجانب كل ما كانت تحتويه من قبل ، علم تاريخ العلوم والفكر والتطورات الاجتماعية والاقتصادية وتاريخ الفنون ، والتواريخ المقارنة من جهة ، ويقظة الشعوب التي كانت مغلوقة على أمرها والتي أخذت تشارك في كتابة تاريخها والاضافة اليه .

ولقد تبلورت في القرن التاسع عشر معظم الاتجاهات المختلفة في تفسير التاريخ ، علما بأن عددا من هذه الاتجاهات له جذور تعود الى العصور التاريخية القديمة . ومثال ذلك : الاتجاه البطولي ، والاتجاه الدينى ، وكذلك الاتجاه الجغرافى والاتجاه الدورى ، ومن أشهر الاتجاهات التي ظهرت في القرن التاسع عشر وما زالت آثارها على كتابة التاريخ وتدريسه الى الوقت الحاضر ، الاتجاه المادى والاتجاه المثالى في تفسير التاريخ .

١ - الاتجاه البطولى في تفسير التاريخ :

ويعتبر الاتجاه البطولى في تفسير التاريخ من أقدم التفسيرات التي عرفها الانسان ، وهو يعنى أن الأعمال التي للرجال العظام هي التي تصنع الحوادث التاريخية في هذا العالم . ولقد بدأ هذا الاتجاه منذ زمن

اليونان ، فملحمتا الياذة والأوديسة للشاعر اليونانى « هوميروس » تعتبران نموذجا لتمجيد البطولة والابطال ، ولقد جاء فى مقدمة كتب التاريخ التسعة المعروفة باسم (التواريخ) للمؤرخ اليونانى هيرودوت (١) بأنه كتب تاريخه على أمل أن يحفظ به أعمال الناس ولكى يمنع الأعمال العظيمة والمهشمة التى قام بها اليونان والبرابرة ، يعنى (غير اليونان) ، من أن تفقد ما تستحقه من التمجيد . ومن هنا ظن هؤلاء المؤرخون ، أن السبب الرئيسى للتغيير فى التاريخ هو بسالة عظماء الابطال والكهنة والملوك .

وبعد هيرودوت جاء المؤرخ اليونانى « توكيديس » (٤٦٥ - ٤٠١ ق.م) بنظرية (الرجل العظيم) ، وفيها يوضح الدور الذى يلعبه الابطال فى صنع التاريخ . لأن أعمال الابطال من ملوك وقادة وشجاعتهم هى التى صنعت التاريخ . ولقد وجهت هذه النظرية المناهج التربوية زمنا طويلا ، ولقد عمد بلوتارك الى تحليل وتمجيد الشخصيات التى شاركت فى صنع وأهملت الدور الذى تلعبه الشعوب فى صنع الأحداث التاريخية .

ان الطابع الذى اتسمت به كتابة معظم المؤرخين الاغريق ظل مقتصرًا على قصص الابطال وشجاعتهم الخارقة فى مختلف ميادين الحرب والقتال .

ثم جاء المؤرخ الرومانى الشهير « بلوتارك » (١٢٥ - ٤٦ ق.م) الذى جمع فى شخصه شخصية المربي وشخصية المؤرخ بكتابه (حياة العظماء) مؤكدا ما أكدته توكيديدس من قبل بشأن نظرية الرجل العظيم . ولقد عمد بلوتارك الى تحليل وتمجيد الشخصيات التى شاركت فى صنع التاريخ للعالم .

ويمكن القول بأنه منذ عصور الملكيات الوثنية التى قامت فى عصر البرونز بمصر وبلاد الرافدين والصين وبسبب الاعتقاد بقوى خارقة تنسب للملك فان الاعتقاد كان سائدا بأن الملك هو العامل الوحيد المؤثر فى كافة الأحداث التاريخية .

ولقد استمرت نظرية الرجل العظيم فى تفسير التاريخ خلال العصور الوسطى والحديثة والى ذلك يشير الفيلسوف الانجليزى « هربرت سبنسر » (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) حيث يقول : لقد كان الملك فى العصور الماضية يمثل كل شئ بينما بقية الناس لا يمثلون شيئا ، ولذلك كانت أعمال الملك تغطى الصورة بكاملها ، بينما تكون أنماط حياة الشعب خلفية غامضة .

ومن أشهر المدافعين عن الاتجاه البطولى فى تفسير التاريخ « توماس كارليل » (١٧٩٥ - ١٨٨٥) . وكان ذلك فى كتابه « الابطال » حيث يقول : فى اعتقادى أن التاريخ العام تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا

العالم ، انما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الاسوة والقدوة وهم المبدعون بكل ما وفق اليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم وكل ما تراه من هذا الوجود .

وكان هيجل قد أوضح ان الرجل العظيم ليس نتاج الأحوال المادية أو الاجتماعية أو البيولوجية ، بل انه يعبر عن روح زمنه أو انه روح حضارته ، ويتوقف ظهوره على قالب مقدر ومكتوب خارج حدود الزمن وهو يتخلل الأحداث فى الوقت المناسب بطريقة غامضة .

وهكذا فقد اعتبر بعض المؤرخين التاريخ من صنع الأبطال العظماء ، فى حين أنكر البعض الآخر أى أهمية لدور الأفراد لاعتقادهم بأن الأبطال ليسوا الا نتاجا للقوى الاجتماعية المحيطة بهم .

٢ - الاتجاه الدورى فى تفسير التاريخ :

لقد ظهر هذا الاتجاه منذ زمن اليونان ، وهو يدور حول معنى رئيسى هو : أن تاريخ العالم يجرى فى دورات متتالية ومتشابهة . بحيث تعود الأحداث السابقة من جديد وبأشكال متقاربة وتترتب عليها بالتالى النتائج نفسها .

ويعتبر الفيلسوف اليونانى أفلاطون (٤٢٨ - ٣٤٨ ق م) من ممثلى هذا الاتجاه فى ذلك الزمان ، فهو يرى أن التاريخ عبارة عن مجموعة من الدورات لابد من أن تنتهى بالانحلال والتفكك والكوارث .

ومن مؤرخى هذا الاتجاه المؤرخ العربى « ابن خلدون » (٢) الذى يرى بأن كل دولة يجب أن تمر بعدة أدوار هى : دور العمران ثم دور القوة والازدهار ثم دور الضعف والانحلال . ومن مؤيدى الاتجاه الدورى فى تفسير التاريخ فى العصور الحديثة المؤرخ الايطالى (فيكون ١٦٦٨ - ١٧٤٤ م) الذى وضع نظرية فى تطور الأمم سماها « نظرية الدورات » . وحسب هذه النظرية فان كل أمة من الأمم تمر فى ثلاثة أدوار تنتهى الى بربريتها وانحلالها ، وهذه الأدوار هى : الدور الالهى ، وفيه يعتد الناس بأن الآلهة تدير كل شئ ، والدور البطولى وهو دور الشخصيات الهامة القوية ، والدور الانسانى وهو دور الحضارة الحقيقية التى تسود فيها المساواة الطبيعية بين الناس والقوانين التى يتساوى فيها الجميع .

وبعد هذه الأدوار الثلاثة تصاب الحضارة بالانتكاس وتعود الى بربرية جديدة . وهناك أيضا المؤرخ الألمانى « شبنجلر » (٣) ١٨٨٠ -

١٩٢٦ م ، والتاريخ حسب اعتقاده انما هو مسرح لعدد كبير من الحضارات .
وتاريخ كل حضارة كتاريخ الكائن العضوى اى انها تنشأ وتنضج ثم
تذبل وتموت ، وكما ان سياق الحياة واحد بالنسبة للكائنات الحية
فللحضارات سياق واحد تسير عليه . فالتاريخ اذن انما هو مجموعة
دورات حياة حضارية ، ولكل حضارة دورة حياة مقفلة ولها سماتها
الخاصة بها .

ولقد تأثر الفيلسوف والمؤرخ الانجليزى (توينبى ١٨٨٩ - ١٩٧٦ م)
بنظرية شبنجلر السابقة . وجاء توينبى بنظرية التحدى التى يقول فيها
بان كل حضارة تمر بثلاثة أطوار تضعف فى نهايتها . ويرى توينبى بان
الحضارة تنشأ بالتحدى عندما تتحدى ظروف المجتمع وتنشأ اقلية مبدعة
تتولى الرد على هذا التحدى عن طريق القيام بالاستجابة اللازمة لذلك ،
اى ان نشوء الحضارة هو عملية تحد واستجابة ، وان تاريخ البشرية انما
هو سلسلة من التحديات والاستجابات .

٣ - الاتجاه الجغرافى فى تفسير التاريخ :

ويعود هذا الاتجاه فى جذوره الى مفكرى اليونان الذين يرون بانه
ينبغى تفسير التاريخ والبحث عن مصدر التغير فى الحوادث التاريخية
عن طريق ملاحظة تعاقب الأحوال الجغرافية والمناخية .

ومن مؤيدى هذا التفسير فى العصور الحديثة أولئك الذين حاولوا
تفسير مظاهر التاريخ المتعددة فى ضوء عامل واحد فقط هو العامل
الجغرافى . ونذكر منهم المؤرخ والفيلسوف الفرنسى مونتسكيو (٤) الذى
ركز اهتمامه على تحليل التاريخ بأسباب فيزيائية مثل المناخ والأحوال
الجغرافية الأخرى .

وهناك أيضا الفيلسوف الألمانى (هردر ١٧٤٤ - ١٨٣٠ م) الذى
فسر النمو الانسانى عن طريق البحث فى ماهية اتصال الانسان بالبيئة
الطبيعية .

ومن أشهر دعاة التفسير الجغرافى فى القرن التاسع عشر المؤرخ
الانجليزى (بوكلى ١٨٢١ - ١٨٦٢ م) الذى يعرف الحضارة بنقاط ثلاث
هى : المناخ والتربية والطبوغرافيا . وهو يرى ان هذه العوامل الثلاثة
التي تبين ما اذا كانت حياة البشر فى منطقة ما سوف تكون مزعزة أم
انها سوف تتضمن شيئا من الثبات .

وهناك أيضا الأمريكي (هونتكتون ١٨٧٦ - ١٩٤٧ م) الذي عزا تقدم الحضارة الانسانية فى بعض المناطق ، دون غيرها ، الى عوامل جغرافية مناخية بحتة .

٤ - الاتجاه العرقى فى تفسير التاريخ :

ومنذ العصر اليونانى أيضا قام تفسير للتاريخ على أساس نظرية التفوق العرقى حيث كان اليونان يؤمنون بمبدأ تفوق الاغريق عليهم ، ثم تلقى الغرب فكرة التفوق العرقى - العنصرى واستغلتها كل دولة بما يناسب مصلحتها لتبرير أعمالها العدوانية وتفسير الحوادث التاريخية بالشكل الذى يناسب مصلحتها . وتبعاً لذلك أعلن بعضهم ان الحرب عملية طبيعية لابد منها وأن أعمال الغزو والتدمير والاعتصاف تمثل الجوهر الأساسى لنظام الطبيعة لأن البقاء ينبغى أن يكون للأصلح .

وفى هذا المجال يقول (وولشى) نقلاً عن (كانط ١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) ان الحرب تحت الناس على السعى والاكتشاف . وبذلك يساهمون فى تحقيق غزو الطبيعة فى تنظيم المجتمعات البشرية .

ويقول هيجل : على الدولة أن تفكك بالحرب نظاماً أصبح من قبيل العادة ، وان الشعب يتعرض دون الحرب الى أن يفقد معنى حرته .

٥ - الاتجاه الدينى فى تفسير التاريخ :

لقد وجد هذا الاتجاه منذ الأزمنة القديمة ، وفى الحالات التى لم يستطع فيها المؤرخون تقديم بعض التفسيرات البطولية للتاريخ قدموا تفسيرات دينية نتيجة لاعتقادهم بوجود قوى خارقة تهيمن وتسيطر على العالم وتوجهه سموها بالاله .

فعند اليونان القدماء ولدى شعوب الشرق القديم وفى بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر تم ذكر هذه الآلهة ، وأحياناً اعتبروا الملك على أنه هو الاله على وجه الأرض ، ونسبوا اليه الحوادث التاريخية . فحركة التاريخ ليست سوى الخطة الالهية لخلاص العالم ، وهذه الخطة مقررة فى خطوطها العامة منذ بدء الخليقة وحتى يوم القيامة ، وهذا التفسير ساد تاريخ التوراة كما انه يتجاوب مع المنهج التاريخى للكنيسة المسيحية ولكن بصورة أعمق . وأما التفسير الاسلامى للتاريخ فانه يدعو أيضاً الى الاعتقاد بوجود الاله المسيطر على كل شئ ، والموجه لكل شئ . ووفقاً

لهذا التفسير تغلب حركة التاريخ التي يتبع لها الكون حركة واحدة تبدأ يوم خلق الله السموات والأرض وتتجه نحو يوم القيامة . أذن هنالك فريق من المؤرخين وهم أصحاب النظرات الدينية في الزمان وفي التاريخ ، وهؤلاء ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصير الانسانية في الدنيا ، وبالنهاية يرتبط بها حساب وعقاب وثواب . ومن أبرز ممثلي هذا الاتجاه (فيلون ٢٥ق م - ٥٠ م) بالنسبة الى اليهودية ، والقديس « أغسطس ٣٥٤ - ٤٣٠ م) بالنسبة الى المسيحية ، و « ابن خلدون » بالنسبة الى الاسلام .

٦ - الاتجاه المادى فى تفسير التاريخ :

هنالك عدد من الفلاسفة والمؤرخين الذين اتجهوا الى تفسير التاريخ انجاسها ماديا وأشهرهم (كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣ م) الذى نادى بالنظرية المادية فى التاريخ وربطها بالتطور الاقتصادى للمجتمع ، ونتج عن هذا الربط تفسير للتاريخ على أساس تقرره المادة ، أى أن السيطرة على وسائل الانتاج تقرر أية طبقة وأية نماذج فكرية يمكن أن تسود فى فترة ما ، غير أن الصراع المستمر بين الطبقات الاجتماعية المختلفة سيؤدى فى النهاية الى انتصار طبقة العمال .

وهكذا يفسر التاريخ بحسب الاتجاه المادى عن طريق العامل الاقتصادى والمادى الممثل بالصراع بين طبقات المجتمع عبر العصور التاريخية .

ويرى ماركس أن صراع المتناقضات لا يحصل فى عالم الأفكار وإنما فى العالم الاقتصادى للمجتمع . وبموجب النظرية الماركسية ينطوى تفسير التاريخ على وجود مراحل ثلاث من التطور البشرى ، حيث تمثل المرحلة الأولى مرحلة المشاعية البدائية ، أما المرحلة الثانية فتتمثل بمرحلة الصراع بين الطبقات المختلفة وبأشكال مختلفة ، بينما تتمثل المرحلة الثالثة بمرحلة الشيوعية العالمية التى لم تصل اليها البشرية بعد وهى مرحلة لا طبقات فيها ، وفيها سوف يحقق الانسان وجوده الانسانى الحقيقى كما يرى ماركس .

٧ - الاتجاه المثالى فى تفسير التاريخ :

ويعتبر الفيلسوف الألمانى هيجل زعيما للمدرسة المثالية فى تفسير التاريخ ، وهى تعتبر الفكر أو العقل أساس كل ما هو موجود . وتنتهى

فلسفة هيجل القرن الثامن عشر وتفتح فلسفة القرن التاسع عشر . فهي تقع على نقطة التحول بين عصرين ، ويتأكد لنا هذا الحكم اذا تأملنا موقف هيجل حيال التاريخ والعقل وأن فلسفة التاريخ هي القسم الأكثر شيوعا في عمل هيجل ، والحقيقة أن العقل في نظر هيجل هو جوهر التاريخ ، وان كل شيء في التاريخ - كما في المجالات الأخرى - قد جرى بشكل عقلائي وأن فلسفة التاريخ هي بالتأكيد - حسب تصور هيجل - سائرة على مسار واحد مستقيم طيلة الزمن ، وان هذا المسار يمر بالانسان الذي انتقل من حالة التوحش الطبيعية الى المستوى القانوني والنظامي . وتاريخ البشرية كله يمكن أن يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت الانسانية خلالها أن تحرز تقدما روحيا وأخلاقيا ، وهذا التقدم قد تم احرازه عن طريق العقل البشرى .

وهكذا ومن خلال الاتجاهات المختلفة في تفسير التاريخ السابقة ، والتي تبلورت في القرن التاسع عشر نكون قد تعرفنا على أشهر هذه الاتجاهات وأشهر فلاسفة التاريخ والمؤرخين الذين قالوا بها . وهذا يدل على تطور التأليف والتفكير التاريخي خلال ذلك القرن الذي اعتبره البعض قرن التاريخ .



حياة صاحب الاتجاه المثالي

كان الفيلسوف الألماني جورج ويلهلم هيجل من المفكرين البارزين ومن أجل الفلاسفة الألمان شأنًا ، وأبعدهم تأثيرًا ، ويصفه البعض في مستوى أرسطو وأفلاطون لقدرته الفائقة على تنسيق البناء الفلسفي ، وعمق تفكيره ، واتساع نطاق بحوثه ، وشمول نظراته ، وأصالة آرائه ، وقليل من الفلاسفة استغرق نضجهم وقتًا أطول مما استغرق نضج هيجل ، ولكن قليلًا منهم كذلك من تناول نواحي المعرفة المختلفة بمثل قدرته ، وآراؤه في الفلسفة والفن والسياسة والتاريخ لا تزال من المراجع الماثورة .

ولد هيجل في شتوتجارت عاصمة ولاية ورتمبرج في ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ قبل ميلاد صديقه وضريبه في الفلسفة الألمانية شلنج بخمس سنوات ، وبعد ميلاد الشاعر شيلر بأحدى عشرة سنة ، وكلاهما مثله من ورتمبرج .

وقد امتاز سكان «نجمو دسوابيا» عن سائر الألمان بخصائص في لهجتهم وأخلاقهم ، ففيهم مزيج من البساطة والحزم ، والحاسة الدينية وحرية التفكير النظري ، وفيهم ميل إلى التأمل النزاع إلى التصوف ، وقد لوحظ أن المفكرين الكبارين اللذين أكدوا حرية الإنسان واستقلاله وجعلوا « النفس » فوق ما هو « غير النفس » - وهما كانط وفشته - كانا من أصل الشمال . وان المفكرين اللذين رأوا ترك المثالية ذات الجانب الواحد وسما بهما التفكير إلى إدراك روحية العالم ووحدة الإنسان معه ومع أخوانه البشر - وهما هيجل وشلنج - كانا من أهل الجنوب ومن مقاطعة سوابيا نفسها .

وفي السابعة أرسل هيجل إلى المدرسة الإعدادية (الجمنازيم) في بلده ، وعرف من أول أمره بأنه طالب مثابر على دروسه وحسن الاستعداد لتلقى شتى أنواع المعرفة ، ولكن دون أن يظهر استعدادًا خاصًا من ناحية من النواحي ، وظهر من باكورة أيامه ميله الطبيعي إلى التنظيم والتنسيق ، وكان « الطالب المجد الذي يحصل على الجوائز » ، وفي الرابعة عشرة من عمره بدأ يحتفظ بكراسة يدون فيها يومياته ، وكان يسجل بها تقدمه في الدراسة وما يعن له من ملاحظات في أثناء مطالعته ، ويدرب نفسه

فيها على الكتابة اللاتينية ، ويثبت بعض آراء أساتذته ، وكان أكثرها من الآراء التي شاعت في عهد الاستنارة ، وما كان يلتقطه من كتب العلم والفلسفة ، وقد أشار في هذه اليوميات الى مساوئ عدم التسامح وضرورة اعتماد الانسان على نفسه في التفكير ، وعرض بالخرافات الشائعة ، ويرجع كتاب سيرته الى هذه اليوميات لمعرفة حالته النفسية في تلك الفترة وتطوره الفكري .

وكانت الدراسة التي عنى بها هيجل أشد عناية وخصها بالجانب الأكبر من اهتمامه هي دراسة الشعر اليوناني ، وفي السادسة عشرة من عمره بدأ يكتب مختارات مطولة من كل كتاب يروقه ، وكان يجد متعة في كل فروع العلوم التي أمكنه الوصول اليها واستطاع بذلك تحصيل طائفة كبيرة من مختلف المعلومات ، ولما كان يلتزم الدقة في كل ما يباشره من الأعمال ، ولذلك استطاع أن يحسن فهم ما يقرأ ويقدر مزايا الكتاب الذين يتناول كتبهم ، وكان يذهب الى أن الثقافة الحقة تقتضي أن يقتصر الانسان في بادئ الأمر على التلقى ، وبعد ذلك يجيء دور الفحص والنقد ، وقد أعجب بأسلوب « البيثاجوريين » في التربية ، وكان هذا الأسلوب يفرض على الطالب التزام الصمت مدة خمس سنوات ، ويقول هيجل : « واجب الصمت هذا شرط جوهري لكل ضروب الثقافة والتحصيل ، وعلينا أن نبدأ بانماء قدرتنا على فهم أفكار غيرنا ومعنى ذلك اغفال أفكارنا الخاصة ، وكثيرا ما يقال انه يجب أن يثقف العقل من بادئ الأمر بالأسئلة والاعتراضات والأجوبة ، والواقع أن هذا الأسلوب لا يمنح العقل ثقافة حقة وانما يجعله سطوحيا موكلا بالظاهر دون الباطن ، ونحن بتحرى الصمت والاحتفاظ بأنفسنا لأنفسنا لا نزداد فقرا في الروح ، بل على نقيض ذلك نكتسب القدرة على فهم الأشياء كما هي في الواقع ، وندرك أن الآراء الذاتية ، والاعتراضات ليست بذات قيمة » .

وهي نصيحة بضرورة الحال يصعب اتباعها ، ولا تخلو من الخطر ، وقد تضر بالعقول الضعيفة التي لا تحسن رد الفعل على ما تحصل ، ولكنها نافعة للعقول الكبيرة الراجعة التي تجيد الهضم ولا توهنها أعباء المعرفة ولا يرهقها التحصيل .

وفي الثامنة عشرة من عمره ترك هيجل (الجيمنازيم) الى الجامعة ، وكان والداه يعدانه ليكون من رجال الكنيسة ، ولذلك أرسل الى معهد اللاهوت في توبينغن ، وكان الطلبة في هذا المعهد يخضعون لنظام لم يخل من الصرامة ، وكانت الدراسة تشمل اللاهوت والفلسفة ، وبطبيعة الحال كان للاهوت النصيب الأوفر ، ولم يكن بين أساتذة المعهد في تلك الفترة من يصلح لأن يكون له تأثير دائم في هيجل .

وتابع هيجل دراسته الكلاسيكية وأضاف إليها دراسة بعض الكتاب المحدثين وبخاصة مؤلفات روسو التي كانت باعث الحركة المقبلة في فرنسا وهي الثورة الفرنسية ، وكون هيجل واضرا به الأصغر منه سنا في الجامعة ومنهم شلنج - ناديا سياسيا كانوا يتناولون فيه بالبحث آراء الثورة الفرنسية ويناقشونها ، وعرف هيجل بين رفاقه بشدة تحمسه لفكرة الحرية وفكرة الاخاء ، وكان هيجل في تلك الفترة يميل الى المرح والفكاهة ، وكان محبوبا من أصدقائه الذين كانوا يلقبونه بالرجل العجوز ! . وتوثقت علاقته بزميله شلنج وبالشاعر الشاب هيلدرلين ، وكان مثله ميالا الى الأدب اليوناني ، وبعثه ذلك على دراساته مؤلفات كانط عن الأخلاق ، وقد ترك جامعة توبنجن سنة ١٧٩٣ م .

وقد قضى هيجل ثلاث سنوات من السنوات الست التي تلت خروجه من الجامعة في مدينة برن بسويسرا مدرسا خاصا ، وكان في خلال تلك الفترة دائم الاتصال بصاحبيه شلنج وهيلدرلين بطريق المراسلة مما جعله على دراية تامة بتقدم الحركة الفلسفية في المانيا ، وقد كانت هذه السنوات الست هامة في دراسته الفلسفية ، كانت المعارف والمعلومات الفلسفية التي حصلها تتصارع في نفسه وتتفاعل لتلتئم وتتحد ويتكون من موادها المختلفة كل حي يبدو عليه طابع شخصية ويتسم بسمة عبقرية ، وقد انتقل من دراسة روسو الى دراسة كانط ، وقد ظل سنوات معنيا بوجه خاص بدراسة المسائل الدينية والأخلاق ، وكان يحاول معالجة مشكلات الدراسات عن طريق الامعان في دراسة التاريخ لا من الناحية الفلسفية ، ويمكن القول بأنه اتجه الى الفلسفة عن طريق محاولته تفسير التاريخ وفهمه ، وشغل في بادئ الأمر بتاريخ الدين ، وفي أثناء ذلك كتب كتابا عن حياة المسيح ، ووضع رسالة عن علاقة الدين الوصفي بالدين العقلي ، وكان في هذه المحاولات ينظر الى الدين من ناحية علاقته بحياة الأمم الاجتماعية والسياسية ، وفي أثناء اقامته في فرانكفورت اتجهت دراساته اللاهوتية بالتدريج الى البحوث الأخلاقية والاقتصاد السياسي ، وأخيرا الى العلوم الطبيعية والفيزيائية ، وفي السنة الأخيرة من اقامته في فرانكفورت حاول أن يجمع نتائج بحوثه ويضمونها نسقا فلسفيا ، ومهما يكن من الأمر فإنه لم يستطع أن يتم في هذه الفترة سوى الجزء الخاص بالمنطق وما وراء الطبيعة وفلسفة الطبيعة .

وفي هذه السنوات الست كان التصور أن الغالبين على عقله والمرشدين له في بحوثه هما فكرة الحرية ، وفكرة ان حياة الانسان الطبيعية والروحية وحدة عضوية من العناصر لا يمكن فصل أحدها دون أن تفقد معناها وقيمتها .

وكانت فكرة الحرية كما اكدها عصر الاصلاح الدينى تنطوى على خلاف بين حياة الانسان الداخلية وحياته الخارجية أو بين الضمير والسلطة الخارجية أو بين الفرد باعتباره مقررًا لمصيره فى تفكيره وعمله وخضوعه للمؤثرات والأشياء التى تؤثر أو قد تؤثر فى مصيره من الخارج ، وقد رفض لوثر (٥) ادعاء الكنيسة حق الوساطة بين الفرد والله ، وأعلن تحرير الانسان لا من سلطة الكنيسة فحسب بل فى الواقع من كل سلطة خارجية أيا كانت وحتى من كل تعليم أو كشف للحق يأتى من خارج النفس ، وذلك لأن المبدأ الذى أعلنه هو أن الحق الذى يؤمن به الانسان ينبثق من داخل نفسه ويؤثر فى كل عناصر حياته ، فإذا كانت المعرفة الحققة لله هى التى تأتى من داخل الروح وصميم النفس فان معنى هذا انه لا يمكن قبول أى نوع من الحق يأتى بطريق آخر ، وإذا كان القانون المقدس الذى لا يخضع الانسان خضوعًا مطلقًا لسواه لا يكشفه للانسان سوى الهاتف الداخلى الذى يتفق مع صوت الضمير ، فان أى حكم قانونى أو سلطة حققة لا تكون صادرة من الخارج ، ولا نستطيع أن نعترف بوجود أى شىء فى الواقع الا اذا كانت له علاقة واضحة مفهومة بوعينا المباشر ، ولا نقر أى أمر يصدر إلينا ونعده عادلاً الا اذا كنا نطيع الجانب الاسمى فى نفوسنا حينما نطيعه أى ان « لوثر » بدأ حرب تحرير للانسانية لا تقف أرجاؤها عن الدوران الا اذا تخلصت النفس من كل مؤثر غريب عنها ، وهذه هى الفكرة الرئيسية التى سيطرت على حركة الحضارة الحديثة والتى انتصرت الحضارة فى المعارك التى خاضتها تحت رايتها سواء فى مجالات الفكر أم ميادين العمل .

وقد كون هيجل قبل مبارحة فرانكفورت أقسام فلسفته الثلاثة ، وكان الجزء الأول يشمل المنطق وما وراء الطبيعة ، والجزء الثانى تناول فلسفة الطبيعة ، والجزء الثالث تناول فلسفة الروح التى تتوحد فيها الخلافات وتصطلح المتناقضات .

وفى سنة ١٨٠٠ وكان قد وضع أساس فلسفته وفكرتها الرئيسية وبدأ تطبيقها بطريقة منظمة أخذ يفكر فى الموازنة بين أفكاره وأفكار غيره من معاصريه ، فاستأنف المراسلة مع شلنج وكان قد ترك مراسلته منذ سنوات .

وفى سنة ١٨٠١ ظهر له أول مؤلف مطبوع وهو « الفرق بين مذهب فشته ومذهب شلنج » وقد دافع فى هذا الكتاب عن مذهب شلنج ، وفى عام ١٨٠٢ اتفق مع شلنج فى اصدار « المجلة الانتقادية » وكانت الفصول التى كتبها لهذه المجلة موحدة الهدف الى حد أنه أصبح من الصعب فيما بعد تمييز الفصول التى كتبها هيجل من الفصول التى كتبها شلنج !

وظل هيجل يعمل مدرسا خاصا حتى سنة ١٨٠٥ التي عين فيها
أستاذا في جامعة « ينا » وكتب في تلك الفترة أول كتبه الهامة وهو كتاب
« ظاهريات الروح أو العقل » وقد حاول في هذا الكتاب ان يبين المراحل
المختلفة للوعى التي تبدأ من مرحلة الوعى الحسى البدائى الى مرحلة الوعى
الفلسفى الكامل .

وفى اثناء اقامته فى نورمبرج أخرج كتابه العظيم عن المنطق ،
وكانت شهرته قد أخذت تملو وفى سنة ١٨١٦ قبل دعوة جامعة هيدلبرج
وبدأ بها محاضراته عن الفن ولكن جهده كان موجها الى كتابه الموسوعة
الفلسفية ، وفى سنة ١٨١٨ عين أستاذا للفلسفة فى جامعة برلين وظل
بها حتى توفى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ .

هيجل وفلسفة التاريخ

تعد محاضرات هيجل عن فلسفة التاريخ مقدمة صالحة لدراسة فلسفته ، وقد جمعت هذه المحاضرات وقدمت للطبع بعد وفاة هيجل . وهو يرى أن هناك ثلاث طرائق فى تناول التاريخ :

- ١ - التاريخ الأصيل
- ٢ - التاريخ النظرى
- ٣ - التاريخ الفلسفى

التاريخ الأصيل :

ولبيان النوع الأول يمكن أن نذكر اسما أو اسمين ممتازين يوضحان طرازه المحدد ، ومن هذا الطراز هيروdot وتوكوتيدس وغيرهما من المؤرخين من هذا النمط ، الذين تقتصر أوصافهم فى معظم الأجزاء على الأعمال والأحداث وأحوال المجتمع الماثلة أمام عيونهم والتي شاركوا فى روحها ، وهم يكتفون بنقل ما كان يحدث فى العالم حولهم الى عالم التصور العقلى ، وبذلك يتحول من مظهر خارجى الى تصور داخلى ، وكذلك يصنع الشاعر من المادة التى توافيه بها عواطفه ومشاعره صورة يقدمها لملكة التصور ، وهؤلاء المؤرخون الأصليون يجدون تحت أيديهم وصف الأحداث الذى كتبه غيرهم ، اذ لا يستطيع انسان بمفرده أن يرى كل شىء ويسمع كل شىء . . . وهم يستبعدون الأساطير والأقاصيص الشعرية التى تتعلق بها الأمم قبل أن ينضج وعيها وتسمو ثقافتها ، وأمثال هؤلاء المؤرخين يصفون مشاهد لعبوا فيها دورا أو عنوا بمراقبتها ، ولا يتناول سردهم للأحداث فترات طويلة ، وهدفهم أن يقدموا للذين يخلقونهم صورة للأحداث واضحة وضوح الصورة التى شاهدها ، وليس من عملهم اجالة الفكر فى تلك الأحداث لأنهم يعيشونها ولم يرتفعوا فوق مستواها . . . ويقول هيجل « ان مؤرخا مثل توكوتيدس قد عزا خطبا الى بركليز (٦) وهى من انشائه ، ولكن هذه الخطب لم تكن بعيدة عن شخصيته المعزوة اليه . وهى تبين الاتجاهات السياسية والأخلاقية السائدة فى عصرها » . ومن

أمثلة هذا النوع من التاريخ « المذكرات » وأكثرها يكتبها رجال بارزون ، وقد تكون دائرة اهتماماتهم ضيقة ، والحوادث التي يشغلون بروايتها ليست بذات قيمة كبيرة ولكنها مع ذلك تلقى ضوءاً على التاريخ ، وإذا كان كتاب هذه المذكرات من الذين شغلوا مناصب سامية ، ووقفوا على دخائل كثير من الأمور ، فانهم يستطيعون ان يقدموا للتاريخ معلومات قيمة تجلو بعض غوامضه ، وتكشف جانباً من أسرار الخفية .

التاريخ النظرى :

ويقول هيجل ان النوع الثانى من التاريخ هو التاريخ النظرى ، ولا يقتصر فيه المؤرخ على رواية أحداث عصره ، وما شاهده بعينه وكان حاضر أمره ، وانما غرض المؤرخ فى هذا النوع من الكتابة التاريخية أن يذكر تاريخ أمة من الأمم ، أو قطر من الأقطار ، والعمل الرئيسى للمؤرخ فى هذه الحالة هو جمع المادة التاريخية ، ومما له اعتبار هام فى أمثال هذا اللون من الكتابة التاريخية المبادئ التى يشير اليها المؤلف ، وتفسيره للبواعث على الأعمال التى يرويها ويصفها ، وطريقته فى سرد الأخبار ، وكل مؤرخ يختار له وجهة نظر خاصة ، واسلوباً معيناً فى الكتابة ، وهذا النوع من التاريخ النظرى يقترب من التاريخ الأصلى حينما يكون غرض المؤرخ عرض الحوليات كاملة ، ومن أمثال هذه الأخبار المجموعة مؤلفات ليفى (٧) وديندرو الصقلى . وبعض هذه الأخبار المجموعة يقدم صورة للأحداث من الوضوح بحيث يظن القارئ انه يستمع الى الذين اشتركوا فيها ، ويكاد يراها رأى العين ، ولكن فى أغلب الأوقات يدرك القارئ أن جامع الأخبار ينتسب الى ثقافة مخالفة وعقلية عصر آخر غير العصر الذى يسرد أخباره ، ويروى حوادثه .

والنوع الثانى من التاريخ النظرى يسميه هيجل « التاريخ البرجماتيكى » وهو التاريخ الذى يحاول الافادة من الماضى ، ويتلقى منه الدروس العملية ، ويستخرج العبر من وقائعه ، ويقول هيجل ان أمثلة الفضيلة قد تسمو بالروح ، وتصلح فى تلقين المواعظ الأخلاقية للأطفال ، ولكن مصائر الأمم والدول واهتماماتها وعلاقاتها من الأمور المعقدة ، وكثيراً ما ينصح الحكام ورجال السياسة بالاستفادة من دروس التاريخ ، ولكن التجربة والتاريخ كما يرى هيجل يعلماننا انه لا الحكومات ولا الأمم قد تعلمت شيئاً من التاريخ ، فكل عصر له ظروفه الخاصة التى يتبع فى علاجها اعتبارات خاصة به ، والمبادئ العامة لا تعين حينما يشتد ضغط الحوادث العظيمة ، ولا فائدة فى هذه الحالة من الرجوع الى الظروف المشابهة فى الماضى ، ولم يكن هناك شيء أكثر سطحية من الرجوع الى

أمثلة في تاريخ اليونان والرومان أثناء الثورة الفرنسية ، ولا شيء أكثر تنوعا واختلافا من عبقرية الأمم الماضية وعبقرية عصرنا .

والنوع الثالث من التاريخ النظرى يطلق عليه هيجل اسم « التاريخ الانتقادي » وهو يصحح أن يسمى « تاريخ التاريخ » ويقوم على نقد المدونات التاريخية ، واصطناع الدقة فى الاطلاع على الوثائق والسجلات .

والنوع الرابع من التاريخ النظرى أشد إمعانا فى التجريد من النوع الثالث ، ويتناول وجهات نظر عامة ويحاول أن يتعمق الأحداث ، وأمثله تاريخ القانون وتاريخ الفن وتاريخ الدين .

التاريخ الفلسفى :

ويرى هيجل أن خير تعريف له هو أن فلسفة التاريخ ليست سوى تدبر التاريخ وإجالة الفكر فيه ، ويرى أن الفكر جوهرى للانسانية وأنه هو الذى يميز الانسان من الحيوان ، وحينما نقبل على التاريخ وهذه الفكرة ماثلة فى أذهاننا قد يظن أننا ننظر الى التاريخ باعتباره مادة قابلة لأن تفرض عليها أفكارنا ، فى حين أن عمل المؤرخ يسجل ما كان وما وقع من الأحداث ، ولكن الفكرة التى تسترشد بها الفلسفة فى تأمل التاريخ هى مجرد تصور العقل ، فالعقل هو الذى تساس به أمور الدنيا . ولذلك يمثل لنا تاريخ الدنيا حركة عقلية ، والعقل هو الجوهر والقوة غير المحدودة ، وهو نسيج الحياة الطبيعية والحياة الروحية ، وطبيعة الروح مكونة من الحرية ، وحرية الروح قائمة على شعورها بالوعى الذاتى ، فالروح تشتمل على نفسها وعلى الطاقة التى تمكنها من تحقيق نفسها ، أى أن تبرز عمليا ما هو كامن فيها « بالقوة » وبمقتضى ذلك يمكن أن يقال عن التاريخ العام أنه مظهر وعرض للروح وهى تتعرف ما هو موجود فيها بالقوة .

وكما تحمل الجرثومة كل طبيعة الشجرة وطعم الفاكهة وشكلها ، كذلك الآثار الأولى للروح تتضمن تاريخها جميعه ، وأهل الشرق القدامى فى رأى هيجل لم يصلوا الى معرفة أن الحرية للجميع ورأوا أن الحرية تتمثل فى فرد ، والحرية فى مثل هذه الحالة تكون عرضة للنزوات والانطلاق بغير كايح ، ولم يظهر الشعور بالحرية الا عند الاغريق ، ولكن الاغريق والرومان رأوا أن الحرية مقصورة على البعض ولا تشمل البشر جميعهم ، وقد أضر ذلك بقضية الحرية الانسانية ضرا بليغا ، وقد كان الألمان كما يرى هيجل أول قوم أدركوا أن الحرية للناس جميعا وأن

الحرية هي جوهر الروح . ولكن جعل الحرية من المبادئ التي يؤخذ بها كان يستلزم حركة تثقيف عنيفة طويلة المدى .

وليس تاريخ الدنيا سوى تقسم الشعور بالحرية ، ولكن ماهي الوسائل التي يتخذها مبدأ الحرية لتحقيقها ؟ والاجابة عن هذا السؤال تستلزم الرجوع الى التاريخ ، والنظرة الأولى للتاريخ ترينا أن أعمال الناس باعثها حاجاتهم ، وأن العواطف والأهواء والميول هي التي تحركهم ، وقد نجد بين هذه البواعث أهدافا حرة كريمة خيرة ولكن اذا نظرنا نظرة عامة نجد أن هذه البواعث النبيلة نادرة قليلة الحول اذا قورنت بالبواعث الأخرى السائدة في العالم ، فإرضاء الميول والأهواء واشباع الشهوات هي أقوى البواعث على الأعمال ، ومصدر قوتها انها لا تقيم وزنا للحدود التي تفرضها العدالة وتقرها الأخلاق ، وهذه الحوافز الطبيعية أمضى تأثيرا في الانسان من النظم المصطنعة التي تحاول رد عادية الانسان وكبح شرته ، وحينما نرى انطلاق الأهواء الجامحة ونتائج عدوانها وشرها ومجانبة العقل التي لا تفترض بها فحسب ، بل قد تصحب كذلك الأغراض الطيبة والنيات الصالحة ، وحينما نرى الشر والرذيلة والخراب الذي يصيب البلاد المزدهرة ، حينما نرى ذلك كله تملأ رؤية هذا الفساد نفوسنا أسى وحسرة ، ولما كانت تبعة هذا التخريب والهدم تقع على كاهل الانسان والطبيعة منه براء ، لذلك قد يثير تأمل هذه الحالات الأرواح الطيبة ، والخطوب التي أصابت أنبل الأمم والحضارات وأنقى الناس فضيلة تحرك أعماق العواطف ، وتثير الحزن الذي ليس له ملطف ولا سلوان ، وفي مشاهدتنا لتلك الأحداث المروعة التي لا نستطيع تسويقها أو الفرار من مواجهتها ، لا نجد سوى اعتبار واحد ، وهو أن هذه الأحداث كانت محتومة ، وقضاء مبرما لا دافع له ولا حيلة فيه ، وأنه قدر لا يرد .

ولكن اذا اعتبرنا التاريخ مجزرة يضحي فيها بسعادة الأقوام وحكمة الدول وفضيلة الأفراد ، فاننا نواجه سؤالا آخر ، وهو ، ما هو الغرض النهائي الذي تقدم من أجله كل هذه التضحيات ؟ ان الفكرة والخصائص المجردة مسلوبة القوة ، والقوة التي تحركها وتدفعها الى العمل هي الحاجة والغريزة والميل والهوى ، ولا تعنى الناس بشيء الا اذا كان لهم فيه وجه من وجوه الانتفاع ، ولا يتم انجاز شيء من الأشياء ما لم يكن للقائمين به فائدة تعود عليهم . ويؤكد هيجل انه لم يتم انجاز شيء عظيم في هذه الدنيا دون أن يكون للعاطفة والهوى والميل أعظم الأثر في انجازه ، فالفكرة والعاطفة هما لحمه التاريخ وسداته ، وتاريخ العالم لم يكن مسرحا للسعادة ، والأيام السعيدة في تاريخ البشرية خالية الصفحات ، والناس تشبع رغباتها وتبقى ما ينفعها وتعمل على تحقيق غاياتها الخاصة تبعا لميولها الطبيعية ، ولكنهم في خلال ذلك يشيدون بناء المجتمع ، ويوطنون.

أركان النظام والعدالة ، أى انهم يحققون شيئاً لم يكن يخطر لهم على بال وكان يتجاوز نطاق تفكيرهم ، ولأعمالنا نتائج تجاوز تقديرنا ، ويبدو ذلك واضحاً فى الدور التاريخى الذى تلعبه الشخصيات التاريخية الكبيرة المبارزة فى تلويح العالم ، فيوليوس قيصر كان يخشى أن يفقد مكانته ، فعمل على دعم نفوذه ، ومكنته انتصاراته من بسط سيادته على أنحاء الامبراطورية المترامية ، وأن يكون حاكماً أوتوقراطياً ، وكان العصر ناضجاً لقبول هذا النظام ، واستساغة هذا التحول فى نظام الحكم الرومانى ، فلم يكن الأمر مجرد كسب شخصى ليوليوس قيصر ، وإنما حقق قيصر خلال سعيه وراء مصلحته الخاصة ما كانت تتطلع اليه روح العصر ويستلزمه الموقف التاريخى ، وهذا هو الدور الذى يقوم به أبطال التاريخ فى شتى العصور ومختلف المواقف والمناسبات ، وهؤلاء الأبطال لا يدركون الفكرة العامة التى يعملون على تنفيذ رغبتها دون أن يشعروا ، ولكنهم برغم ذلك كانوا رجالاً عرفوا مطالب عصرهم ، وعملوا على تلبية هذه المطالب ، ووقفوا على تحقيقها جهودهم ، واتباعهم وأنصارهم الذين يسرون خلفهم كانوا يشعرون بدافع خفى قوى يحفزهم الى السير تحت رايتهم ، وإذا نظرنا الى مصائر أمثال هؤلاء الأبطال التاريخيين الذين قاموا بتنفيذ ما تطلبت روح العصر ، فأننا نجد انها لم تكن سعيدة ، فهم لم يعرفوا الراحة ، وكانت حياتهم كفاحاً لا نهاية له ، وكانت العاطفة المستولية عليهم لا تدع لهم فرصة للاخلاد الى الهدوء والتوقف عن الحركة الدائبة وبذل الجهد المتصل ، وحينما يتحقق الهدف الذى تطلبت روح العصر ينتهى دورهم ، وتنقضى الحاجة الى وجودهم ، فيموت أحدهم فى ميعة الشباب مثل الاسكندر المقدونى ، أو يقتل مثل يوليوس قيصر أو ينقل الى سائر هيلانه مثل نابليون ، وهؤلاء الأبطال يبتغون تحقيق هدف عظيم ، وفى سبيل تحقيقه قد تطأ أقدامهم الكثير من الأزهار البريئة وتحطم فى طريقها أشياء كثيرة .

والعاطفة والميل والهوى غير منفصلة عن « الفكرة » العامة فى تقدمها وتطورها وهى تظل كامنة فى الخلف وغير معرضة للدفع والجذب والأخذ والرد ، ويسمى هيجل اثاره الفكرة للعواطف والأهواء واستغلالها لتحقيق غاياتها « فكر العقل » الذى يضحي بالأفراد فى سبيل الفكرة العامة ، فالأفراد هم وسائلها الى تحقيق غاياتها ، وفى تأملنا مصير الفضيلة والأخلاق والتقوى فى التاريخ قد نميل الى الاعتقاد أن الصالحين والأتقياء لا تخلو حياتهم من الهموم والأكدار ، وأن الأشرار المناكيد السيئى النية أحوالهم راغدة ومعيشتهم هائلة ، ولكن حينما ننظر الى غاية الوجود نرى

أن مواتة الحظ لبعض الأفراد أو إساءته إلى الآخرين ليست من الأمور
الجوهرية ، والذي يثير حنق الناس ويجعلهم غير قانعين بأحوالهم هي
أنهم لا يجدون حاضرهم صالحا لتحقيق الأهداف التي يعتقدونها حقا
ويرونها عادلة ، ويوازنون بين الواقع وما يتطلعون إليه ، وفي هذه الحالة
لا تكون أهواؤهم هي التي تمل عليهم ولا الحرص على إشباع الشهوات ،
وانما بإعنتهم العقل ونشيدان العدالة والحرية ، وقد يدفعهم هذا الشعور
إلى الثورة بالأحوال السائدة .

الدولة والحرية فى رأى هيغل

والعقل الذى يتخلل الحركة التاريخية يهدف الى الخير العام ، .
وكشف الأخطاء فى حياة الأفراد والدول أيسر من تبين المضمون الهام
والقيمة الحقيقية ، وتقدم الناس فى السن يجعلهم أكثر اعتدالا فى اصدار
الأحكام ، والشباب دائما يغلب عليهم التذمر ، والاعتدال الذى يرافق
تقدم السن باعثة نضج القدرة على الحكم على الأشياء وليست القناعة
بالدون وقبول الواقع ، والتجارب تعلم الانسان التفريق بين الأشياء
الجوهرية والأشياء العارضة ، وتعلمنا الفلسفة فى نهاية الشوط أن العقل
العام المقدس ليس مجرد وهم من الأوهام ، وانما هو مبدأ حيوى قوى
التأثير يتابع تنفيذ مخططة فى تاريخ البشرية العام ، والفلسفة تحاول تعرف
هذه الخطة ، وقد يلحق الفساد الصور والأشكال التى تتخذها الأديان
والآداب ، ولكنها فى جوهرها غير محدودة ولا نهائية ، وقوانين الآداب
ليست شيئا عارضا ، وانما هى شئ جوهرى معقول ، والهدف الذى ترمى
اليه الدولة هو الابقاء على كل ما هو جوهرى فى جهود الانسان واطهاره
والاعتراف به ، ولا يحقق الانسان الحرية الا عن طريق الدولة ، والدولة فى رأى
هيغل هى الفكرة المقدسة كما تظهر فى عالمنا ، ويظهر فيها هدف التاريخ
فى صورة أكثر تحديدا من ذى قبل ، والارادة التى تسير القانون هى
الارادة الحرة لأنها فى اطاعتها للقانون تطيع ذاتها ، فهى من ثم حرة
ومستقلة ، وحينما يتم تكوين الدولة ، وتخضع الارادة الذاتية لقوانينها
يزول الفرق بين الحرية والضرورة ، وتتفق الارادة الخاصة مع الارادة
العامية . ويرفض هيغل الرأى القائل ان الانسان حر بطبيعته ، وان
المجتمع والدولة يحدان من حريته ، والقول بأن الانسان حر بطبيعته فيه
جانب من الحق ، وانما المعنى الحقيقى له هو أن الانسان فيه القدرة على
أن يكون حرا ، ولكن على شريطة انماء هذه القدرة واطهارها ، وحينما يقال
ان الانسان حر بطبيعته فان ما يتبادر الى الأذهان هو انه يملك الحرية
وحقوقه الطبيعية وممارسة هذه الحرية دون أن يعوقها عائق ، ولا يرتفع
هذا الادعاء الى مستوى رتبة الحقائق التاريخية ، فمن الصعب أن نعثر
على مثل هذه الحالة الى حالة الانسان وهو فى حالة الحياة الهمجية .

ولكن الحياة الهمجية تكثر فيها أعمال العنف ، وتتسم بالأهواء الوحشية العارمة التي تحد من الحرية ، والحرية لا تأتي إلينا متقادة في يسر تجر أذيالها ، وإنما يعمل من أجل الحصول عليها ونيلها ، والحالة الطبيعية يغلب عليها الأعمال غير الانسانية ، والنوازع المنطلقة بغير كايح ، والمجتمع والدولة يضعان حدا لطغيان الغرائز ، ووحشية الميول والأهواء ، وكبحها وسيلة من وسائل الشعور بالحرية والرغبة في تحقيقها ، والقانون والآداب من مستلزمات المثل الأعلى للحرية ومن الخطأ الاعتقاد أن وضع حد للنزوات الطارئة والحوافز والرغبات الهدامة يناقض الحرية ، بل علينا أن نرى أن وضع هذه الحدود والقيود من أُلزم ما يلزم لسلامة الحرية ، ولا تتحقق الحرية إلا في ظل الدولة والمجتمع .

فكرة التغير

والتاريخ العام يبين تقدم الشعور بالحرية من جانب الروح وتحقيقها نتيجة لذلك ، وكان لهذا التقدم مراحل ، فالفكرة تتخذ صوراً متوالية ، كل صورة منها تسمو على الصورة السابقة لها ، وبهذه العملية - عملية التسامي والتجاوز - تزداد تأكيداً وثراءً ووضوحاً ، ولكل أمة عبقريتها القومية التي تبدو في مظاهر وعيها وإرادتها ، وتحمل ديانتها وآدابها ونظمها السياسية وقوانينها الأخلاقية وبراعتها الآلية طابع هذه العبقرية ، والشئ الجوهرى فى التاريخ هو الشعور بالحرية والأوجه التى يتخذها هذا الشعور بالحرية فى تطوره وتقدمه .

وتاريخ الدنيا يشغل مستوى أسنى من المستوى الذى تشغله الآداب ، والآداب خاصة بالأخلاق الفردية وضمير الأفراد وإرادتهم الخاصة وطريقة مباشرتهم أعمالهم ، ولهذا كله قيمته والمناسب له من العقوبة أو المثوبة ، ولكن الغرض المطلق للروح الذى تتطلبه وتحققه - وما تريده العناية الإلهية - يسمو على هذه الالتزامات ويعلو على قابلية الاتهام بالبواغث السيئة أو عزو النيات الحسنة الذى يتعرض له الفرد فى العلاقات الاجتماعية ، وهؤلاء الذين قاوموا على أسس أخلاقية وببواغث شريفة ما استلزمه تقدم الفكرة الروحية أسى مكانة من الناحية الأخلاقية من هؤلاء الذين كانت جرائمهم قد تحولت الى وسائل أعانت الفكرة الروحية على تحقيق غاياتها ، ولكن فى مثل هذه الثورات فإن الفريقين يقفان فى حدود دائرة الوجود المتقلب الفاسد ، وأعمال الرجال العظماء وهم « الأفراد » فى تاريخ الدنيا تسوغها النتيجة التى كانت محجوبة عنهم ، وعلينا حينما ننظر من هذه الناحية ألا نجعل المطالب الأخلاقية تتعارض مع الأعمال الدنيوية التاريخية ومنجزاتها ، ويحسن ألا نثير فى وجهها التواضع والاعتدال وحب الإنسانية والاحتمال والصبر ، وقد يتجاهل تاريخ الدنيا التجاهل كله الدائرة التى تحوى الأخلاق ، والتفريق بين الأخلاق والأكاذيب السياسية وما يسجله التاريخ هو المجهود الذى تقوم به روح الأقوام ، والصور الفردية التى اتخذتها هذه الروح فى مجال الواقع الخارجى يمكن أن يترك تصويرها للتواريخ الخاصة .

وجود الدولة لازم لنهضة العلوم والآداب ، والفنون التشكيلية تستلزم تجمع الناس ، والفلسفة تظهر حينما توجد الحياة السياسية ، ويشيد هيجل بالآداب الصينية وكتابات كونفوشيوس والديانة الهندية والشعر الهندي وبخاصة الفلسفة الهندية ، ولكنه يرى أن الأمتين – الصينية والهندية – كانتا ينقصهما الشعور بفكرة الحرية ، فقوانين الآداب عند الصينيين خارجية مثل القوانين الطبيعية ، والآداب عندهم مسألة سياسية يراقب مراعاة الأخذ بها رجال الدولة والقضاء ، والرسائل الأخلاقية عندهم تشتمل على أوامر لازمة لتحقيق السعادة ، ومذهب في مقاومة الميول الحسية ، والرغبات الأرضية ليست غاية الوعي ولا موضوعه ، وإنما هي تقضى على الجانب الروحي والجانب الحسى من الوعي ، وعند الروح أن أسمى ما يمكن بلوغه هو معرفة النفس .

والتاريخ عند هيجل بوجه عام هو تقدم الروح فى الزمان كما أن الطبيعة تقدم الفكرة فى المكان ، وإذا القينا نظرة على تاريخ العالم رأينا صورة شاسعة الأنحاء للتغيرات والمنجزات وعديدا من الأقوام والدول والأفراد تتعاقب بغير توقف ولا انقطاع ، وكل ما يروق الروح ويشوق شعورنا بالخير والجمال والعظمة – كل ذلك يجد ما يدعو الى ظهوره ، وفى كل الأحداث والتغيرات نرى ما يبذل الإنسان من جهد وما يعانى من شقاء ، وفى كل ناحية نرى أشياء تثير اهتمامنا وأشياء تثير نفورنا .

ومنظر الاطلال الدوارس يجعلنا نتأمل فكرة التغير فى مظهرها السلبي والسائح الذى يرى اطلال قرطاجنة (٨) وبقايا آثار بالميرا (٩) وبرسبوليس (١٠) أو دوما يخالجه التفكير فى سرعة زوال الدول والناس ، ويأسى على فقدان تلك الحياة الثرية المزدهرة ، وهو حزن خالص برىء على سقوط ثقافة قومية باهرة ودثورها ، ولكن الاعتبار الآخر الذى يقترن بفكرة التغير هو أن هذا التغير كما يتضمن الانحلال والتدهور فانه كذلك يحتوى على ظهور حياة جديدة وكما ان الموت قد ينبعث من الحياة فكذلك الحياة قد تنبعث من الموت وقد عرف مفكرو الشرق هذا المفهوم العظيم وربما كان هو أسمى ما فى معلوماتهم الميتافيزيقية ، وجوهر الروح هو الحركة والنشاط وبه تحقق امكاناتها وتصبح موضوعا لذاتها وتتأمل ذاتها كأنها وجود موضوعى ، وكذلك شأن روح الأمم فان لها خصائصها المعنية التى تبدو فى صورة العبادة الدينية والعادات والنظم والقوانين السياسية والحوادث والانجازات التى يتكون منها تاريخها ، والأمم بأعمالها ، ويفرق هيجل بين روح الأمة المثالى وروحها الواقعى ، فالروح المثالى للأمة اليونانية يبدو فى أعمال سوفوكليس (١١) وأريستوفان وتوكونيدس وأفلاطون لأن فى هؤلاء الأفراد أدركت الروح اليونانية نفسها وفكرت فى نفسها ، وتتميز هذه الروح المثالية من الروح الواقعية .

وهيجل فى الناحية العملية من أنصار الحكومة القوية التى تجمع فى يدها كل السلطات ، ولذلك يبدو إعجابه بريشلييه ونابليون ، وهو لا يعد الحرب شراً ، بل يمجدها وبفضل الحرب يضحى الفرد بنفسه من أجل الدولة ، وهو يرى الحد من سلطة القوة التشريعية و إخضاعها للدولة وإن تقتصر سلطتها على الاستشارة .

وقد كان هيجل فى شبابه من المتحمسين للثورة الفرنسية ، وقد ظهر صدى هذا التحمس فى كتابه عن فلسفة التاريخ ، فهو يقول عنها « مفهوم العدالة وفكرتها أكدا سلطتها دفعة واحدة ، ولم تستطع الدعائم القديمة التى أقامها الظلم والجور أن تقاوم هجومها وتثبت له ، وأوجد نظام يلائم تصور العدالة وعلى هذا الأساس أقيم كل التشريع الذى جاء بعد ذلك ، ولم يحدث منذ استقرت الشمس فى كبد السماء ودارت حولها الكواكب السيارة أن أدرك الإنسان أن وجوده متركز فى رأسه أى فى فكره ، وبإلهام هذا الفكر يبنى الإنسان العالم الواقع ، ولم يصل الإنسان إلا فى عهد الثورة الفرنسية الى الاعتراف بمبدأ أن الفكر يجب أن يحكم الواقع الروحى ، ولذلك كان هذا العصر فجراً عقلياً باهراً ، وقد اشترك المفكرون جميعهم فى أفراح ذلك العصر ، وحركت قلوب الناس فى تلك الفترة عواطف سامية وسرت حماسة روحية فى شتى أنحاء الدنيا كأنما تم التوفيق بين ما هو مقدس وما هو دنيوى لأول مرة فى التاريخ .



العقل هو المحرك الأول للتاريخ

ولسنا نريد أن نسترسل فى شرح تفاصيل فلسفة هيجل فى التاريخ ، وانما حسبنا أن نكون قد أعطينا القارئ العربى صورة سريعة لأهم معالم هذه الفلسفة . ولا بد أن يكون القارئ قد لاحظ معنا ان هيجل كان فى مقدمة الفلاسفة المحدثين الذين دعوا الى « تأليه » التاريخ ، وكان « الديالكتيك » (١٢) هو المحكمة العليا التى تتحكم فى مصير الوجود بأسره ! ولئن كان من بعض أفضال هيجل على فلسفة التاريخ انه لفت أنظار الباحثين الى ضرورة ربط التاريخ بالمنطق ، والعقل على اكتشاف ما فى الأحداث من علاقات ضرورية ، الا انه قد استعان بكل ما لديه من أجهزة عقلية ومعارف تاريخية من أجل تبرير النظام السياسى الذى كان قائما فى عهده . ومن هنا فقد جاءت فلسفة هيجل التاريخية مجرد صورة أخرى من صور « البورجوازية الألمانية » التى كانت تعتبر أوج التاريخ هو مرحلة انتصارها .

وعلى كل حال ، فقد اهتم هيجل فى فلسفته التاريخية باستعراض تاريخ الشعوب المختلفة التى تعاقبت على مسرح العالم ، ابتداء من الشعوب الشرقية القديمة حتى الشعب الجرمانى ، فصور لنا الانسان بصورة الجهاز العضوى الواحد ، وقال ان العالم الشرقى يمثل طفولته ، بينما يمثل العالم اليونانى شبابه ، والعالم الرومانى رجولته ، والعالم الجرمانى كهولته . ومن هنا فقد سيطر على تفكير هيجل التاريخى مفهوم « التطور » أو « النمو البيولوجى » ، وكان الانسانية كائن حى واحد يتقدم ، ويتطور ، ويترقى ، بجملته . وأما غاية التاريخ – فى نظر هيجل – فهى بلوغ مرحلة الحرية أو زيادة شعور الروح بما لديها من حرية . ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين الى القول بأنه لا سبيل الى فهم فلسفة التاريخ عند هيجل ، اللهم الا فى ضوء مذهبه السياسى ، ونظريته فى الحرية السياسية ..

والغاية التى ترمى اليها فلسفة التاريخ الهيجلية هى جعل التاريخ مفهوما ، وأن ترينا أن كل ما هو كائن ينطوى على الخير للبشرية طبقا لقولته المشهورة « ان الواقع هو المعقول والمعقول هو الواقع » وما يبدو

لنا فى التاريخ شرا ونكرا يتضح لنا وجه الخير فيه حينما نعلم انه لم يكن منه بد ، وأساس هذه الفكرة عند هيغل هو أن تاريخ العالم ليس نهبا للمصادفة العمياء أو مجالا للامعقول ، وانما هو تقدم للروح وكشف للكفايات المستورة والقدرات الكامنة ، ومن ثم يبرر هيغل وجود الدولة بقوانينها ونظمها .

والتاريخ فى رأى هيغل لا يكرر نفسه لأنه فى حركة تقدمية ، وليست حركته حركة دائرية وانما تحركه تحرك لولبى ، وما يبدو لنا مكررا ليس فى الواقع كذلك وانما هو مختلف عن سابقه ، فكل حدث من أحداث التاريخ قد اكتسب شيئا جديدا من الأحداث التى سبقته ، والحروب مثلا تظهر فى تاريخ البشر من الحين الى الحين ، ولكن كل حرب جديدة تختلف من بعض الوجوه عن الحروب السابقة للدروس التى تعلمها البشر من الحروب التى تقدمتها .

ورأى هيغل فى أن العقل هو المحرك للتاريخ يتضمن ان العقل نفسه يحوى عنصرا لا عقليا ، وهو تصور قد لا يخلو من الغرابة ، والحركة التاريخية حركة منطقية عقلية ، لأن التاريخ ليس وليد المصادفة وانما هو حركة ضرورية محتومة .

ولم يكن هيغل ، بطبيعة الحال ، أول مفكر محدث خاض فى فلسفة التاريخ ، فاننا لنعرف من بين فلاسفة التاريخ مفكرين ممتازين من أمثال « فولتير » و « روسو » و « فيكو » و « كندوسيه » وغيرهم . ولكن فلسفة التاريخ التى قدمها لنا هيغل قد اتسمت بسمات خاصة جعلت منها فتحا جديدا فى هذا الباب ، فكانت بمثابة نقطة تحول هام فى مجرى التفكير التاريخى الحديث . ولئن كانت بعض آراء هيغل - فى فلسفة التاريخ - قد أصبحت اليوم مجرد آراء كلاسيكية معروفة ، فما ذلك الا لأن الفلاسفة اللاحقين له قد عملوا على نشرها ودعمها . ولا شك ان الماركسيين مسئولون - الى حد غير قليل - عن اذاعة آراء هيغل فى فلسفة التاريخ ، وان كانوا قد أخذوا على عاتقهم تصحيحها والتعديل منها . وعلى كل حال ، فان الكثير مما يكتب اليوم عن سارتر أو كامى أو هيدجر أو يسنبر ، يفترض الماما واسعا - من جانب القارئ المثقف - بالفكر الهيجلى على وجه العموم ، وبفلسفة هيغل التاريخية على وجه الخصوص . وهذا هو السر فى اهتمام الكثيرين من مؤرخى الفكر الحديث بالرجوع الى هيغل ، خصوصا وانهم قد فطنوا الى تردد أصداء الفكر الهيجلى لدى الغالبية العظمى من مفكرى القرن العشرين ، سواء أكان ذلك عن طريق التأييد أم عن طريق المعارضة .

هوامش

- (١) هيرودوت : راجع الفصل الأول من هذا الجزء من الكتاب .
- (٢) ابن خلدون : راجع الفصل الخامس من الجزء الأول من الكتاب .
- (٣) شينجلر : أوزوولد شينجلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦) فيلسوف ألماني قال بأن الحضارات تولد وتنضج ثم تموت كالكائنات الحية سواء بسواء . وأن الحضارة الغربية المعاصرة هي في طريقها الى الموت وبأن حضارة أخرى جديدة من آسيا سوف تحل محلها .
- (٤) مونتسكيو : راجع الفصل التاسع من الجزء الأول من الكتاب .
- (٥) لوثر : مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) زعيم البروتستانتية . درس العلوم والقانون . وضع نظاما تربويا فملا . كتب كثيرا في أمور الكنيسة وصارت تعاليمه معروفة باسم اللوثرية .
- (٦) بركليز : (٤٩٥ - ٤٢٩ ق م) أثيني . حكم أثينا من عام ٤٦١ - ٤٢٩ ق م حكما مستنيرا بلغت معه هذه الدولة ذروة قوتها .
- (٧) ليفي : تيطس ليطيوس ليفي (٥٩ ق م - ١٧ م) مؤرخ روماني . يعتبر أشهر المؤرخين الرومان القدامى . وهو صاحب كتاب (منذ تأسيس المدينة) وهو اثر ضخيم يقع في ١٤٢ جزءا . أرخ فيه لمدينة رومه . وقد كان لهذا السفر أثر بعيد في اسلوب الكتابة التاريخية وفلسفتها حتى القرن الثامن عشر .
- (٨) قرطاجنة : مدينة قديمة في الجزء الشمالي الغربي من جمهورية كولومبيا . تقع على شاطئ البحر الكاريبي . انشئت عام ١٥٣٣ .
- (٩) بالميرا : مدينة قديمة . وسط واحة في صحراء سوريا . كانت ملتقى القوافل بين سوريا والعراق . بنى فيها الملك سليمان مدينة أطلق عليها بالعبرية اسم تدمر ، أي مدينة النخيل ، ومنها اشتقت التسمية اليونانية بالميرا .
- (١٠) برسبوليس : عاصمة امبراطورية الاخمينيين الفارسية القديمة التي تقع في الجزء الجنوبي الغربي من ايران .
- (١١) سوفوكليس : (٤٩٦ - ٤٠٦ ق م) من أشهر شعراء المأساة اليونانية .
- (١٢) الديالكتيك : (الجدل) منهج منطقي بدأ بطريقة سقراط في السؤال والجواب والحل .

الكون

« عرض الوصف الطبيعي للعالم »

للكسندر فون هومبولت

١٨٤٥ م

كان الكسندر دى هومبولت Alexandre de Humboldt

واحدا من رجال العلوم المشاهير فى عصره (١٧٦٩ – ١٨٥٩ م) ، ذلك العصر الهام فى تاريخ أوربا ، والذي تميز بثورة عام ١٧٨٩ ، والحروب التى خاضها نابليون ، ان عمله الواسع ، وشغفه بالرحلات ، قد حملاه على القيام باكتشافات كان لها دوى كبير فى أرجاء العالم وبصفة خاصة فى فرنسا وألمانيا . وتبرر الدراسات التى قام بها أن يطلق اسمه على التيار البارد الذى يهب على سواحل شيلي وبيرو ، وأن يكون تعريفة للعالم الطبيعى تمثيلا لمجموع المعارف العلمية فى ذلك العصر ، وأن يضىف طابعه على علم المناخ وعلم المحيطات .

رحلاته من افريقيا الى الأمازون

ولد البارون هومبولت عام ١٧٦٩ وهو الابن الثانى لأسرة تنتمى الى الطبقة الارستقراطية فى مدينة برلين . وقد تلقى تعليما راقيا ، والتحق بنجاح بالجامعات الألمانية الشهيرة ، ومنها جامعة جوتينجن ، وفى عام ١٧٨٨ – ولم يكن قد أكمل سن حياته العشرين – أنهى دراسته فى العلوم الاقتصادية ، وتعرف على المستكشف « جوهان راينولد فورستر » وحدثه هذا عن رحلات جيمس كوك فى « أوقيانوسيا » التى اشترك فيها ويحتفظ لها بذكرىات كثيرة ، وأيقظت قصص الرحالة المثيرة فى نفس الشاب شغفا بالاستكشاف الذى مارسه طوال حياته .

وقام هومبولت بأول رحلة له عام ١٧٩٠ فى رفقة فورستر . وقد صعد نهر الراين ، وقصد على التوالى الى كل من هولندا وبلجيكا وانجلترا وفرنسا ، ولدى عودته سجل نفسه فى أكاديمية مناجم فرايبيرج فى ساكس ، فأبلى فيها تفوقا واضحا ، ولم يأت عام ١٧٩٣ حتى عهد اليه بتولى ادارة مناجم فرانكوينا . ومع ذلك استمر الشاب يحلم بالرحلات التى سوف تتيح له دراسة الطبيعة فى البلاد المختلفة . وعندما توفيت والدته عام ١٧٩٦ ورث عنها ثروة طائلة ، خصصها بأكملها لانجاز

مشروعاته الطموحة . وقد أدت به أبحاثه أولا الى سويسرا وايطاليا الشمالية ، وبعد ذلك بعامين زار جبال الألب الشرقية ، وفى ذلك الوقت شعر بما يجتذبه بصفة خاصة الى القارة الأمريكية . وخلال زيارة ثانية له لباريس عام ١٧٩٨ اتصل بعالم النبات الفرنسى « ايميه بونبلان » الذى يهوى الرحلات مثله ، فراح الاثنان يضعان معا مشروعات للقيام برحلات كبرى .

وخلال خمس سنوات قطع العالمان الطبيعيان ٦٠٠٠ كيلو متر ، فقد خططا فى البداية لاستكشاف القارة الأفريقية ، ميدان البحث الهام الذى يتيح لهما عدم الابتعاد كثيرا عن أوروبا . ومن سوء الحظ ، أنهما علما فى مارسيليا أن الباخرة التى سيستقلانها قد تعرضت لبعض التلفيات والعطب ، مما يحول دون ركوبهما البحر ، وباتفاق بينهما قررا الذهاب الى اسبانيا . وخلال شتاء ١٧٩٩ ، درس بونبلان فيها النباتات المحلية ، على حين انصرف هو الى الأبحاث الجيولوجية . ولم تمنعهما هذه الأعمال من السعى لدى الملك شارل الرابع بهدف الحصول على تصريح للذهاب الى المستعمرات الاسبانية . وقالوا انهما يريدان أن يجمعا منها بعض النباتات والحيوانات وأن يدرسا الحرارة والكهرباء والمغناطيسية الجوية . وأن يحددا هناك خطوط الطول والعرض وقيسا ارتفاع الجبال .

ووافقت الادارة الاسبانية على هذه المشروعات واهتمت بها ، وقدمت للشابين العالمين معونتها بغير تحفظ . وكان من شأن التوصيات العديدة التى حصلوا عليها لدى الدوائر العلمية والدبلوماسية أن سهلت الى حد بعيد سير حملتهما . وفى كل عاصمة نزلا بها ، كان الرحلان يستقبلان فيها بالفعل بترحاب شديد لدى الطبقة الارستقراطية فيها .

وفى يوم ٥ يونيو ١٧٩٩ ، استقل هومبولت وبونبلان الباخرة « بيزارو » وخلال توقفها للمرة الأولى فى جزر كناريا . راح الشاب الألماني يدرس الصخور البركانية فى الأرخبيل ، وبعد مرور شهر فى عبور المحيط ، اذا بهما يصلان الى مرسى كومانافى فنزويلا . وقام هومبولت بجولة فى المنطقة وحدد خطوط الطول ودرس المعادن ، على حين انصرف زميله الفرنسى الى دراسة النبات المحلى ، وأثبت بعض الأعشاب . ومع ذلك فان رحلتهم هذه لم تكن سوى فى بدايتها ، فمن ريو أبورى صعدا الاورينوكو بطول ٢٠٠٠ كيلو متر . وفى عالم مليء بالنمور الأمريكية والبعوض ، انطلقا ناحية الأمازون مجتازين الجنادل الضخمة ، وفى هذه المغامرة ، فقد بونبلان صحته ، وفقد هومبولت شعر رأسه !

وهبط العالمان مرة أخرى الأورينوكو حتى انجوستورا ، ثم انطلقا ناحية كوبا ، وخلال عودتهما الى القارة الأمريكية ، عند كولومبيا ، راقبا خسوف القمر يوم ٢ مارس ١٨٠١ . ومن بوجوتا الى ليما ، راحت قافلتهم التي تتكون من حوالى عشرين دابة ، محملة بالأطعمة والأدوات العلمية والعينات التي حصلوا عليها خلال الرحلة ، تسير على شكل ما فوق الطرق الجرداء الوعرة في جبال الانديز . وتسلك الرجلان جبالا وبراكين، وقاما بالصعود الى قمة تشبوراازو (٦٣١٠ أمتار) ، ولكنهما توقفا على بعد ٤٠٠ متر فقط من القمة . ولدى وصولهما الى ليما فوجئا بقسوة الجو عند ساحل بيرو . واكتشف هومبولت وجود تيار بحرى يدفع المياه الثلجة من القطب الجنوبي نحو الشمال ، فكان أول من يدرس هذا التيار الذى عرف منذ ذلك الوقت تيار هومبولت أو تيار بيرو ، ومن ليما أبحر العالمان الى المكسيك حيث قضيا العام الأخير من رحلتهم العلمية .

اشهر رجل فى أوربا

وفى عام ١٨٠٤ ولدى عودتهما الى أوربا ، سرعان ما أصبح هومبولت منارة فى الحياة الاجتماعية فى المانيا وفرنسا . فما كاد يعود الى باريس حتى بدأ يعد العدة لاصدار موسوعة ضخمة عن رحلته فى أمريكا ، واستطاع أن يجمع حوله عددا من المعاونين الألمان والفرنسيين . وبعد رحلة عملية قصيرة مع الكيماوى الفرنسى جاى لوساك فى ايطاليا ، واقامة سنتين ونصف فى برلين ، قرر هومبولت الاستقرار فى باريس حيث يستطيع أن يجد حاجته من دور النشر والفنانين القادرين على معاونته فى اصدار موسوعته وشجعه على ذلك الاستقبال الحافل الذى استقبلته به الجامعات العلمية والصالونات الأدبية فى باريس . وفى العام الأول بعد عودته كان قد ألقى عددا من المحاضرات وأقام معرضا لمجموعته العلمية التى أحضرها من أمريكا فى أربعين صندوقا ، كما أصدر الجزء الأول من موسوعته بالاشتراك مع بونيلاند بعنوان « جغرافية النباتات » .

وقد اقتضى اصدار تقارير هذه الرحلة أن يقضى هومبولت حوالى عشرين عاما متواصلة فى باريس اشترك فيها مع بونيلاند فى كتابة مرجع يقع فى ثلاثين مجلدا بالفرنسية أسماه (رحلة الى المناطق المعتدلة فى القارة الجديدة) يضم أبحاثهما فى مختلف فروع العلوم الطبيعية وغيرها من الدراسات الانسانية والعامة . وفى خلال هذه الفترة رفض هومبولت عام ١٨١٠ تعيينه وزيرا للتعليم فى الدولة الروسية ، وتساقبت الاكاديميات العلمية فى مختلف الدول على منحه عضويتها وصار - كما

تقول دائرة المعارف البريطانية - أشهر رجل في أوربا بعد نابليون
بونابرت !!

وفي عام ١٨٢٧ أمر فردريك غليوم الثالث ملك بروسيا بقطع
اجازة هومبولت الدراسية التي كان يقضيها في فرنسا ، واصر على أن
يتولى رئاسة لجنة لتشجيع العلماء والفنانين . وكان من شأن هذا النشاط
الجديد أن بقى في برلين حتى عام ١٨٢٩ وهو التاريخ الذي كلفه فيه
القيصر نيقولا الأول القيام برحلة الى آسيا الوسطى . وكان هومبولت في
ذلك الوقت في الستين من عمره ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقطع
٤٠٠٠ كيلو متر في ستة أشهر ، فاجتاز جبال الأورال ووصل الى توبولسك،
ومن هناك الى دزونجارية على الحدود مع سيبيريا .

وعلى المستوى العلمى تعتبر النتائج التى أسفرت عنها هذه الرحلة
أقل أهمية من نتائج الرحلة الأمريكية . ومع ذلك فإن المعلومات التى
جمعها سوف تتيح له أن يصيغ كتابا بعنوان : « آسيا الوسطى ، أبحاث
مقارنة عن سلاسل الجبال والمناخ » ، وفصلا عن ذلك فإن أبحاثه عن
الطبقات الجيولوجية للأورال سوف تتيح استغلال مناجم الماس فى هذه
المناطق . وفى عودته الى برلين أنشأ هومبولت دراسة عامة فى الجامعة ،
وكذلك حلقة للمحاضرات ، بمثابة مقدمة لكتابه الكبير عن العالم « عرض
للوصف الطبيعى للعالم » . وقد ظل يؤلفه لمدة ثلاثة عشر عاما ، من
عام ١٨٤٥ . ورغم أن هذه الدراسة جاءت بمفهوم القرن الثامن عشر ،
الا انها فى تناولها لظواهر العالم ، لازالت تعتبر مرجعا أساسيا فى
مجال الجغرافيا الطبيعية .

وقد توفى هومبولت فى ٦ مايو ١٨٥٩ فى برلين وكان فى السادسة
والثمانين من عمره . وقد احتوت مؤلفاته الكاملة عن علوم الأرض والعلوم
الطبيعية ، مثل السلاسل والتاريخ ، وكل تفصيل فى هذا العالم العريض،
هو ثمرة شجاعة وذكاء وفكر رجل عالمى .

تراثه الفكرى والعلمى

نشر هومبولت حوالى ٢٦ مؤلفا ، بعضها أبحاث علمية متخصصة وبعضها دراسات مطولة . ومن هذه الأبحاث التى نشر معظمها فى المجلات العلمية المعروفة فى ذلك الوقت ، دراسات عن التأثير الكهربائى على العضلات والأعصاب عام ١٧٩٧ ، وتركيب الهواء الجوى بالاشتراك مع « جاى لوساك » الكيماوى الفرنسى عام ١٨٠٥ ، وجغرافية النباتات عام ١٨٠٧ ، ودراسات عن الحضارات القديمة فى أمريكا عام ١٨١٠ ، وتوزيع الحرارة على الكرة الأرضية بواسطة الخطوط المتساوية الحرارة عام ١٨١٧ ، وأبحاث جيولوجية عن أنواع الجبال والبراكين والصخور عام ١٨٢٧ .

وفى ما يلى عرض لأهم كتبه :

١ - رحلة فى المناطق الاستوائية للمقارنة الجديدة قام بها فيما بين ١٧٩٩ ، ١٨٠٤ ألكسندر فون هومبولت وايمى بونبلاند .

كتبها هومبولت وصدرت فى باريس ابتداء من عام ١٨٠٧ فى ثلاثين جزءا . وهى تقرير كامل عن الرحلة فى أمريكا الجنوبية والمكسيك ويشمل على أكثر من ١٤٠٠ شكل وخريطة ، وتعتبر هذه المجموعة من أضخم التقارير العلمية .

٢ - دراسات عن الحالة السياسية فى مملكة اسبانيا الجديدة .
وقد صدرت فى خمسة أجزاء (١٨٠٩ - ١٨١٤) .

٣ - دراسات عن الحالة السياسية فى جزيرة كوبا .

وقد صدرت فى جزئين (١٨٢٦ - ١٨٢٨) ويناقش جغرافية واقتصاد المستعمرة الأسبانية وبه فصل هام عن تجارة الرقيق .

٤ - دراسة نقدية عن التطور التاريخى للمعرفة الجغرافية للعالم الجديد .

وصدر في ثلاثة أجزاء (١٨٣٦ - ١٨٣٩) عن الرحلات البحرية
والبعثات الاستكشافية وتاريخ الملاحة الفلكية في القرنين الخامس عشر
والسادس عشر .

٥ - آسيا الوسطى .

صدر في ثلاثة أجزاء في باريس ، وفي جزئين في برلين (١٨٤٣ -
١٨٤٤) كتقرير علمي عن رحلته في روسيا .
٦ - الكون . عرض للوصف الطبيعي للعالم .

وصدر بالألمانية في خمسة أجزاء (١٨٤٥ - ١٨٦٢) .

كتاب الكون عرض للوصف الطبيعي للعالم

فى عام ١٧٩٦ كتب هومبولت - وكان قد بلغ العام السابع والعشرين من عمره - الى صديقه « بيكتيه » العالم الفلكى فى جنيف ؛ عن فكرته فى كتابه وصف لطبيعة العالم . وظلت هذه الفكرة تختمر فى ذهنه حتى جاء الوقت لتحقيقها بعد ذلك بأربعين عاما ، فكتب فى عام ١٨٣٤ الى أحد أصدقائه يقول « لدى فكرة ضخمة . . أن أضع وصفا للعالم الطبيعى، أى كل ما نعرفه اليوم عن ظواهر الفضاء السماوى والحياة الأرضية . . . فى كتاب واحد » . ومضت عشر سنوات أخرى ، قبل أن يظهر الجزءان الأولان من كتاب الكون فى عامى ١٨٤٥ ، ١٨٤٧ . وكتب هومبولت الذى كان يبلغ الثمانين من عمره ، فى مقدمة كتابه « فى الهزيع الأخير من حياة زاخرة بالحركة ، أقدم للجمهور الألمانى عملا ، ظلت صورته العامة غير المحددة عالقة بذهنى لأكثر من نصف قرن » .

واقضى الانتهاء من كتابة الجزءين الثالث والرابع من هذا الكتاب ، ان يبذل الشيخ أقصى قوته وهو فى الحلقة التاسعة من عمره ، حتى قطع عليه الموت عمله فى الجزء الخامس الذى صدر بعد وفاته .

الجزء الأول :

وقد ظهر الجزء الأول من كتاب الكون عام ١٨٤٥ والثانى عام ١٨٤٧ ، بعد عمل شاق لمدة خمسة عشر عاما . وقد اعتبرهما هومبولت نفسه كمقدمة للأجزاء التالية . بدأ هومبولت الجزء الأول بمقدمة صغيرة تلتها « دراسة أولية عن تنوع مباحج الطبيعة واستقصاء علمى لقوانين العالم » وتحت هذا العنوان أعاد الكاتب - مع بعض التعديلات - ما سبق أن ألقاه من محاضرات عن الكون فى جامعة برلين فى شتاء ١٨٢٧ .

وقدم الجزء الأول « أهم ما فى الكتاب ٠٠٠ لوحات طبيعية للعالم كله ، سمائه وأرضه » ثم يقول « سوف نبدأ من أعماق الفضاء الكونى ثم نقرب بالتدريج خلال طبقات النجوم التى يتبعها نظامنا الشمسى ، الى الهواء والبحار التى تحيط بالكرة الأرضية ، فندرس تكوينها وحرارتها ومغناطيسيتها والحياة الزاخرة التى تتضاعف على سطحها وتتأثر بالضوء . وهكذا فى لمسات قليلة تحتوى صورة الكون ، الفضائى اللانهائى للعالم ، والكائنات الميكروسكوبية الدقيقة فى المملكة الحيوانية والنباتية ، . وتبلغ الدراسة نهايتها بظهور الانسان على سطح الأرض وتطوره الطبيعى والتوزيع الجغرافى للأجناس المعاصرة وقوى الطبيعة التى تؤثر على الانسان وتتأثر به .

ويصل هومبولت الى قمة دراسته فى هذا الجزء ، بتأكيد وحدة الأجناس البشرية فيقول تحت عنوان « نظرة عامة على الظواهر الطبيعية » : « واذا كنا نؤكد وحدة الجنس البشرى فنحن نعارض كل افتراض مؤسف عن وجود أجناس بشرية عليا وأجناس سفلى . ان هناك من وصلوا الى درجة رفيعة من الثقافة والعلم ، وهؤلاء ارتفعت بهم الحضارة الروحية الى مستوى السيادة ، ولكن ليس هناك شعب سيد ان الجميع لهم حق المساواة فى الحرية » . وكهدف رئيسى لهذه الحرية ، عبر هومبولت بكلمات شقيقه « فلهلم فون هومبولت » عن فكرة الانسانية « بالكفاح لرفع الحدود التى يضيها التعصب والآراء المتحيزة والتى تزكى روح العدا بين البشر ، ومعاملة البشرية كلها كوحدة كبيرة وعنصر متأخ بصرف النظر عن الدين أو الوطن أو اللون ، حتى يمكن الوصول الى التطور الحر للقوى الكامنة فى أعماق الانسان » .

الجزء الثانى :

ويدور الجزء الثانى من كتاب « الكون » أساسا حول تاريخ المشاهدة الطبيعية للعالم . وهو ما يعنى به هومبولت « تاريخ التعرف الى الطبيعة ككل ، وفى نفس الوقت تاريخ الفكر الخاص بوحدة الظواهر الطبيعية وتفاعل قوى الطبيعة فى الكون » . ويرى هومبولت ان هناك ثلاثة عوامل أدت الى هذا التطور فى المعرفة ، الأول هو الرغبة الطبيعية للعقل الانسانى فى الكشف عن قوانين الطبيعة أى التأمل والملاحظة العلمية لظواهر الطبيعة ، والثانى هو الاحتكاك العالمى الذى أدى الى الاتساع المفاجئ فى أفق الملاحظة العلمية . أما العامل الثالث فهو اختراع أجهزة وطرق جديدة للملاحظة الحسية قربت الانسان الى الكائنات الدقيقة ، والأجرام السماوية البعيدة ، وجعلت الملاحظة أكثر دقة .

وهكذا عرض هومبولت كمؤرخ عالمي لتاريخ الملاحظة الحسية للطبيعة خلال سبعة أحقاب رئيسية تغطي ألفى سنة ، ووضع الى جانب اللوحات الرئيسية للطبيعة في الجزء الأول من الكتاب لوحات للتطور التاريخي في جزئه الثاني ، مما أضفى على الكتاب صفة كلاسيكية . وبظهور الجزئين الأولين من الكتاب انتهى هومبولت من مهمته الأساسية في وصف « الكون » .

الأجزاء : الثالث ، الرابع ، الخامس :

وفي عامي ١٨٥٠ ، ١٨٥٨ ظهر الجزآن الثالث والرابع من الكتاب ، وفي هذين الجزئين عالج هومبولت التفاصيل الدقيقة والعلاقات المتداخلة لظواهر الكون والكرة الأرضية التي كان قد عرضها في شمول وبصفة عامة في الجزئين الأولين من كتابه .

وهنا يظهر هومبولت كعالم طبيعي ، ومؤلف غني المادة بدقائق كل فرع من فروع العلم التي عالجها . ولهذا فإن الجزئين الثالث والرابع لهما قيمة تاريخية خاصة في دراسة تقدم العلوم ، كذلك فإن هومبولت استطاع أن يكتشف ويدرس ، كما يقول أدولف فون هارناك « المشكلة الكبرى والمهمة للعلوم ، أي العلاقات المتداخلة بين الميادين المختلفة للفروع المتباينة ، كما انه استطاع أن يشجع كثيرا من معاصريه من العلماء الشبان على الدراسة والبحث .

ظهرت الأجزاء الأربعة من الكتاب في ٢٤٠٠ صفحة تضم أكثر من ٣٥٠٠ ملاحظة وتعليق عن كثير من أسرار هذا الكون . أما الجزء الخامس ، فقد كتب هومبولت مقدمته وفصلا عن البراكين وبداية فصل عن تقسيم الجبال وطرق تكوينها وأنواع الصخور . إلا أن الموت لم يمهله ليتمه ، فقام بهذا العمل « أدوارد بوشمان » الذي استطاع أن يكتب سجلا ضخما لمحتويات كتاب « الكون » كله فظهر الجزء الخامس عام ١٨٦٢ .

احتفاء العلماء بالكتاب

كان نجاح الكتاب ساحقا ودليلا على ما يتمتع به مؤلفه من تقدير . فقد كتب ناشره « كوتا » بعد ظهور الجزء الثاني : « لم يستطع الموزع أن يجد كلمات يصف بها العاصفة التي اجتاحت منزله عندما وصلته نسخة الجزء الثاني . وكان عليه أن يدافع عن نفسه أمام جماهير الراغبين في الشراء والمتسلمين لنسخهم . وقد حدث نتيجة لهذا ، أن طرودا كانت

مرسلة الى بطرسبرج أو لندن ، أخذت عنوه لترسل الى فينا أو هامبورج .
لقد كانت هناك معارك حقيقية من أجل الحصول على هذا الكتاب ، . .

ظهر هومبولت بكتابه كشخصية أسطورية ، وترجم الكتاب في حياة صاحبه الى تسع لغات حية . وكتب الأمير مترنيخ النمساوى يشكر « للساعات من السعادة الحقيقية » التي وفرها له الجزء الأول من كتاب « الكون » . كذلك كان الكتاب موضع تعليق واهتمام الصحافة الأجنبية وخاصة في فرنسا وإنجلترا . ولم يكن العلماء أقل حماسا في استقبال الكتاب من جمهور المثقفين عامة ، فنجد العالم الفلكي « أرجلاندر » يعلق : « ان الكتاب يحوى ، بصرف النظر عن النظام البديع للمواد المختلفة . . . كثيرا من الجديد ومن القديم غير المعروف ، حتى انه يعطى حقا كل فلكي كثيرا من المعلومات . . . لقد تعلمت كثيرا منه ، كما ان الكتاب أعطاني فعلا أفكارا لعديد من التجارب . . . » وسرعان ما أصبح الكتاب أكثر الكتب - بعد الكتاب المقدس - انتشارا في ذلك الوقت . وكان التوزيع الضخم للكتاب دليلا على دخول العلوم ميدان الثقافة والتربية الى جوار الأدب والفن . وكاد يصبح من المتعارف عليه أن على كل مثقف أن يقرأ كتاب « الكون » لهومبولت أو أن يقتنيه في مكتبته على الأقل .

هومبولت رائد علم البحار

وليس كتاب « الكون » كتابا في علوم البحار ، ولم يكن هذا العلم سوى واحد من العلوم التي اشتغل بها هومبولت . وقد اخترنا علوم البحار لنحدث عنها كنموذج لما استطاع أن يقدمه هومبولت لهذا العدد من العلوم التي اشتغل بها .

فعلم البحار من العلوم الحديثة التي يرى الكثيرون أن بدايتها كعلم مستقل ترجع الى أول بعثة علمية منظمة جاءت محيطات العالم على ظهر سفينة الأبحاث الانجليزية « تشالنجر » خلال الفترة من ١٨٧٣ الى ١٨٧٦ ، أى بعد وفاة هومبولت بأكثر من عشر سنوات . وقد شارك هومبولت في تأسيس هذا العلم بملاحظاته العلمية ودراساته عن الظواهر الطبيعية التي كان يقوم بها أثناء رحلاته البحرية أو إقامته على السواحل ، فاهتم بعدد كبير من الظواهر البحرية يتعلق معظمها بحركة المياه وخواصها الطبيعية والكيميائية وتوزيعها في بحار العالم . والمتصفح لفهرست كتاب « الكون » في الجزء الخامس يجد تحت كلمة « البحر » أربع صفحات ونصف مليئة برؤوس الموضوعات التي طرقها تحت هذا العنوان . ومعظم كتابات هومبولت في هذا المجال تعتبر قديمة بالنسبة للتقدم الحديث في هذه

العلوم ، الا أن هذا العالم يعد رائدا دفع بعلوم البحار خطوات الى الأمام ،
فى بعض ما قدمه من نظريات لاتزال تحظى بتقدير علماء اليوم .

وقد قدم هومبولت نظرية عن الحركة العامة للمياه فى المحيطات
تفترض أن المياه السطحية عند القطبين تبرد فتزداد فى الكثافة وتهبط
الى القاع حيث تزحف من القطبين حتى خط الاستواء ، وهناك تأخذ فى
الارتفاع الى السطح حيث تتحرك فى تيارات سطحية تتجه مرة أخرى
من خط الاستواء حتى القطبين كى تكتمل الدائرة وتواصل المياه حركتها
الأزلية - هذه النظرية التى قدمها هومبولت فى الجزء الأول من الكتاب ،
لاتزال تحتفظ بتقدير كبير فى علوم البحار ، رغم ما أدخل عليها من تعديل
وتطوير .

وفى مكان آخر يتحدث هومبولت عن العوامل التى تؤثر فى التيارات
السطحية للمحيطات . وهو فى هذا الحديث يسبق عصره ويعطينا شرحا
عاما عن رأيه فى أسباب نشوء التيارات السطحية فيذكر منها اختلاف
درجات الحرارة والملوحة بسبب الذوبان الموسمي لثلوج القطبين واختلاف
التبخر فى خطوط العرض المختلفة ودور الرياح التى تسود مناطق معينة .
ثم يتحدث عن أثر دوران الأرض على مياه المحيطات فى خطوط العرض
المختلفة وكيف يتوقع أن « تنحرف المياه التى تتحرك من الجنوب الى الشمال
نحو الشرق ، وعلى العكس من ذلك تنحرف التيارات القادمة من القطب
الى خط الاستواء نحو الغرب » . وهو يربط هذه الأفكار بالملاحظات
البحرية القديمة عن المناطق الاستوائية والمناطق القطبية حول نيوفوندىلاند .
ثم يقارن بين سرعة الرياح وسرعة التيارات التى تتأثر بها ويتبع ذلك
بأفكار صائبة عن توزيع الضغط الجوى على سطح البحر وأثر ذلك على
حركة المياه السطحية .

ان نظريات التيارات البحرية أصبحت تعتمد الآن على البراهين
الرياضية ، وانتقلت هذه الدراسات من المشاهدة الوصفية الى التقديرات
الكمية بفضل تقدم طرق القياس وأجهزتها على سفن الأبحاث . ورغمما عن
هذا التطور الكبير فى معلوماتنا ، فاننا نقرأ اليوم باعجاب كبير ما كتبه
هومبولت فى هذا المجال تعتبر قديمة بالنسبة للتقدم الحديث فى هذه
الربط العلمى بين الظواهر ومسبباتها . ولو أتيج لهومبولت أن يخرج
بأفكاره هذه الى البحر فى دراسة عملية ، لدفع بتاريخ علوم البحار
سنوات الى الأمام .



قيمة الكتاب كوثيقة علمية وتاريخية

بالغة الأهمية

لاحظ أحد مؤرخي الكسندر فون هومبولت ، ولم يكن قد مضى على ظهور الجزء الأول من كتابه « الكون » ثلاثون عاما ، أن بعض المعلومات الواردة في الكتاب قد أصبحت قديمة ، فما أهمية الكتاب اليوم بعد مرور حوالي مائة وخمسين عاما على صدوره ؟ وماذا بقي من شهرته وشهرة مؤلفه ؟ هل تنحصر قيمته في أنه سجل لما بلغته العلوم في نهاية القرن الثامن عشر ؟ وفي أنه يمثل الروح العظيمة لآحد عمالقة العلم في ذلك العصر ؟ وبمعنى آخر هل تتركز أهمية الكتاب في قيمته التاريخية فيعنى به المؤرخون الذين يهتمون بدراسة تطور العلوم في هذه الحقبة من الزمن ، أم ان له قيمة خاصة لكل المشتغلين بالعلوم الطبيعية وفلسفتها ؟

لم يكن الكسندر فون هومبولت أكثر علماء عصره شهرة فقط ، بل كان أكثرهم شمولا في المعرفة واتساعا في الأفق . فلم تنحصر أبحاثه ودراساته في علم أو مجموعة واحدة من العلوم ، بل استطاع أن يقدم إضافات قيمة لعدد من العلوم الجديدة التي وضع هومبولت الأساس لبعضها أو على الأقل شارك في تأسيسها . ورغما عن هذا فإن هومبولت يذكر في مقدمة كتابه انه وان كان قد صرف عمره كله في أبحاث في مختلف فروع العلم ، الا ان هدفه كان أكبر من ذلك ، كان « محاولة فهم الظواهر الطبيعية للأجسام المادية في علاقاتها العامة ، وفهم الطبيعة كشيء كامل ، متحرك وحي ، بواسطة قوى داخلية » . وفي مكان آخر يقول « لقد تعلق عيناى على الأثر المتناسق لهذه القوى أى أثر الموجودات غير الحية على الكائنات الحية في عالم الحيوان والنبات » . وهكذا لم تفارق ذهن هذا العالم الرحالة فكرة « كلية الطبيعة » سواء كان يعمل في منجم تحت الأرض أو على قمة جبل أو كان يدرس نباتا دقيقا أو يلاحظ الفضاء الخارجى . بل ان اتساع معرفته وخبرته العريضة بعدد كبير من الفروع العلمية ، أتاح له أن ينظر من بعيد الى ظواهر الطبيعة وعلاقاتها ، وان

يجعل من التفاصيل دعامة للعموميات ، وأن يجد في العموميات شرحاً للتفاصيل .

ويعرض هومبولت في كتابه صوراً حية للطبيعة ، وهو يستعمل لغة قلما يستعملها باحث علمي ، انه يتفاعل مع الطبيعة ويحسها قبل أن يصفها ، فهو عالم فنان ، يهدف الى مضاعفة التمتع بالطبيعة « بالنظرة العميقة في معارفها » . فنرى ان الجزء الأول يدخل اصطلاح لوحات الطبيعة ويكثر من استعماله ، وهو اصطلاح لا يتفق فقط مع ذوق ذلك العصر بل انه تعبير عن النفس البشرية وحقيقة الكون الذي يحيط بها . وهو يعنى من ناحية أخرى الأثر المتكامل للطبيعة جميعها على النفس البشرية بصرف النظر عن العناصر السماوية والأرضية الداخلة في تركيب هذه اللوحة .

ان البحث عن وحدة الخبرة رغبة قديمة للانسان . ونحن اليوم أكثر قدرة على وصف الطبيعة وفهمها بما بلغناه في مضمأن القياس . لقد رفع هومبولت من قدرتنا على وصف الطبيعة وفهمها ، بما أدخله من طرق للدراسة والبحث ، وبما أسسه من علوم جديدة لها هياكلها الخاصة . فهو يدرس التوزيع الجغرافي للنباتات على سطح الأرض ، والعلاقة بين أشكال النباتات ونوع التربة والجو في المناطق المختلفة وعلى الارتفاعات المختلفة للأرض . ويستخدم لايضاح أفكاره طريقته التي اكتشفها في توزيع درجات الحرارة على سطح الكرة الأرضية بواسطة خطوط الحرارة المتساوية .

وهكذا يرى الباحث في الجزء الأول من الكتاب قدرة كبيرة على ربط الظواهر الطبيعية المختلفة وایضاح العلاقات الداخلية بينها ، مما يعطى الكتاب قيمة علمية بقدر ما يظهره كوثيقة تاريخية بالغة الأهمية .

لقد رأينا كيف ختم هومبولت الجزء الأول من كتابه بالدعوة للمساواة بين الأجناس . وهو في هذا لا يصدر عن مثالية البرج العاجي ، وحماس البعيد عن المشكلة ، بل يتحدث كرجل جاب العالم ، وخبر هذه الأجناس ، وزار مستعمرات العالم الجديد . فاذا تحدث عن هذه المستعمرات كأهم لها حق الاستقلال والمساواة مع دول العالم القديم ، فهو يتحدث كعالم درس أرضها وبحارها ومحض جبالها وأنهارها ورسم خرائطها وحدودها بل وكباحث في العلوم الانسانية اهتم بتاريخها الحضارى وحالتها الاقتصادية والاجتماعية .

لهذا كانت دعوته الى المساواة بين الشعوب ، والأجناس وتقديس الحريات الفردية دعوة قوية تركت أثراً عميقاً بين شعوب أمريكا الجنوبية

والوسطى • فنجد أول رئيس لجمهورية المكسيك يحيى دوره فى كفاح بلاده من أجل الاستقلال ، كما تصفه جامعة هافانا فى لوحة وضعتها على تمثاله أمام جامعة هومبولت فى برلين « بالمكتشف الثانى لكوبا » ، أما فنزويلا فتعتبره « خادما عظيما لبلادها » وتذكر ان « سيمون بوليفار » أول رئيس لها ومحرر أمريكا الجنوبية ، والذي تأثر فى صدر حياته بهومبولت وصادقه بقية عمره ، كان يصفه « بالمكتشف العلمى للعالم الجديد » •

فى الجزء الثانى من كتاب « الكون » يجمع هومبولت بين مقدرته على وصف العالم الى استيعابه لتاريخه فيترك لنا عرضا مبثرا ، بالغ الأهمية لتاريخ الحضارات الانسانية ، من غزوات الاسكندر الأكبر ، الى اتساع الامبراطورية الرومانية ، ونمو العالم الاسلامى الى الكشوفات البحرية الكبيرة ، كوقائع غرت أفكار الانسان عن الأرض التى يعيش عليها • وهو يفرق فى اعجابه بعصر الكشوفات البحرية ، ويعرض لوحة حية لجهود كولمبوس فى هذا المضمار • وتعد كتابات هومبولت فى تاريخ الحضارة العلمية من الكتابات القليلة التى تلتزم الحياد وتبحث عن الحقيقية حين توضح التفاعل بين الحضارات والمؤثرات المختلفة •

ويدرس هومبولت الطبيعة بوجهتى نظر مختلفتين ، الأولى كنظرة واقعية الى الظواهر الخارجية ، والثانية كرد فعل يظهر كصورة تستقبلها حواس الانسان وتؤثر على أعماقه وشعوره وخياله • ولا ريب أنه كان يعرف بالتأكيد ان الصورة المعكوسة من الطبيعة على نفس الانسان تحمل ملامح خيالية كنتيجة لطاقة الابداع البشرى • ولهذا ينشأ الى جوار العالم الواقعى أو الخارجى عالم مثالى نشأ مع الانسان البدائى كعالم خيالى أسطورى توارثته الأجيال وظل حيا رغم الصورة الحقيقية التى أدخلها العلم الحديث ولا يزال لتحل محل الصورة الأسطورية •

ويرى هومبولت ان هذه الصورة المثالية للعالم تدخل فى صميم كتابه عن « الكون » وأن الكتاب يحقق هدفه عندما يصل الى فهم كامل لهذين العالمين ، العالم الحقيقى والعالم المثالى • وهذا يقتضى أن تصل العلوم الطبيعية الى درجة من التقدم تسمح لنا بتفهم نظام الطبيعة ، أى بما يتأتى لنا ان ننتقل من القدرة على وصف العالم الى شرح أسرار • ومن ناحية أخرى يقتضى فهم العالم الداخلى ، متابعة عملية التطور التى اجتازتها الانسانية فى تأثرها بالطبيعة •

حقاً .. لقد صدق « جوته » حين وصف صديق عمره « هومبولت »
بـيقوله :

« يا له من رجل ! فرغم معرفتي الطويلة به فانه يثير دهشتي
باستمرار . ان المرء يستطيع أن يقول ان لا مثيل له في المعرفة والعلم .
بل لم أعرف يوماً مثل هذا التعدد في القدرات ، فمن أين تأتيه نجده سيد
الموضوع ويبهرك بكنوزه الروحية » ..

مراجع مختارة

- ١ - اصول الكتب الأربعة عشرة
- ٢ - أبو العلاء المعرى
تأليف طه وادى
- ٣ - أبو العلاء المعرى فى بغداد
تأليف عائشة عبد الرحمن
- ٤ - أبو العلاء المعرى فى آراءه فى لزومياته
تأليف كمال اليازجى
- ٥ - اعلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر
تأليف هنرى توماس
- ٦ - ألف ليلة وليلة
تأليف سهير القلماوى
- ٧ - تاريخ الانسانية
تأليف أحمد حسين
- ٨ - جان جاك روسو وآراءه فى الاصلاح الاجتماعى
تأليف محمد عطية الابراشى
- ٩ - الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله
تأليف مايكل هارت
- ١٠ - الخالدون العرب
تأليف قدرى حافظ طوقان
- ١١ - رباعيات عمر الخيام
ترجمة أحمد رامى
- ١٢ - رباعيات عمر الخيام
ترجمة وديع البستانى
- ١٣ - رسالة الغفران
تحقيق عائشة عبد الرحمن

١٤ - دائرة معارف الشعب

١٥ - شخصيات تاريخية من سقراط الى راسيوتين
تأليف على ادم

١٦ - عمر الخيام حياته وفلسفته ورياعياته
تأليف أحمد الشنتناوى

١٧ - الغزالي والتصوف الاسلامى
تأليف أحمد الشرباصى

١٨ - فلاسفة الاسلام
تأليف سعيد عبد العزيز

١٩ - قصة الحضارة
تأليف ول وايريل ديورانت

٢٠ - المعجم الفلسفى
تأليف د. جميل صليبا

٢١ - نفائس الفلسفة الغربية
تأليف د. عثمان أمين

٢٢ - هيرودوت
تأليف ا.ج. ايفانز

٢٣ - هيرودوت يتحدث عن مصر
تأليف د. محمد صقر خفاجة

فهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٠	التاريخ الجامع ميرودوت ٤٢٧ ق م
٣٤	فن الشعر أرسطو ٣٣٥ ق م
٥٧	تهذيب الأخلاق وتطهير الانحراق مسكويه ١٠٢١ م
٧٤	رسالة الغفران أبو العلاء المعري ١٠٣١ م
٩٨	الرباعيات عمر الخيام ١٠٨٠ م
١٢٠	الأحياء أبو حامد الغزالي ١١٠٠ م
١٤٠	الفتوحات المكية محيي الدين بن عربي ١٢٢٨ م
١٥٨	علم الأخلاق اسبينوزا ١٦٧٧ م
١٨٢	ألف ليلة وليلة مجهول المؤلف والتاريخ
١٩٨	دائرة المعارف الكبرى ديدرو ١٧٥١ م
٢٢٨	العقد الاجتماعي جان جاك روسو ١٧٦٢

- فن التربية الجمالية للانسان ٢٥٢
فردريش شيلر ١٨٣٧ م
- فلسفة التاريخ ٢٧٢
هيجل ١٨٣٢ م
- الكون .. عرض الوصف الطبيعي للعالم . . . ٣٠٤
الاسكندر رمون هومبولت ١٨٤٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٣/٥٤٨٧

ISBN — 977 — 01 — 3420 — 1

- التاريخ الجامع
- فن الشعر
- تهذيب الأخلاق
- رسالة الصفران
- الرباعيات
- الأحياء
- الفتوحات
- علم الأخلاق
- ألف ليلة وليلة
- حائرة المعارف الكبرى
- العقد الاجتماعي
- فن التربية الجمالية للإنسان
- فلسفة التاريخ
- الكون
- لاهيرودوت
- لارسطو
- لمسكويه
- لابی العلاء المعرى
- لعمر الخيام
- للغزالي
- لابن عربى
- لاسبينوزا
- مجهولة المؤلف !!
- لديدرو
- لجان جاك روسو
- لشيلر
- لهيجل
- لهومبولت

